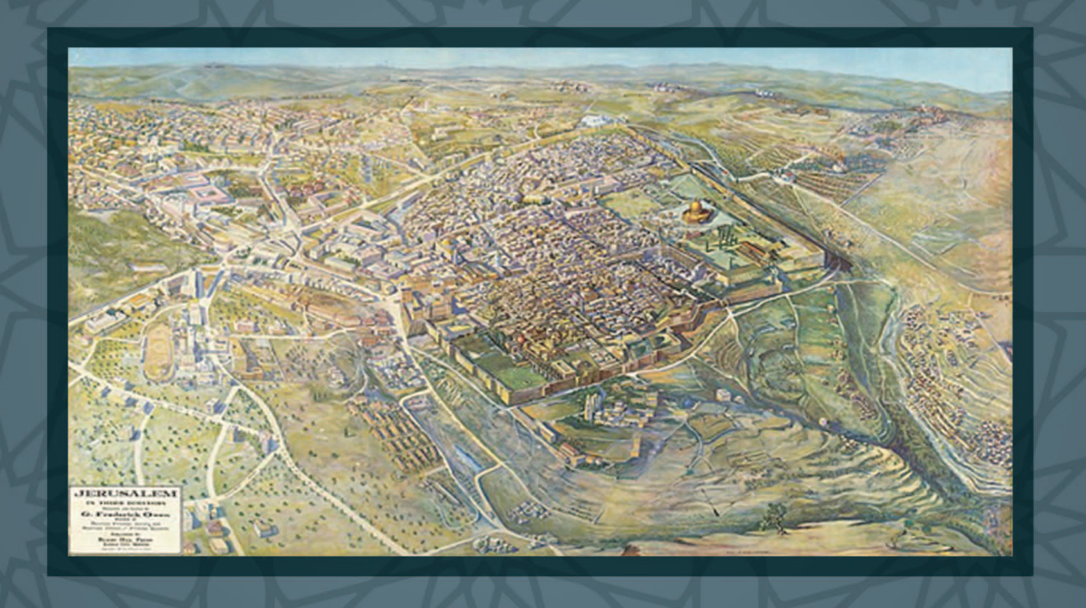
القدس قبل الإسلام

بين النصوص التوراتية والمصادر التاريخية والآثار



زيدان عبدالكافي كفافي

2021





القدس قبل الإسلام

بين النصوص التوراتية والمصادر التاريخية
والآثار

القدس قبل الإسلام

بين النصوص التوراتية والمصادر التاريخية
والآثار



زيدان عبدالكافي كفافي



وزارة الثقافة

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 2 1

2021

رقم الإيداع لدى المكتبة والوطنية
(2021/4/2385)

956.411
كفافي، زيدان عبدالكافي
القدس قبل الإسلام بين النصوص التوراتية والمصادر التاريخية والآثار /زيدان عبدالكافي كفافي .- عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2021
( ) ص.
ر.إ: 2021/4/2385.
الواصفات :/القدس//المصادر التوراتية//الآثار//تاريخ القدس/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية وأي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-00-842-0
القدس قبل الإسلام بين النصوص التوراتية والمصادر التاريخية والآثار.
- **زيدان عبدالكافي كفافي**
- **الطبعة العربية الأولى: الإصدار الأول** 2021.
- **الإخراج الداخلي وتصميم الغلاف: اسماعيل صباحين.**
- **التحرير اللغوي: الدكتور عمر الغول**

صورة الغلاف: Jerusalem in Third Dimension Designed and Edited by G. Frederick Owen Member of Palestine Oriental Society and American School of Oriental Research - Internet

طبع بدعم من وزارة الثقافة – الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة.





دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618191 / 4618190
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11118 عمان - الاردن
Email: shorokpub@gmail.com

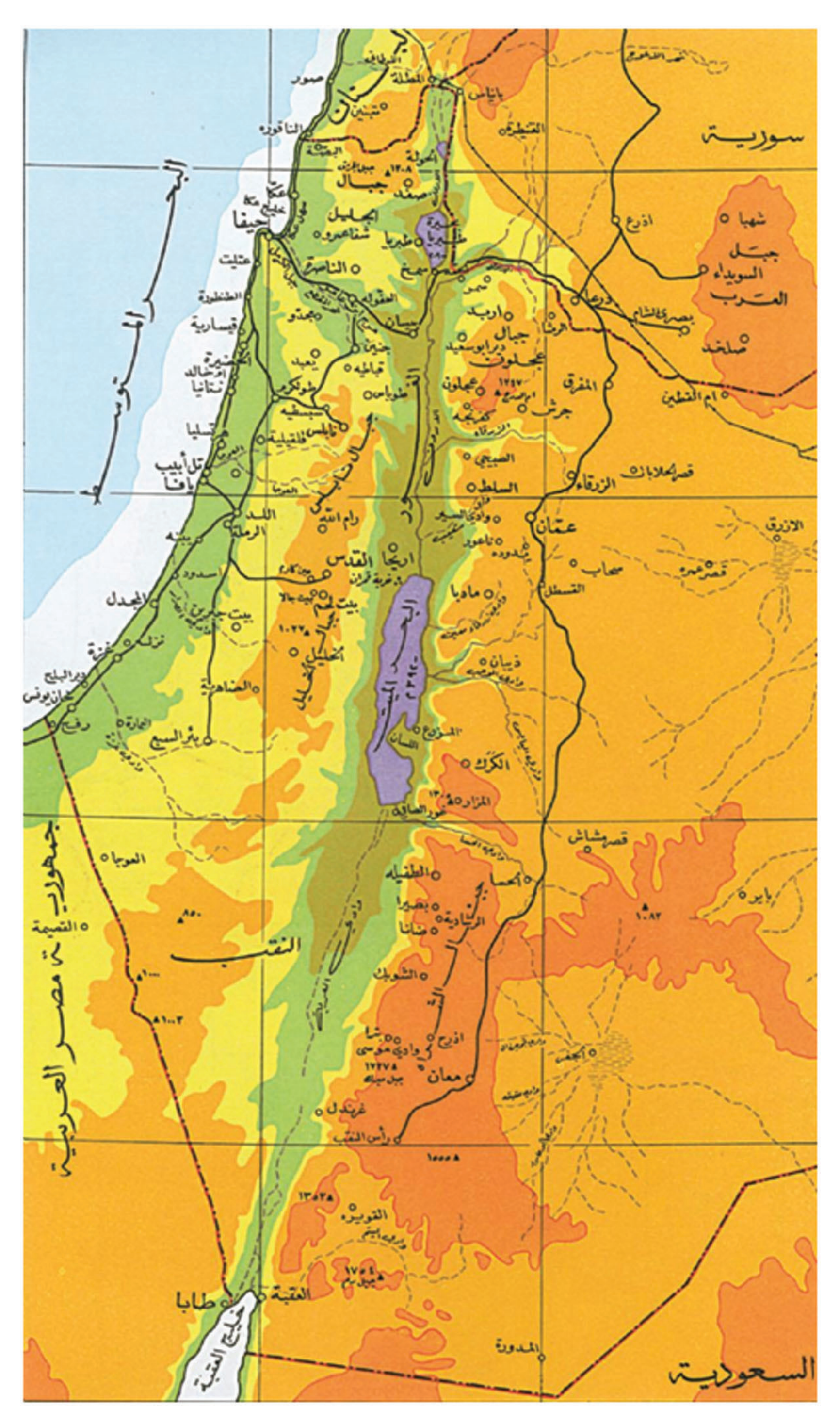
دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - المصيون : نهاية شارع مستشفى رام الله
هاتف: 2975633 - 2991614 - 2975632 فاكس: 02/ 2965319
Email: shorokpr@palnet.com

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)﴾ **(سورة المائدة)**

ثبت المحتويات

ثبت الأشكال

.39	نقش تل القاضي (دان) (عن Isserlin 1998: Fig. 36)	177
.40	نقش ميشع (عن Dearman 1994).	181
.41	مسلة الملك الآشوري المسماة «المسلة السوداء» التي تظهر انتصاره على عدد من الملوك ومنهم ملك إسرائيل «يهو» (عن Isserlin 2001: Fig. 23).	184
.42	المشهد المصور على المسلة السوداء ويظهر الملك ياهو بن عمري يسجد تحت قدمي الملك الآشوري تيجلات بلاصر الثالث (عن Wikipdia).	185
.43	هذه مدينة داود التي يتخيلها الإسرائيليون ولم يُعثر على أية آثار تثبت تخيلهم.	189
.44	أ: منظر عام لمدينة نابلس وفي الخلفية جبل جرزيم ب: منظر عام لحي السمرة في نابلس (عن Landauer 1925: 80أ 81).	209
.45	أواني فخارية من الفترة الفارسية من الحديقة الأرمنية (عن: Tushingham 1985: Fig. 13).	213
.46	أواني فخارية عُثر عليها في الحديقة الأرمنية تؤرخ للفترتين الفارسية والهيلنستية (عن: Tushingham 1985: Fig. 17).	214
.47	أواني فخارية من الحديقة الأرمنية تؤرخ للفترة الهلنستية المتأخرة والرومية المبكرة (عن: Tushingham 1985: Fig. 25).	224



شكل 1 : خارطة فلسطين والأردن

شكر وعرفان

جاءت فكرة هذا الكتاب عندما كنت أشارك بفعاليه على zoom بدعوة من منتدى الفكر العربي حول «الرحاله الجغرافيين» وبمشاركة مركز الحسن بن طلال لدراسات القدس، ويديرة الدكتور محمد غوشه، حينها قلت للدكتور محمد أنني أنوي جمع مقالاتي التي نشرتها حول القدس في كتاب، فشجعني على ذلك. لكن، لم يكن يدر في خلدنا أن سمو الأمير الحسن يتابع حديثنا، فقال لي حفظه الله ورعاه مخاطباً:- «يالله بسرعه يا زيدان»، وها أنا ألبي رغبة سمو الأمير العالم والمفكر، فعلّ ما في هذا الكتاب ينال استحسانه، شكراً جزيلاً سيدي سمو الأمير على استمرار تشجيعكم ودعمكم.

يأتي هذا الكتاب في زمن أحوج ما نكون فيه لمثله، ولولا تفهم ومساعدة الكثير من المؤسسات العلمية التي نشرت لي الأبحاث المستخدمة فيه، وذلك بإعادة استخدامها، والمذكورة عناوينها في مقدمته ما ظهر هذا الكتاب الذي بين أيدينا إلى النور. فلوزارة الثقافة في المملكة الأردنية الهاشمية، وللقائمين على مجلة أدوماتو/ مركز عبدالرحمن السديري الثقافي، وكلية الآداب في جامعة الكويت، وهيئة تحرير المجلة العربية للعلوم الإنسانية والإجتماعية التي تصدر عن جامعة الكويت، ومديرية الآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية، كل التقدير والاحترام لسماحهم لي بإعادة نشر ما نشر في مجلاتهم وفي أعمال المؤتمرات التي نظمت بمناسبة «القدس عاصمة الثقافة العربية»، والشكر موصول لوزارة الثقافة ممثلة بمعالي الوزير علي العايد على دعمها المادي في نشر هذا الكتاب.

كما أتقدم بالشكر أجزله للأستاذ الكبير الدكتور عاصم البرغوثي لقرائته للنص والتعليق عليه، وتشجيعه على نشر هذا الكتاب، فكانت ملاحظاته في صميم العمل. فالدكتور درّس الآثار الكلاسيكية في الجامعة الأردنية، وفي جامعة الملك سعود، وعمل

أميناً لمتحف الآثار الفلسطيني في القدس كما وشارك في الحفريات الأثرية التي أجرتها كاثلين كنيون خلال ستينيات الألف العشرين في القدس ممثلاً لدائرة الآثار العامة الأردنية.

أما الدكتور حمدان طه/ مدير دائرة الآثار الفلسطينية في الضفة الغربية السابق فقد قرأ مسودة الكتاب قبل نشرها، وقدم الملاحظات والرأي العلمي حول النص فله الشكر أجزله. وكذلك عندما احتجت لبعض الصور الحديثة للقدس توجهت للصديق الدكتور مروان أبو خلف/ عميد معهد الآثار السابق في جامعة القدس/ أبو ديس فزودني بها مشكوراً.

الأخ والصديق الدكتور عمر الغول/ مدير مكتبة الحسين بن طلال في جامعة اليرموك لم يبخل علي بأي جهد في سبيل وصول هذا الكتاب لمراحله النهائية، فهو من قرأ النص وأبدى ملاحظاته عليه، وحرر اللغة العربية فيه، فله كل الثناء والشكر، كما وقرأ هذا الكتاب وأبدى رأياً في المعلومات الواردة فيه كل من الأستاذ الدكتور نعمان جبران، والأستاذ الدكتور منذر الشرع، فلهما كل الشكر والعرفان.

والشكر موصول أيضاً للدكتور موفق العتوم/ عميد كلية الحجاوي في جامعة اليرموك لمساعدتي في عمل ورسم الخرائط وضبط الصور التوضيحية المرفقة في هذا الكتاب. كما أتقدم بالشكر الوافر للأخ والصديق الدكتور خالد أبو غنيمه لتدقيقه الإحالات العلمية وضبط قائمة المراجع المستخدمة في كتابة الكتاب. وأما الجندي المجهول المتواضع، والذي أخرج الكتاب بأحسن صورة، السيد اسماعيل صباحين من مديرية العلاقات العامة في جامعة اليرموك فلن أوفيه حقه مهما قدمت له من الشكر لتعاونه الدائم وتفانيه في العمل.

المقدمة

قبل البدء بالحديث حول موضوعنا الرئيس، وهو القدس قبل الإسلام: بين النصوص التوراتية والوثائق التاريخية والآثار «دراسات وأبحاث منشورة وغير منشورة»، وجدنا أنه من الأهمية بمكان أن نقدم لكتابنا هذا بتعريف للكتاب المقدس؛ إذ إننا نظن أن كثيرًا من القراء الأكارم ربما لم تتح لهم الفرصة للاطلاع على أسفار الكتاب المقدس ومضامينها ومعانيها. ومن هنا، وجدنا أنه لا مندوحة من تقديم معلومات أولية حول التوراة بشكل خاص وتضمينها في مقدمة هذا الكتاب، إذ إن مناقشة النصوص التوراتية تشكّل جزءًا رئيسًا من الموضوع.

يتألف الكتاب المقدس من قسمين، هما: العهد القديم أو التوراة، والعهد الجديد (الإنجيل). تعني التوراة باللغة العبرية «الشريعة» أو «التعليم» أو «التوجيه»، وترمز للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التناخ)، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: التوراة، والأنبياء، والأدبيات/ الكتابات. والقارئ لكتاب العهد القديم يجد أنه مبوّب إلى أربعة أبواب، هي: الخليقة والناموس (أسفار التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، والتثنية)، تاريخ العهد القديم (ابتداء بيشوع وانتهاء بأستير)، والأناشيد، والأمثال والحكمة (أسفار أيوب، المزامير، الأمثال، الجامعة، ونشيد الأنشاد)، الأنبياء (ابتداء من سفر إشعياء وانتهاء بسفر ملاخي). ويبلغ عدد الأسفار 39 سفرًا (الكتاب المقدس 1993). أما المسيحيون، فقد قسموا الكتاب المقدس إلى التوراة، ثم الأسفار التاريخية وأسفار الأنبياء والحكمة.

وتختلف الطوائف فيما بينها في ترتيب أو الاعتراف بغير أسفار موسى (التناخ)، وهذا كان حال طائفة الصدوقيين الذين عاشوا في القدس خلال حكم اليونان والروم، والسامريين الذين لا يزالون يسكنون جبل جرزيم/ نابلس وحولون.

لكنَّ يهود الإسكندرية أضافوا للعهد القديم ما سمي بالأسفار القانونية الثانية. على أية حال، يتفق علماء اللاهوت على أن أول تدوين للعهد القديم وأسفاره كان في أيام عزرا (حوالي 400 قبل الميلاد)، أي بعد العودة من السبي البابلي، وأُضيفت بعد ذلك الأسفار الأخرى. ويذكر العهد القديم هذه المسألة في سفر نحميا 8: 1، وعلى النحو الآتي: «1 اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب اسرائيل. 2 فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء، وكلُّ فاهم ما يسمع في اليوم الأول من الشهر السابع. 3 وقرأ فيها أمام الساحة التي أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار، أمام الرجال والنساء والفاهمين، وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة».

التقى معلموا الشريعة اليهود في حوالي سنة 90م في فلسطين، وثبتوا لائحة نهائية بأسفار العهد القديم، وقسموا العهد القديم إلى ثلاثة أقسام هي: الشريعة (أسفار التكوين - التثنية)، الأنبياء (يشوع/ يوشع - إلى الملوك الثاني وإشعيا وإرميا)، وأخيرًا الكتابات الباقية (أسفار المزامير، وأخبار الأيام، ودانيال، والأمثال...الخ). ودونت معظم هذه الأسفار في فلسطين باللغة العبرية، عدا قليل منها بالآرامية. أما يهود الإسكندرية، فقد ترجموا الأسفار إلى اليونانية، وهي الترجمة المسماة «السبعينية». ولقد اعتمد المسيحيون الأوائل النسخة اليونانية.

أما كتاب العهد الجديد (الإنجيل)، فيتضمن 27 سفرًا موزعة على النحو الآتي: البشائر الأربع، وأعمال الرسل، ورسائل بولص الثلاثة عشرة، والرسالة إلى العبرانيين، والرسائل العامة السبع، ثم سفر الرؤيا. ويعتقد أنها تعود إلى النصف الثاني من القرن الأول بعد ميلاد المسيح. ويعتقد بعض من الناس أنه كان هناك أناجيل أخرى تعارضت مع عقيدة التثليث، لكنها لم تعتمد، بل حُذفت من الكتاب المقدس، ومنها إنجيل برنابا. بينما يرى آخرون أن هذه الأناجيل، ومن ضمنها إنجيل برنابا،

مصطنعة وأنها من تأليف بعض هراطقة المسيحيين في القرون الأولى للميلاد (سعادة د.ت.: 3-7). هذا تعريف بسيط للكتاب المقدس.

أما مدينة القدس، فهي تحتل قلوب أصحاب الديانات السماوية خاصة، وأهل العلم والثقافة عامة. ولهذا السبب تناول كثير من الباحثين والدارسين هذا المكان المقدس وأهله بالبحث، محاولين سبر غور المكان مذ أن وطئ أرضه أول إنسان في العصر الحجري القديم الأوسط وحتى الوقت الحاضر. وبما أن هؤلاء الكتّاب ينتمون لملل ونحلٍ مختلفة، يجد القارئ أن معظم ما نُشر حتى الآن يعكس هوى كاتبه، إلاّ ما ندر. كذلك، جاءت معظم الكتب والأبحاث المتعلقة بدراسات المدينة المقدسة قبل الإسلام منشورة بلغات أجنبية متعددة، وتعتمد على التوراة مصدرًا رئيسًا في الحصول على المعلومة. وأما ما كُتب بالعربية، فردد أصحابها، على الأغلب، ما نُشر باللغات الأجنبية، لأنها المصدر الوحيد المتاح للدراسة؛ إذ إن أرض القدس الشريف لم تخضع لأي حفرية أثرية عربية. وعلى الرغم من هذا، فإن اهتمام الباحثين العرب من آثاريين ومؤرخين بالقدس جاء متأخرًا جدًا، وبالتحديد بعد سقوط القدس كاملة بأيدي الصهاينة في عام 1967م. كما خاطبت معظم هذه المطبوعات نوعية واحدة من القراء، حتى أن الشخص العادي أو المهتم يواجه صعوبة في فهم بعض المصطلحات والمسميات في كثير من الأحيان، والتي ربما يسمعها لأول مرة، ولا يعرف أن لكل مصطلح مدلولًا معينًا. إذ قامت السلطات الاسرائيلية بتغيير وتعديل الأسماء التاريخية العربية إلى عبرية توراتية، خاصة أسماء الأماكن والأعلام.

وبناء على ما ذكر أعلاه، جاءت الحاجة الماسة لكتابة كتاب باللغة العربية يخاطب أهل الضاد جميعًا، معتمدًا في دراسته على المعلومة التاريخية الصحيحة المكتوبة أو المنقوشة، إضافة للمادة الأثرية المكتشفة، بعد تمحيص وتدقيق

المعلومات التي نشرها المنقبون؛ إذ إن غالبيتهم صهاينة أو متصهينين. كما أننا لا نجد بأسًا في أن يرجع المشاركون في قراءة فصول هذا الكتاب لمناقشة معلومة وردت في الكتاب المقدس حول القدس، لكنْ، لا بد من التحقق من صحة هذه المعلومة بعد مقارنتها بما نُشر عن المخلفات الأثرية والمصادر التاريخية. كذلك لا بد من التأكيد أن ما ورد في الأسفار التوراتية لا يعد مصدرًا أساسيًا في هذه الدراسة، ولكنه ثانوي ويجب مواجهته «الحجة بالحجة». كما ويجب النظر للكتاب المقدس على أنه مصدر ديني وليس تاريخيًا.

والمدينة، أي مدينة، هي في الأساس المكان والسكان. ومن هنا، فإن القدس عمرت بالناس منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الآن، فسكنها وثنيون وأصحاب الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، على التوالي؛ وهم وبنظرنا، وبغض النظر عن دياناتهم، مقدسيون. كذلك لا بد من التوضيح بأن اليهود الأوائل لا تربطهم رابطة مع الصهاينة الجدد الذين غزوا البلاد وقهروا العباد. وبهذا، فإننا عندما نتحدث عن مملكة إسرائيل، ومن بعدها السامرة ويهوذا، فإننا نتحدث عن إرث فلسطيني لا يربطه باليهود الصهاينة أي رابط. فهذه الممالك إرث لنا، ولا يربطها مع المستوطنين الجدد سوى دين متحول عن ديانة موسى. ومن المعلوم أن مدينة القدس تغفو فوق جبالها وتصحو على صوت المآذن وأجراس الكنائس، وان أهميتها الدينية بقيت على الدوام رفيعة وعالية بين الناس، لكن أهميتها السياسية لم تطاول الدينية في كثير من الأوقات.

وبناء على ما ورد أعلاه، عقدنا العزم على وضع هذا الكتاب بين أيدي القارئ الكريم، خطابه تسليط الضوء على تاريخ مدينة القدس عبر العصور دون تحيز لرأي دون آخر، ويهدف لتقديم الحقيقة للناس اعتمادًا على مصادر موثوقة، لا على خطاب عاطفي مؤجج. ولما كان واضع هذا الكتاب قد كتب ونشر وحرر عددًا من

الكتب والمقالات العلمية، قليل منها باللغة الإنجليزية، متعلقة بموضوع القدس قبل الإسلام، نذكرها أدناه، وجدنا أنه من الواجب إعادة تبويب المعلومات الواردة فيها وجمعها بين دفتي كتاب. وهذه الأبحاث هي:

أ. باللغة الانجليزية:

1. Kafafi, Z. and Schick, R. (eds.) 2007; Jerusalem Before Islam. **British Archaeological Reports International Series** 1699. Oxford: Archaeopress.

2. Kafafi, Z. 2014; Jerusalem in the Bronze and the Beginning of the Iron Ages: Biblical Narratives, Literary Sources, The Archaeological Evidence and Margreet Steiner. Pp. 245 - 255 in E. Van der Steen et al. (eds.), Exploring the Narrative. Jerusalem and Jordan in the Bronze and Iron Ages. **Library of the Hebrew Bible/ Old Testament Studies** 583. London: Bloomsbury.

ب. باللغة العربية:

1. كفافي، زيدان 2001؛ القدس في العصور القديمة. الصفحات 5–40 في كتاب علي محافظة (محرر)، القدس عبر العصور. إربد: جامعة اليرموك.

2. كفافي، زيدان 2005؛ القدس في الألف الثاني قبل الميلاد. الصفحات 335 – 343 في يوسف محمد عبدالله وآخرون (محرر)، صنعاء الحضارة والتاريخ، المجلد الأول. صنعاء: جامعة صنعاء.

3. كفافي، زيدان 2010؛ القدس منذ النشأة وحتى الإسكندر المكدوني. الصفحات 11 - 39 في القدس ...القدس...القدس؛ أوراق «المؤتمر الدولي عن القدس» ، عَمان؛ 4–8 تشرين الأول 2009. عَمان: منشورات وزارة الثقافة.

4. كفافي، زيدان 2011؛ القدس في العصرين البرونزي والحديدي: الأسفار التوراتية مقابل النصوص التاريخية والآثار. الصفحات 55 – 63 في الندوة الدولية «القدس في التاريخ» 2009 – 2010. دمشق: المديرية العامة للآثار والمتاحف.

5. كفافي، زيدان 2012؛ سلوان بين الآثار والتوراة. الصفحات 271 - 288 من الإصدار الخاص، القدس .. ريحانة الضمير العربي (2–3 نوفمبر 2009). المجلة العربية للعلوم الإنسانية. الكويت: جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي.

6. كفافي، زيدان 2012؛ بيت داود حقيقة أم خيال؟ أدوماتو 25: 91 - 102.

7. كفافي، زيدان 2017؛ القدس: من النشأة حتى السيطرة الفارسية/ الألف الرابع ق.م. – 539 ق.م. الصفحات 19–28 في محمد عدنان البخيت وحسين محمد القهواتي (محررون)، تاريخ مدينة القدس عبر العصور منذ الألف الرابع قبل الميلاد وحتى الوقت الحاضر. عَمان: الجامعة الأردنية.

8. كفافي، زيدان 2019؛ فلسطين في العصر الحديدي الأول (1200 – 1000 ق. م). أدوماتو 39: 7–28.

9. كفافي، زيدان (قيد النشر)؛ الآثار والدين والسياسة: جنوبي بلاد الشام أنموذجًا. بحث مقبول للنشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الكويت.

وبناء عليه، فإن كثيرًا من المعلومات الواردة في الكتاب الذي بين أيدينا مستلة استلالًا كاملًا من هذه الأبحاث، بل ومنقولة، في كثير من الحالات، حرفيًا عنها، لكنَّ كل ما قمنا به هو إعادة ترتيب وتبويب للمعلومات الواردة فيها. وإضافة للأبحاث المنشورة سابقًا، يضم هذا الكتاب أبحاثًا أخرى ينشرها مؤلفها لأول مرة، مثل فصول:

جغرافية القدس، واليونان، والروم ، وإيليا كابيتولينا، وإيليا، إضافة لثلاثة ملاحق تتعلق موضوعاتها بدراسة مناهج وتاريخ وآثار فلسطين قبل الإسلام.

يخاطب الكتاب جميع قارئي اللغة العربية على مختلف مستوياتهم العلمية والثقافية، محاولًا وضع تاريخ مدينة القدس بين أيديهم دون تحيز لرأي، أي أننا لا نرمي من كتابة هذا الكتاب أن نؤكد أو نثبت أن من أسس مدينة القدس هم من غير أصحاب الديانة اليهودية، لأن هذا برأينا ليس بحاجة لإثبات؛ إذ حاول جميع الكتّاب والمؤلفين العرب في مؤلفاتهم عن القدس إثبات أن أصل مؤسسي المدينة هم الكنعانيون ، نحن لن نشغل أنفسنا بهذا الأمر بقدر ما نهدف أن نقدم تاريخًا موثقًا لهذه المدينة بغض النظر عن عرق أو جنس من بناها أو كان فيها.

وُجد الناس في منطقة القدس (الشيخ جرّاح) قبل أكثر من حوالي 250000 ألف سنة، أي قبل معرفة الكتابة ومعرفة جنس أو عرق سكانها، لكنهم لم يأتوا من أوروبا أو أمريكا، بل هم من أهل البلاد بغض النظر عن دينهم أو مذهبهم. وتوالى وجود الناس في المنطقة حتى الوقت الحاضر بغض النظر عن عددهم وأماكن سكناهم. والمتتبع لفصول هذا الكتاب عليه أن يصل في نهايته إلى رأيٍ خاص به، مبني على الوثائق المكتوبة والآثار المكتشفة، والتي ناقشناها في فصول هذا الكتاب الثلاثة عشر بالإضافة لملاحق ثلاثة في نهاية الكتاب، لا على قصص توراتية أو مواقف عاطفية. وحاولنا أن تكون لغة الكتاب سلسة وسهلة الفهم، بعيدة كل البعد عن التنطع، لأن هدفنا أن يكون تاريخ القدس في متناول جميع المستويات الأكاديمية والثقافية.

ختامًا، مرة أخرى نؤكد أننا لا نقصد مما ورد أعلاه التشكيك بتاريخ القدس، أو أن نؤكد أن سكانها الأوائل كانوا يهودًا أو مسيحيين أو مسلمين، لكننا نجزم بأنهم كانوا – أو ربما أصبحوا– مقدسيين لأنهم عاشوا فوق أرض هذه البقعة من فلسطين.

لكنْ، ما ترمي إليه الصهيونية العالمية هو خلاف ذلك، فهي تنشر نتائج حفريات مستندة إلى تاريخ توراتي مختلق ومزور يعتمد عليه كثير من الباحثين العالميين عند الحديث عن المدينة. فأصبحت منطقة «الظهورة» «مدينة داود» ويقدمونها على هذا النحو للعالم. ويُخشى على الدارسين والباحثين العرب عند كتابتهم لتاريخ القدس من تبني آراء الباحثين الصهاينة دون إدراك، وعليه فإننا ندعو إلى توخي الحيطة والحذر واختيار المعلومة الصحيحة عند رجوعنا مضطرين إلى الأبحاث والتقارير الاسرائيلية، والتي تضاهي في عددها أضعاف ما نشره الآخرون.

نود في خاتمة الأمر القول إن الدراسات الأثرية يجب أن لا تخرج عن إطارها العلمي المعرفي والمجرد عن الهوى، وأن لا تكون طرفًا في الجدالات الدينية والسياسية والعرقية. إن بعضًا من الدول والمؤسسات والأفراد يلوون ذراع المخلفات الأثرية ويستخدمونها لتحقيق إهداف وغايات خاصة بهم. وهذا ما يجرى لمدينة القدس على يد الإسرائيليين. ومن المؤسف أن التفسيرات التي يطلقها بعض الباحثين خطأ، ويربطون فيها بين الدين والتاريخ والآثار، ويحشونها في أذهان الناشئة من أبناء جلدتهم، يعزز عند هؤلاء، في بعض الأحيان، نزعة عدائية وتعصبًا أعمى.

والله من وراء القصد.

المؤلف

1

الفصل الأول

جغرافية القدس

الفصل الأول

جغرافية القدس

مقدمة جغرافية:

يتأثر تاريخ أي أرض أو أي شعب من شعوب الدنيا، إلى درجة كبيرة، باختلاف طبيعة ومناخ المنطقة الجغرافية التي يسكنها، وتوافر مصادر المياه الدائمة فيها. وبما أن مدينة القدس تقع وسط فلسطين، والتي هي جزء من بلاد الشام، أصبح لزامًا علينا أن نتحدث عن الجزء ضمن الكل.

تشكل فلسطين الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الشام (شكل 1) التي تميزت بتنوع وتعدد مناطقها الطبيعية من سواحل، وسهول، ومرتفعات جبلية، وأودية، وبادية صحراوية (جرار 2018؛ Danin 2003). أما القدس، فهي تربض فوق منطقة المرتفعات الجبلية، أي جبال القدس، والمدينة محاطة بالأودية، وتعاني من شح في المصادر المائية الدائمة. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن فلسطين الطبيعية تشكل الرأس الغربي للهلال الخصيب، وهذه هي المنطقة الممتدة على شكل هلال من رأس الخليج العربي شرقًا وحتى البحر المتوسط غربًا.

تحتل مدينة القدس موقعًا متوسطًا ومركزيًا من فلسطين على خط عرض 31 درجة و47 دقيقة شمالاً، وعلى خط طول 35 درجة و3 دقيقة شرقًا، وتبعد حوالي 60 كيلومترًا إلى الشرق من ساحل البحر المتوسط، وحوالي 88 كيلومترًا عن العاصمة الأردنية عمّان. وأقيمت نواة المدينة فوق الظهورة / تلال الضهور (تل عوفل) والتي تشرف على بلدة سلوان، وهي محاطة بالأودية من ثلاث جهات (شكل 2)، هي: سلوان/ ستنا مريم/ النار (قدرون) في الشرق، ووادي الزبل/ الجبّانين/ الواد (تيروبيون) من الغرب، والربابة/ جهنّم (هنّوم) من الجنوب (الدبّاغ 2018: 9-13؛ عبدالسلام 2011: 11).



شكل 2: رسم يوضح الأودية الثلاثة المحيطة بالقدس (عن الدّباغ 2018: 10)

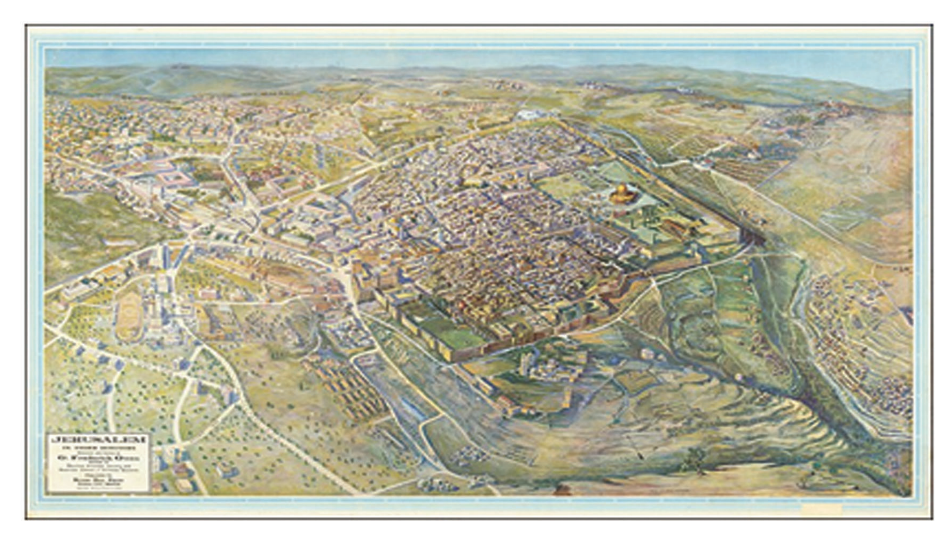


الشكل 3:صورة جوية لمدينة القدس أخذت خلال ثلاثينيات القرن الفائت ويظهر وادي سلوان على يمين الصورة ووادي جهنم/ الربابة على يسارها (after Kenyon 1974: Fig. 1)



الشكل 4: منظر عام لوادي الربابة/ جهنم/ هنّوم (عن Landauer 1925: 32)

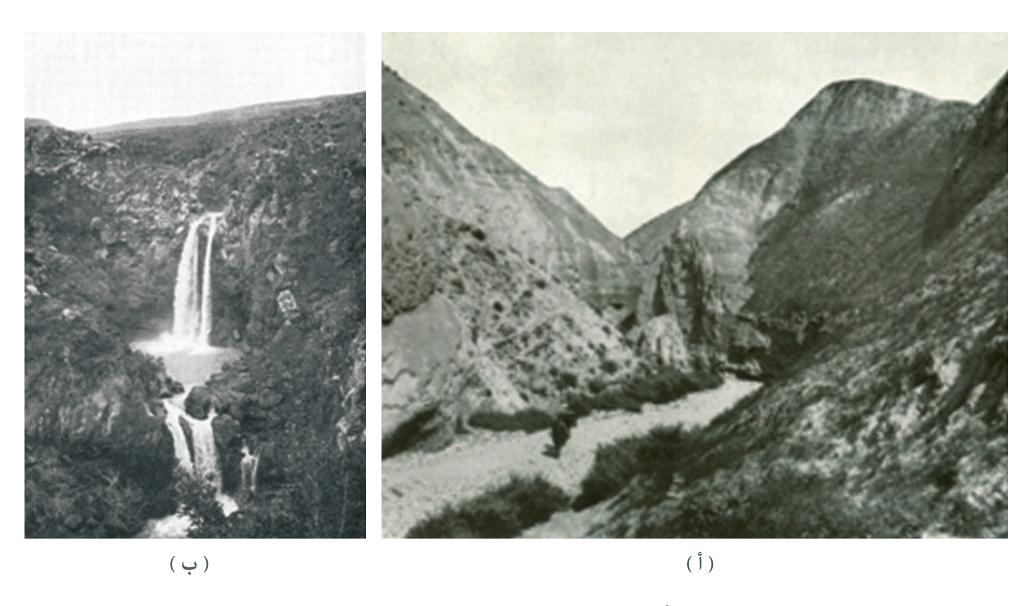
كما وتحيط بالمدينة، خاصة من شرقيها وغربيها، مجموعة من الأودية، مثل: أودية القلط، والمرار، والمكلك، والسكة، والنار من الشرق؛ والصرار (الذي يصب في نهر روبين)، والواد وجيروط، وعلي من الغرب وتنتهي بنهر العوجا الذي يصب إلى الشمال من مدينة يافا (الأشكال 3-7). وكانت هذه الأودية هي مسالك القوافل إلى مدينة القدس في العصور القديمة.



شكل 5 :رسم بالبعد الثالث لمدينة القدس من عمل (G. Frederick Own)عضو جمعية فلسطين الشرقية والمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية (عن الإنترنت)



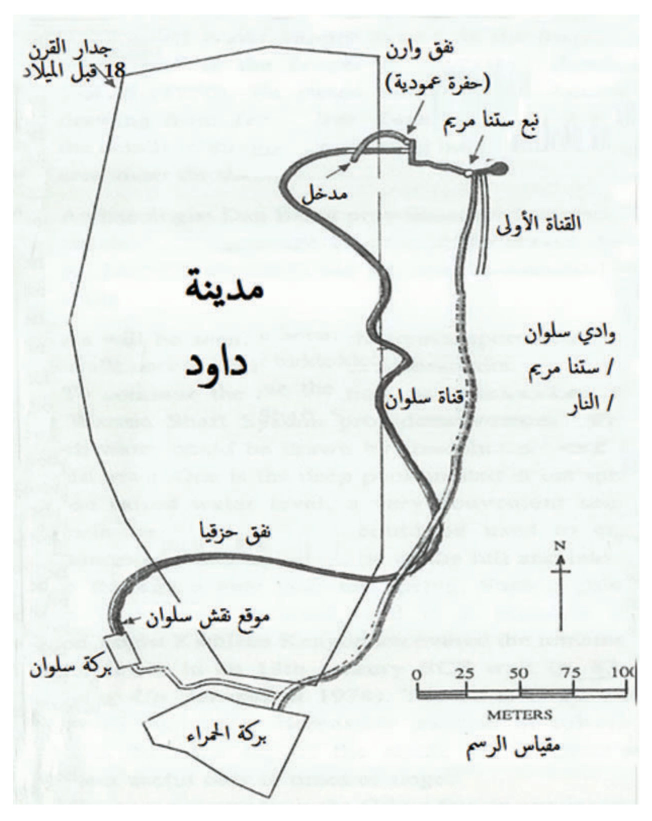
شكل 6: خارطة تبين الأودية الواقعة في الجهتين الشرقية والغربية لمدينة القدس



(ب) (أ)

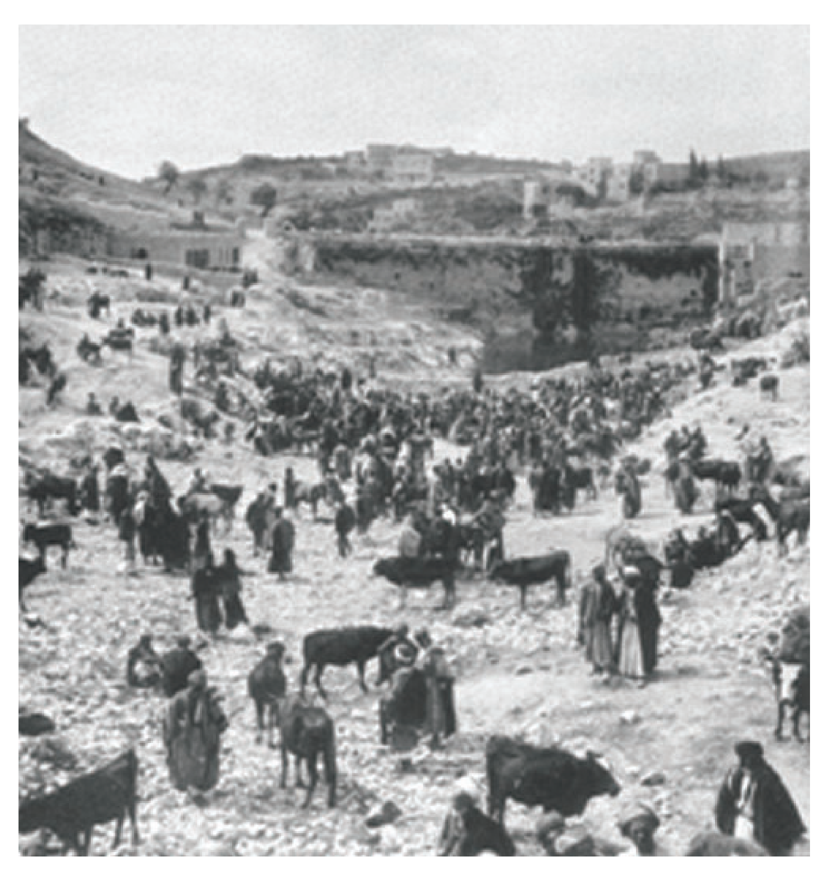
الشكل 7 : أ. وادي المكلك (عن Landauer 1925:66)
ب. وادي الصرار (عن Landauer 1925:65)

ويحيط بالمدينة عدد من الجبال نذكر منها: جبل الزيتون (جبل الطور) الذي يقع شرقي المدينة، وجبل المشارف (المشهد) في الشمال الغربي منها، وهو المكان الذي بنيت فوقه مباني الجامعة العبرية في عام 1925م ومستشفى هداسا في عام 1939م. ويقع إلى الجنوب الغربي من المدينة جبل صهيون، وبني فوقه قسم كبير من المدينة القديمة، وجبل المكبر، وهو المكان الذي وقف فوقه الخليفة عمر بن الخطاب وكبّر عند دخوله القدس، إضافة إلى جبال النبي صمويل وغنيم. ويسمى الجبل الذي بني فوقه الحرم القدسي الشريف باسم «جبل موريا»، كما تسمى التلة الواقعة الى الجنوب الشرقي من الحرم باسم تل الظهور/ الظهورة أو «الظهرة». وتسمى التلة الممتدة بين باب حطة (الساهرة) إلى باب العمود باسم «تل زيتا»، والتلة الواقعة بالقرب من كنيسة القيامة باسم «تلة أكرا» (محاسنة 2004: 21 - 23).



شكل 8: النظام المائي في منطقة وادي سلوان (عن الإنترنت)

ذكرنا أعلاه أن سكان القدس عانوا على مدى الدهور من شح المياه، وللتغلب على هذه المعضلة قاموا ببناء البرك وحفر الآبار لجمع مياه الأمطار، ولا يزال بعض هذه الآبار موجودًا في الوقت الحاضر، ويسمى باسم «بئر أيوب»، نسبة إلى النبي أيوب. وأما البرك، فهناك بركة سلوان المبنية إلى الجنوب من عين سلوان، وبركة سليمان أو «البركة الحمراء أو التحتانية» الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بركة سلوان (الشكل 8) وبركة السلطان (شكل 9). ومن أهم عيون الماء في الأودية المحيطة بالمدينة هي «عين سلوان»، ولها عدة أسماء، هي: «جيحون»، و «أم الدرج»، و «ستنا مريم»؛ ومنها يبدأ نفق حزقيال المؤدي الى خارج المدينة (الدباغ: 2018 بلادنا فلسطين، ج 10 ص 9-13).



شكل9: بركة السلطان في القدس (عن Landauer 1925:36).

يسود مدينة القدس مناخ منطقة حوض البحر المتوسط الذي يتصف، على العموم، بصيف حار جاف، وشتاء بارد مطير، كما تتساقط الثلوج في بعض السنوات. ويسهم ارتفاعها حوالي 760 متراً عن مستوى سطح البحر المتوسط، واستقبالها للرياح الغربية الرطبة والمنعشة، وكذلك المنخفضات الجوية الحاملة للمطر بارتفاع كمية هطل الأمطار عليها (عبد السلام 2011: 12).

أما بالنسبة للغطاء النباتي للقدس وما جاورها من مناطق، فانتشرت فيها الأشجار الحرجية، مثل الصنوبر، والأشجار المثمرة، مثل الزيتون واللوز، كما تحيط بها مناطق برية مكشوفة. ويظهر أن سكان هذه المناطق، وعبر العصور المختلفة، قد جاروا على الأشجار الحرجية، فقاموا بقطعها. وكما نعلم، فإنه وخلال العصور الحديثة يحيط بالقدس عدد من القرى العربية نذكر منها: أبو غوش، وعين رافة، وعين نقوبا، وأشوع، والبريج، وبيت أم الميس، وبيت عطاب، وبيت محسير، وجرش، وخربة العمور، وخربة اللوز ودير الشيخ. ومن البلدات الهامة نذكر: قلندية، وبيت حنينا، وشعفاط، وأبو ديس، وصور باهر، وبيت صفافا، والمالحة، وعين كارم، ودير ياسين. ومن المعلوم أن اسرائيل قد دمرت بعد احتلالها لفلسطين كاملة معظم هذه البلدات والقرى العربية الفلسطينية وأقامت فوقها المستعمرات.

وكما نعلم، فإن المدينة تضم، إضافة لمساحة المدينة نفسها، جميع البلدات والقرى والمخيمات المحيطة بها، وبناء على المعطيات السياسية نجد أن منطقة القدس تكبر وتصغر بناء على هذه المعطيات. وللأسف، فإن إسرائيل الصهيونية قد غيرت الكثير في المعالم الجغرافية لمدينة القدس، وبنت فوق كثير من المناطق المحيطة بالقدس مستعمرات جعلت منها حدًا فاصلًا بين جنوبي فلسطين وشمالها.

2

الفصـــــــل الثاني

الدراسات الأثرية الميدانية في القدس

الفصل الثاني

الدراسات الأثرية الميدانية في القدس

تعدّ مدينة القدس وما يتصل بها جغرافياً أكثر المناطق العالمية عرضةً للدراسات الميدانية الأثرية. وربما كان السبب في هذا هو محاولة الباحثين التوراتيين العثور على بقايا أثرية وكتابات تثبت صحة ما جاء في النصوص التوراتية. ولهذا السبب نرى أن كثيراً من تفسيراتهم قد خضعت للظروف السياسية والأحوال الاجتماعية، مما أدّى إلى اختلافات عميقة في وجهات النظر خاصة مرحلة القرن العاشر قبل الميلاد. ولقد مر الآن أكثر من مائة وخمسين عاماً على بدء الحفريات الأثرية في القدس وذلك عندما قام الفرنسي دي سولسي (de Saulcy) في عام 1863 ميلادية نيابة عن متحف اللوفر بتنظيف عدد من القبور التي اعتقد أنها تخص الملك داود وسلالته، وثبت أن القبر يعود للقرن الأول الميلادي و يخص الملكة هيلانة الديابنية (Queen Helena of Adiabene) التي تهودت. على أية حال، تعرض كثير من الباحثين لدراسة تاريخ الحفريات الأثرية في القدس وما حولها في السنوات الماضية (Galow and Avi 2011; Reich 2011; Steiner 2016)، لكن هذا لن يمنعنا من تقديم عرض ولو موجز حول الموضوع، وذلك لأهميته لأغراض هذا الكتاب.

تحظى مدينة القدس باهتمام كثير من الباحثين والدارسين، خاصة الآثاريين منهم، وذلك لأهميتها الدينية لدى أبناء الديانات السماوية. لذلك نجد أن النشاطات الأثرية بدأت فيها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بإشراف جمعيات بريطانية وفرنسية مثل «جمعية صندوق اكتشاف فلسطين». ومن أهم النشاطات الأثرية التي تمت به في هذه الفترة هو ما قام به الضابط الإنجليزي تشارلز وارن (Charles Warren) في الفترة بين أعوام 1867 - 1870م من حفر النفق المعروف باسمه والواقع بالقرب

من منطقة الحرم الشريف. وتوالت هذه النشاطات خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين(Kenyon 1974: 1-35) ، لكنها تضاعفت بعد الاحتلال الإسرائيلي للمدينة في عام 1967م. ومن الواجب ذكره أن جميع الحفريات والمسوحات الأثرية التي أجريت في القدس تمت على أيدي باحثين توراتيين أجانب أو اسرائيليين (Franken 2007). لذا، لا بد من توخي الحذر عند الاطلاع على نتائج أبحاثهم عن المدينة، وضرورة تمحيص المعلومات الواردة فيها، توخيًا للحذر من دس السم في الدسم. خاصة إذا ما علمنا أن معظمهم يحاول الربط بين المعلومات الواردة في النصوص التوراتية ومحاولة تفسير نتائج حفرياتهم الأثرية. وبما أن القصة التوراتية، فيما يخص قصة الآباء، تبدأ في العصور البرونزية، وأن الخروج وبداية تكوين الدولة كانت في المراحل الأولى من العصر الحديدي، وجدنا من واجبنا تسليط الأضواء على القصة التوراتية، ومقارنتها بنتائج الحفريات الأثرية. وكان محمود أبو طالب نشر في عام 1988 بحثًا حاور فيه القصص التوراتية من خلال الآثار (Abu Taleb 1988)، ونضيف هنا ما نُشر من معلومات خلال السنوات العشرين الأخيرة، والتي لم تكن ضمن دراسته. وكان قد سبق أبو طالب في الحديث عن العلاقة بين القصص التوراتية والمادة الأثرية المكتشفة الآثاري التوراتي الأميركي وليم فوكسويل أولبرايت (William Foxwell Albright) (Albright 1971: 219 - 250).

لم ينفك الرحالة والمستكشفين الغربيين عن زياراتهم للآرض المقدسة وتقديم تقاريرهم حولها في مرحلة بعد الحروب الصليبية. فعلى سبيل المثال وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر قام إدوارد روبنسون (Edward Robinson) وفي غام 1835 ميلادية بزيارته للمدينة، ووصف ما فيها من أمكنة وبشر، تبعه تشارلز ويلسون (Charls Wilson) في عام 1867-1868 ميلادية، وكان الهدف من أعمالهما الميدانية البحث عن موقع هيكل سليمان، وعن قبور أسرة الملك داود، والتعرف على موق غولغاثا حيث صلب السيد المسيح (Steiner 2016: 71).

من المعروف أن القدس هي محط أنظار الدارسين والرحالة والمكتشفين منذ العصور اليونانية وحتى الوقت الحالي، لكنَّ النشاطات الأثرية المنظمة بدأت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك عندما قام الفرنسي فيلسيان دي سولسي (Felician de Saulcy) في عام 1860م بتنظيف مجموعة من المقابر في المنطقة الواقعة في البلدة القديمة، تبعتها أعمال أخرى عشوائية، لم تستند إلى قاعدة علمية (سلبرمن 2001: 112–113). وكان هذا المغامر الفرنسي قد وصل القدس في عام 1850م، وزار المناطق المحيطة بالبحر الميت باحثًا عن مواقع سدوم وعمورة. ولما كان هذا الفرنسي كاثوليكي المذهب، فقد لقي دعمًا كبيرًا من الفرنسيين الذين رأوا أن دراسة الآثار التوراتية لم تعد حكرًا على البروتستنتيين وحدهم، كما أعلن متحف اللوفر أن الآثار التي جلبها دي سولسي من فلسطين ستكون نواة لجناح يهودي في المتحف (يوسف 2008: 21). هذا مع العلم أن البروتستنت في بريطانيا قد دعوا إلى لقاء في عام 1865م في كنيسة وستمنستر تم خلاله الإعلان عن تأسيس صندوق استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund) برئاسة وليم طومبسون (William Thompson). وقد أشار طومبسون في كلمته الافتتاحية إلى أن فلسطين قد مُنحت لبني إسرائيل بقوله: «إن هذا البلد فلسطين عائد لي ولكم، إنه لنا أساسًا، فقد مُنحت فلسطين إلى أبي إسرائيل بالعبارات الآتية: «هيا امش في الأرض طولًا وعرضًا، لأنني سأعطيك إيّاها»، ونحن عازمون على المشي عبر فلسطين بالطول وبالعرض، لأن تلك الأرض لنا» (يوسف 2008: 24) . وبناء عليه، أصبحت النشاطات الأثرية تجرى بحسب ترتيبات مسبقة، وأعلنت عن أهدافها بشكل واضح، وهو «إثبات صحة ما جاء في التوراة». ومن أهم الحفريات التي أُجريت بعد هذا التأسيس ما قام به تشارلز وارن Charles Warren بين أعوام 1867 و1870م حيث أجرى حفريات في منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة بحثًا عن آثار معبد سليمان، والذي لم يعثر على أي أثر له. إذ حفر تشارلز وارن سبعة وعشرين نفقًا رأسيًا في الجهتين الجنوبية والغربية من المسجد

الأقصى (سلبرمن 2001: 149 – 164). وبعد أن فصل العثمانيون إدارة القدس عن إدارة صيدا، ووُضعت المدينة تحت الإشراف المباشر للباب العالي، تقدمت جمعية صندوق استكشاف فلسطين بطلب للتنقيب في القدس، فسُمح لها شريطة أن تكون التنقيبات بإشراف مفوض عثماني، وأن تؤول ملكية الآثار المكتشفة للخلافة العثمانية. وبناء عليه، وابتداء من عام 1894م وحتى كانون الثاني من عام 1895م قام فريق تنقيب بريطاني بإدارة فردريك جونز بلس (Fredrick Jones Bliss) نيابة عن «صندوق استكشاف فلسطين» بالبحث عن أسوار مدينة داود، لكنه لم يعثر على أي شيء. ثم تابع بلس وفريقه عام 1897م البحث في الجهة الجنوبية للقدس، ومتبعًا طريقة التنقيب في أنفاق داخل باطن الأرض. وتوصل هؤلاء إلى أن مدينة داود غير موجودة في المنطقة الواقعة داخل أسوار القدس، وأن كل ما كشفه آثار تعود للقرن الخامس الميلادي، أي الفترة البيزنطية (سلبرمن 2001: 239–242؛ Steiner 2016:72).

كذلك تعددت النشاطات الأثرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ونذكر منها ما قامت به مجموعة من المهندسين بإشراف مونتاغ باركر (Montague Parker) في عام 1911م حيث نظفوا المنطقة الواقعة حول نبع عين ستنا مريم، والتي تقع على المنحدر الشرقي للمدينة القديمة، وعثروا على ثلاثة قبور تعود للعصور البرونزية المبكرة (حوالي 3500–3100 قبل الميلاد). وسارت حملة عسكرية بريطانية على فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى لطرد القوات العثمانية منها، ووصلت إلى القدس يوم الحادي عشر من أيلول عام 1917م بقيادة الجنرال إدموند اللنبي الذي استطاع احتلال القدس من العثمانيين، وقال قولته المشهوره : «الآن انتهت الحروب الصليبية».

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبناء على اتفاقية سايكس– بيكو في عام 1920م والتي قسمت البلاد العربية في شرقي المتوسط بين الرابحين في الحرب، فرنسا

وبريطانيا، خضعت فلسطين للانتداب البريطاني، فأقامت بريطانيا فيها إدارة مدنية محلية لحكم البلاد، وعينت فيها موظفين صهاينة، وعلى رأسهم المندوب السامي هيربرت صموئيل. ولقد عمل هؤلاء جميعًا من أجل قيام دولة إسرائيل، ومن أجل ذلك أسس البريطانيون في القدس في عام 1914م «جمعية استكشاف فلسطين اليهودية The Jewish Palestine Exploration Society»، كما جاء في بنود صك الانتداب وجوب صدور قانون للآثار، وأسس البريطانيون دائرة للآثار العامة سنة 1920م وكان أول مدير لها ضابط انجليزي اسمه «جون غارستنغ John Garstang» وكان أستاذًا في جامعة ليفربول.

أما في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أي زمن الانتداب البريطاني على فلسطين، فقد أصبح إجراء الحفريات الأثرية في القدس أكثر سهولة بالنسبة إلى الآثاريين الغربيين منه في الفترة العثمانية، ومن أهم هذه الأعمال ما قام به كل من R. A. S. Macalister و J.Garrow Duncan في الفترة الواقعة بين أعوام 1923 – 1925م و John W.Crowfoot وGerald Fitzgerald في الأعوام 1927 – 1929م وبإشراف المدرسة البريطانية للآثار في القدس وجمعية صندوق استكشاف فلسطين، فكُشف عن إحدى البوابات القديمة (Franken 2007).

وأما بعد الحرب العالمية الثانية؛ فقد أجرت الآثارية البريطانية كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) بين أعوام 1961 – 1967 حفريات في المنطقة المطلة على وادي سلوان، والتي يعتقد الباحثون التوراتيون أنها كانت عاصمة للملك داود. ونشرت النتائج الأولية لهذه الحفرية في كتاب عنوانه: «Digging Up Jerusalem»، وبعد وفاتها نُشر عدد من المجلدات حول نتائج الحفرية، فصَّل فيها الباحثون أهم النتائج التي وصلوا إليها، ونذكر منها على سبيل المثال ما نشره كل من أ. د. تشنجهام حول نتائج الحفريات في الحديقة الأرمنية (الشكل 11) (Tushingham 1985)، وماغريت شتاينر (Steiner 2001). ومن الملاحظ أن كلًا من كنيون وتشنغهام استخدما مصطلحات تتناسب

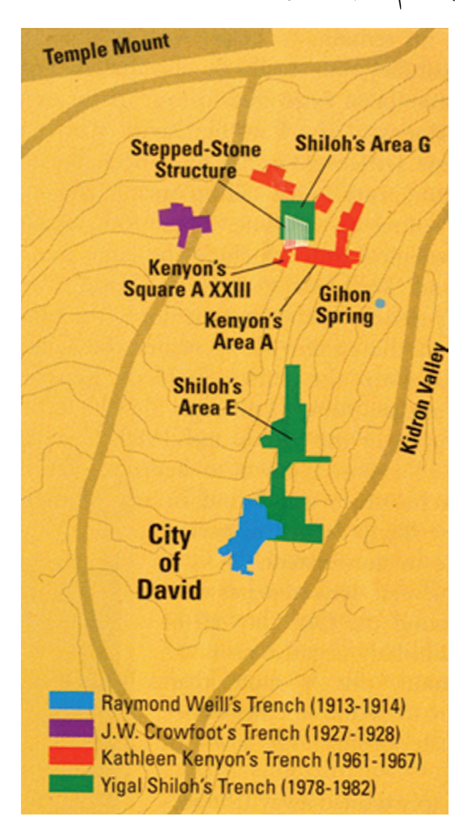
والقصة التوراتية عند تفسيرهم للآثار المكتشفة، فمثلًا نجد الأولى تطلق مسمى مدينة داود على مكتشفات العصر الحديدي الأول (Kenyon 1974: 98)، بينما يسمي الثاني مكتشفات العصر الحديدي بمصطلحات «فترة ما قبل النفي Pre-Exilic Period»، و «آثار الفترة اليهودية المبكرة The Early Jewish Period»، و «آثار الفترة اليهودية المتأخرة The Late Jewish Period» (Tushingham 1985: 2). وأما الباحثة ماغريت شتاينر فلم تخرج في تفسيراتها عن الإطار الأثري، فنسبت مكتشفات كل فترة إلى فترتها الزمنية المتعارف عليها بين الآثاريين، مثل العصر البرونزي المتوسط، والمتأخر، والعصر الحديدي (Steiner 2001). وأشارت شتاينر في دراستها للقدس في العصر الحديدي إلى أنه لم يكتشف في التلة الشرقية الجنوبية (الظهورة) للمدينة وحتى الوقت الحالي أية بقايا لأسوار أو بيوت أو مبان تعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي اليبوسية (شتاينر 2006: 49). وأما عن البقايا المكتشفة في الحفريات الأثرية والمؤرخة للقرن العاشر قبل الميلاد، أي فترة حكم داود وسليمان، فأكدت أن ما كُشف عنه قليل جدًا ولا يوافق ما ذكرته التوراة من وجود قصور ومعابد، وكل ما عُثر عليه لم يكن سوى بقايا لسور المدينة بُني فوق التلة، والمبنى الحجري المدرج، وبقايا حجرية لمبنى عام ضخم. وأكدت وجود تناقض بين المرويات التوراتية والآثار المكتشفة (شتاينر 2006: 82 - 84، 152). وبعد أن احتلت الضفة الغربية في عام 1967م، أجرت السلطات الإسرائيلية حفريات في منطقة القدس، خاصة في المنطقة الواقعة قرب الحرم الشريف (شكل 10)، بحثًا عن آثار معبد سليمان، لكنها لم تعثر إلا على آثار الحضارات الأخرى، وخاصة الإسلامية. ونذكر هنا الحفريات التي قام بها علماء الآثار الإسرائيليون:

1. الحفريات التي أجريت في المنطقة الجنوبية-الشرقية للحرم الشريف (Shiloh 1984; Ariel 1990; De Groot and Ariel 1992; Ariel and De Groot 1996).
2. الحفريات في المنطقة المحاذية لجدار الحرم الشريف (B. and E. Mazar 1989).
3. الحفريات داخل المدينة القديمة (Avigad 1983).

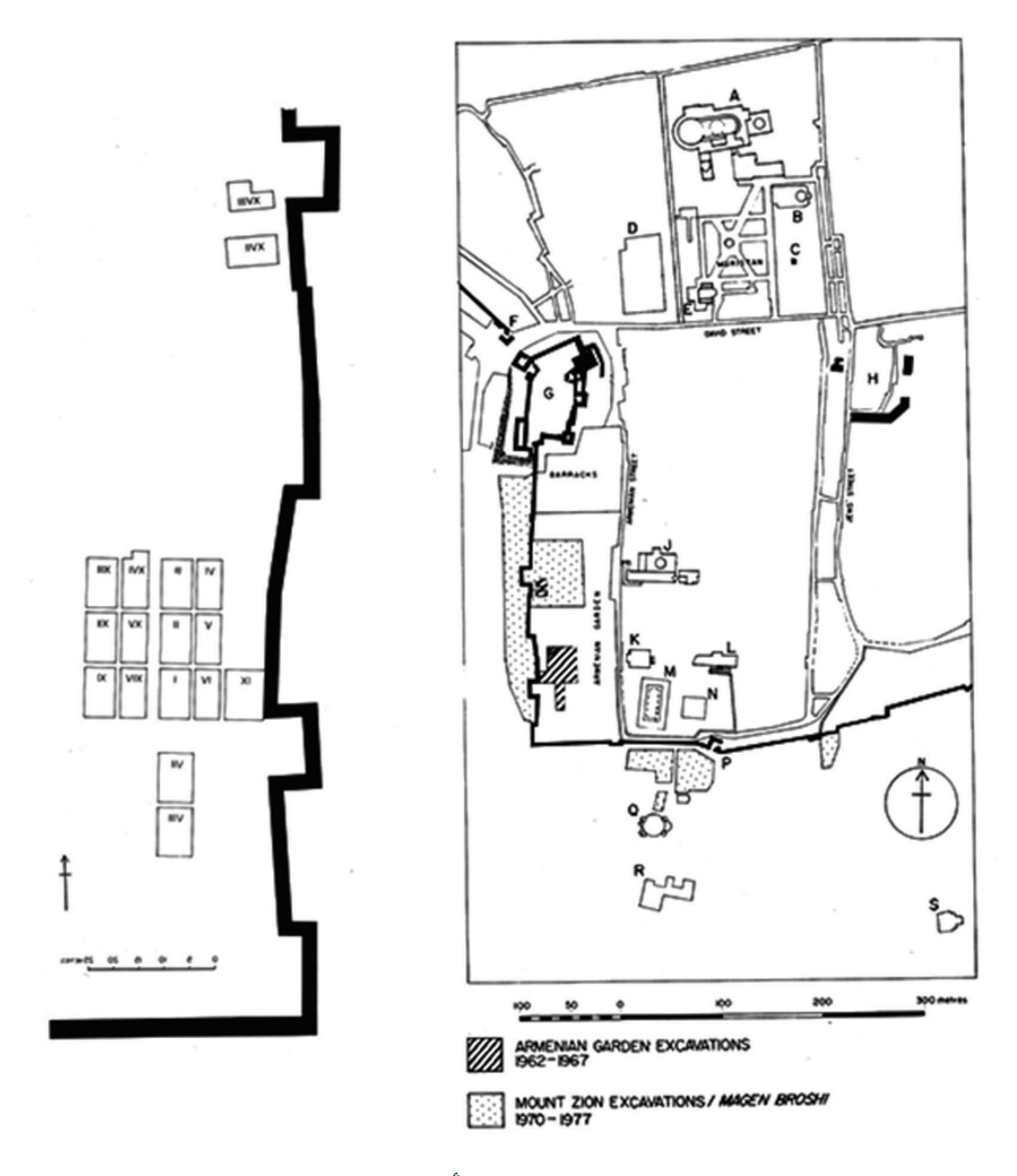
4. حفر مجموعة من قبور العصر الحديدي (نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر) تنقيبات أوسيشكن (Ussishkin 1993) ورايش (Reich 1994).

5. حفريات مؤسسة «إلعاد Elad» في منطقة الظهورة والتي بدأتها إيلات مازار (Eilat Mazar) في عام 2005 ميلادية وحتى الوقت الحاضر بحثاً عن قصر الملك داود (Mazar E. 2009). وتفتقر حفرياتها إلى الدقة في تفسير المكتشفات الأثرية، وانحيازها للقصص التوراتية حسب اعتراف الباحثة الهولندية مارغريت شتاينر (Steine 2016:76).

6. قامت جامعة تل أبيب في عام 2013 ميلادية بإجراء تنقيبات بإشراف غادوت (Y. Gadot) فيما يعرف باسم مدينة داود.



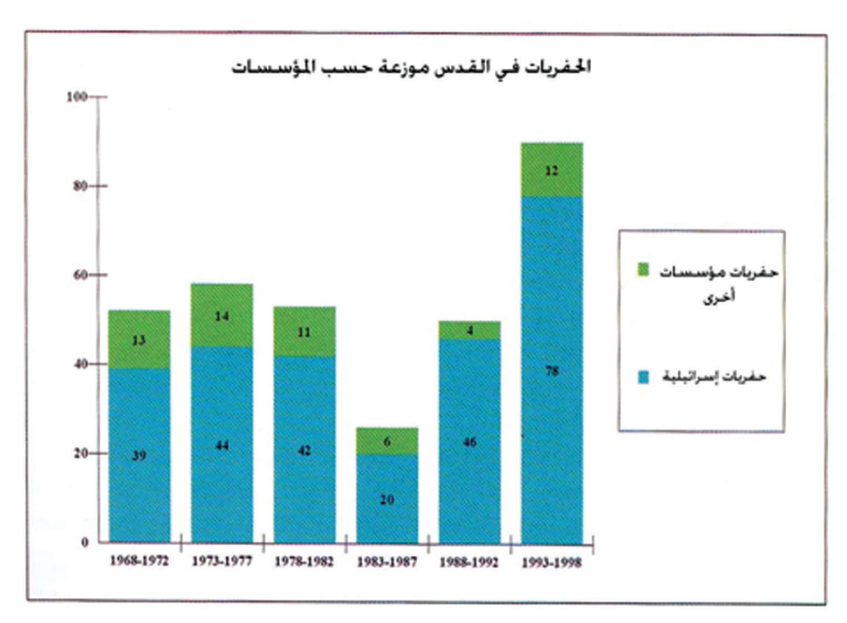
شكل 10: مخطط لتوزيع الحفريات الأثرية في القدس في الفترة بين 1913 و 1982 (Steiner 1998:27)



الشكل 11: مخطط حفريات كاثلين كنيون في الحديقة الأرمنية 1962–1967 والحفريات الإسرائيلية التي جرت بين 1970 و1977 في منطقة جبل الزيتون (عن Tushingham 1985: Plans 1 and 2)

من الواضح أن تأسيس دولة إسرائيل الصهيونية في عام 1948م أنتج حالة من الصراع الدائم بينها وبين الدول العربية. إذ بعد أن احتلت اسرائيل البقية الباقية من مدينة القدس نتيجة لحرب حزيران 1967م، فتُح لها الباب على مصراعيه لإجراء

حفريات أثرية في القدس وأكنافها. ويبين الجدول أدناه (Greenberg and Keinan 2007) إحصائية لعدد الحفريات التي أجريت في المدينة المقدسة من قبل بعثات أثرية إسرائيلية أو غيرها حتى عام 1998م (شكل 12)، علمًا أنها تضاعفت خلال السنوات الأخيرة، خاصة حفريات الأنفاق.



شكل 12: رسم بياني يبين عدد الحفريات الأثرية التي قامت بها السلطات الإسرائيلية في القدس بعد عام 1967م (عن Greenberg and Keinan 2007)

فمنذ احتلال اسرائيل للقدس الشرقية في عام 1967م، قامت بعدد من الإجراءآت الهادفة لتهويد المدينة، ومنها: هدم المنازل، منع مواطني القدس من البناء على 54٪ من مساحة المدينة وقصر البناء على ما مجموعه 12٪ فقط، بناء المستوطنات على أراضي المدينة، الاستيلاء على كثير من المباني القديمة، الحد من عدد السكان العرب بحيث لا تتجاوز نسبتهم 22٪. أعلن الكنيست الاسرائيلي في عام 1980م القدس عاصمة موحدة لاسرائيل ووافق في عام 2007م على عدم التنازل عن أي شبر من مساحة المدينة في حالة الوصول لاتفاق مع الفلسطينيين، إلا بعد موافقة ثمانين عضواً من أعضائه المائة والعشرين.

أما الحفريات الاسرائيلية التي جرت وتجري الآن في منطقة الحرم الشريف في القدس فقد اتبعت طريقة تنقيب أثرية تختلف عن جميع الطرق الأخرى، وذلك بأنها تبنت الحفر في أنفاق تحت الأرض (نفس النظام الذي اتبعه تشارلز وارن)، أو حُفر عمودية في باطن الأرض حتى تتفادى الكثافة السكانية والمباني المكتظة في المناطق المحيطة بالحرم الشريف، وذلك بحثاً عن بقايا لمملكة داود وسليمان أسفل الحرم الشريف، خاصة الهيكل الأول.

يظهر أنه وبعد ظهور نتائج حفريات الأنفاق التي لم تخدم وجهة النظر الاسرائيلية بشكل خاص، وعلماء اللاهوت بشكل عام، أن بعضاً من الآثاريين الاسرائيليين قد اقتنعوا الآن بعدم وجود لبقايا مدينة من القرن العاشر قبل الميلاد في منطقة الحرم الشريف فانتقلوا باحثين عنها في منطقة «الظهورة». بناء عليه، وابتداء من عام 2005 ميلادية قامت الاسرائيلية إيلات مازار بالتنقيب في هذه المنطقة وزعمت بأنها عثرت على مباني ضخمة واصفة واحد منها قصراً. ومن عجائب الأمر أن المنطقة التي تنقب بها إيلات مازار هي نفس المنطقة التي حفرها كل من ماكلستر وكنيون في القرن العشرين، وأن الجدران التي كشفت النقاب عنها هي نفسها التي أُكتشفت من قبل هذين المنقبين. المقصد هنا أنها لم تأت باكتشافات جديدة، إذ أن الجدران التي تتحدث عنها كانت مكتشفة قبل إجراء حفرياتها ، وكل ما قامت به هو تنظيف وإزالة الطمم الذي غطى ما اكتشفه السابقون من الآثاريين.وإذا كان الأمر هكذا فكيف استطاعت إيلات مازار الربط بين هذه الجدران، وتأريخ المباني التي أعادت اكتشافها والقول بأنها عثرت على قصر داود؟ وحتى تؤرخ مبنى أثرياً يجب أن يصل المنقب إلى أرضيته (مصطبته) وتتعرف على الموجودات الأثرية فوقها حتى تحدد طبيعة المبنى وكيفية استخدامه، وهي لم تذكر أنها عثرت على أرضيات هذه المباني (Steiner 2016: 76).

وتقوم السلطات الاسرائيلية ومنذ عام 2007 ميلادية وبدعم مالي من مؤسسة (العاد) بأكبر مشروع للحفريات الأثرية بالقرب من بوابة باب المغاربه (Dung Gate) (الشكل 13) وبإشراف كل من (د. بن- عامي) (Ben Ami) .من الجامعة العبرية، و ي. تشيخانوفيتس (الاسم بالاجنبي) من دائرة الآثار الإسرائيلية، تحت مسمى «حفريات كراجات جفعاتي Excavations Givati Parking Lot» وكشفت الحفريات عن بقايا بنايات أثرية تؤرخ للعصور الرومية (القرون الأول- الثالث الميلادية)، والبيزنطية، وللأسف فإن المنقبين لم يراعوا وجود مباني من الفترات الاسلامية اللاحقة(Zilberstein and Shatil 2013: 153-162) . كذلك فقد تمت إزالة مجموعة كبيرة من القبور الاسلامية حتى دون توثيقها (Steiner 2016: 77).



شكل 13: حفريات باب المغاربة الاسرائيلية (صورة عن الانترنت)
(.http://www.cityofdavid.org.il/en/archeology/excavations/givati-parking-lot)

وكما ذكرنا أعلاه فإن جامعة تل أبيب بدأت في عام 2013 ميلادية التنقيب في القدس وبدعم من مؤسسة (إلعاد)، علماً بأنها مؤسسة غير رسمية. فكيف تسمح جامعة أكاديمية لنفسها بأن تقوم بإجراء حفريات مدعومة مالياً من مؤسسة خاصة، وتنقب في أراضي محتلة.

وحيث أن الهضبة الجنوبية الشرقية من القدس تحوي أقدم البقايا الأثرية من حيث اللقى الأثرية والمباني المعمارية المؤرخة أقدمها للعصر البرونزي القديم الأول (حوالي الألف الرابع قبل الميلاد)، فقد أطلق الاسرائيليون على هذه المنطقة تجاوزاً اسم «مدينة داود City of David». وتم اطلاق هذا المسمى على هذه المنطقة تيمناً بتردد ذكره في الأسفار التوراتية أكثر من مرة (الأسفار صموئيل الثاني والملوك الثاني) والتي تربط بين داود الذي حسب ما ورد فيها احتل المدينة وأقام فيها، وأن سليمان بنى قصراً ومعبداً فوق أرضها، وأن قبور هؤلاء الملوك وذراريهم قد دفنت فيها. على الرغم من إجراء العديد من الحفريات الأثرية في هذه المنطقة إلاّ أنه لم يعثر على بقايا أثرية أو كتابات تثبت ما يزعمون إليه . كما أن استخدام هذا المسمّى لهذه المنطقة لم يستخدم إلاّ من قبل ريموند فايل (Raymond Weill) الذي ترأس بعثة أثرية للتنقيب في القدس في عشرينيات القرن الفائت، وعند المنقبين الاسرائيليين الذي نقبوا في هذه المنطقة ابتداء من سبعينيات القرن الفائت (Steiner 2020: 3 – 4). وبطبيعة الحال فإن إطلاق واستخدام مثل هذا المصطلح الذي لا يعتمد على أسس علمية صحيحة وثابتة له دلالات أيدولوجية (Gadot and Uziel 2017). وتنكر مارغريت شتاينر أية آثار تعود سواء لداود أو سليمان، بل هناك آثار من نهاية العصر الحديدي والفترات اليونانية والرومية، وأن كل ما يذكره الآثاريون الاسرائيليون هم من بناة أفكارهم ومتخيل (Steiner 2020: 5).

ختامًا، شهدت وتشهد القدس العديد من النشاطات والحفريات الأثرية باختلاف أماكنها في المدينة، وطبيعتها، وأهدافها. فهناك الحفريات التي جرت وتجري في منطقة جنوبي الحرم الشريف في منطقة الظهورة والتي بدأتها كاثلين كنيون وتبعها بعد عام 1967م بنيامين مازار ، والتي أقام الاسرائيليون فوقها متنزه أثري، ومتحف، ومركز ديفيدسون (أنظر الرابط الإلكتروني الذي يتحدث عن هذه المنشآءات (http: // www.archpark.org.il/ excavations2.shtml). إن التنقيب في هذه الأماكن المحاذية للحرم الشريف وتحت بناء المسجد الأقصى إثارة وتحدٍ لمشاعر المسلمين والتي لم تأخذها لا السلطات الاسرائيلية ولا المؤسسات الأكاديمية فيها بعين الاعتبار.

تعد الحفريات الأثرية مصدرًا لتقديم معلومات عن الحضارات القديمة، وكيف عاش الناس على هذه البسيطة وتفاعلوا معها، لكنْ، وللأسف، فإن الحفريات التي أُجريت وتجرى في القدس تبحث عن إثباتات لم يُعثر عليها حتى الآن، لحقٍ إلهي مزعوم. علمًا أن الناس أقاموا على أرض القدس قبل حوالي أكثر من ربع مليون عام. فالأرض أرض الله، لكن لجميع ذرية إبراهيم وذرية أبنائه، إسحق وإسماعيل (Kafafi 2014a: 245 – 256). للأسف فإن الإسرائيليين يعتبرون أن كل ما في القدس من آثار هي ملك لهم وتناسوا أن سكانها هم أهلها منذ العصور الحجرية وحتى الوقت الحاضر، فالحرم القدسي، والظهوره، وسلوان وكل ما في القدس ينطق بلسان أهلها المحليين ولا علاقة لليهود من مختلف أصقاع العالم بها.

3 الفصـــــــل الثالث

الخطوات الأولى للإنسان على تراب القدس

الفصل الثالث

الخطوات الأولى للإنسان على تراب القدس

نتيجة للحفريات والمسوحات الأثرية التي أجريت في القدس ومحيطها، تبين أن الناس جاءوا أول مرة للقدس خلال عصور ما قبل التاريخ، وبالتحديد خلال المراحل الأولى من العصر الحجري القديم. حيث جمع الآثاريون من على سفوح جبل الزيتون أدوات صوانية تعود للفترة بين حوالي 400.000 و25.000 سنة مضت (Hermon et al. 1995: 256 – 257). كما جُمعت خلال أعوام 1933م و1962م أدوات صوانية في منطقة البقعة في غربي القدس تعود لحوالي خمسين ألف سنة مضت (Stekelis 1948).

ولم يُعثر في مدينة القدس حتى الآن على بقايا لأية قرية زراعية من العصر الحجري الحديث (حوالي 8500 وحتى 4500 قبل الميلاد)، لكن عُثر في بلدة أبو غوش القريبة جدًا من المدينة على واحدة منها. ويظهر أن الناس تحركوا بعد هذه الفترة، وخلال ما يعرف باسم العصر الحجري النحاسي (حوالي 4500 وحتى 3500 قبل الميلاد)، باتجاه موقع المدينة الحالي، حيث عُثر في منطقة الظهورة على كسر فخارية عائدة لهذه الفترة، مدفونة داخل حفر طبيعية في الصخر (Shiloh 1984). واقترح بعض الآثاريين أن هؤلاء الناس كانوا بداة أو أشباه بداة، أي غير مستقرين، وبقي هؤلاء البدو يجوبون منطقة القدس الحالية، خاصة في منطقة وادي ستنا مريم حتى بداية الألف الثاني قبل الميلاد (الشكل 14) (Auld and Steiner 1996: 22; Steiner 2001: 7). لكنْ، هناك من يرى أن بقايا المنزل المكتشف بالقرب من نبع ستنا مريم قرب بلدة سلوان يعد دليلًا على أن الناس استقروا في هذا المكان خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد (Prag 2007: 54). وحتى نترك الكلام للآثار المكتشفة

في القدس وأكنافها، نقدم أدناه وصفًا موجزًا لأهم الآثار المكتشفة والمؤرخة للفترة التي تسبق قدوم اليونانيين لهذه البلاد.



شكل 14: فوق هذه المنطقة كانت بداية تأسيس مدينة القدس الحالية

أ- العصور البرونزية:

تشير جميع نتائج هذه النشاطات الأثرية الى أن مدينة القدس سُكنت ابتداء من الألف الرابع قبل الميلاد وحتى الوقت الحالي، حيث كشفت الحفريات الأثرية التي أجراها شيلو (Shiloh 1984: 11 – 12) عن كسر فخارية من العصرين الحجري النحاسي والبرونزي المبكر مختلطة مع بعضها بعضًا. وإن كانت طبيعة السكنى والسكان قد اختلفت من فترة لأخرى. فمثلًا، جاءت بقايا نهاية الألف الرابع ممثلة بكهوف محفورة في الصخر الطبيعي (الشكل 15)، عُثر بداخلها على كسر فخارية تعود للعصور البرونزية المبكرة، أي الألف الرابع قبل الميلاد (Steiner 2001:7 – 9; Fig. 2.1).



شكل 15: كهف كبير بالقريب من نبع ستنا مريم عُثر بداخله على كسر فخارية تعود للعصر البرونزي المبكر

وإضافة لهذه الكسر الفخارية التي عُثر عليها داخل الكهوف، عُثر بالقرب من نبع ستنا مريم على بقايا منزل مكون من غرفة واسعة (الشكل 16)، بُنيت مباشرة فوق الصخر الطبيعي (Prag 2007: 54). ويحيط بالجدران من الداخل صف من الحجارة يبرز عن الجدار، ربما استُعمل للجلوس. وصفات المنزل مشابهة من حيث التخطيط وطريقة البناء لبيوت الألف الرابع المكتشفة في بلاد الشام، من حيث أنها مستطيلة الشكل، وبابها في الجدار الطويل. كذلك كشفت الحفريات التي أُجريت في مطلع القرن العشرين في منطقة الظهورة عن قبور محفورة داخل كهوف طبيعية وفي داخلها أوان فخارية (الشكل 17) مؤرخة للألف الرابع قبل الميلاد (Vincent 1911).



شكل 16: منزل يعود لنهاية الألف الرابع قبل الميلاد بالقرب من عين ستنا مريم (عن 54 :Prag 2007)



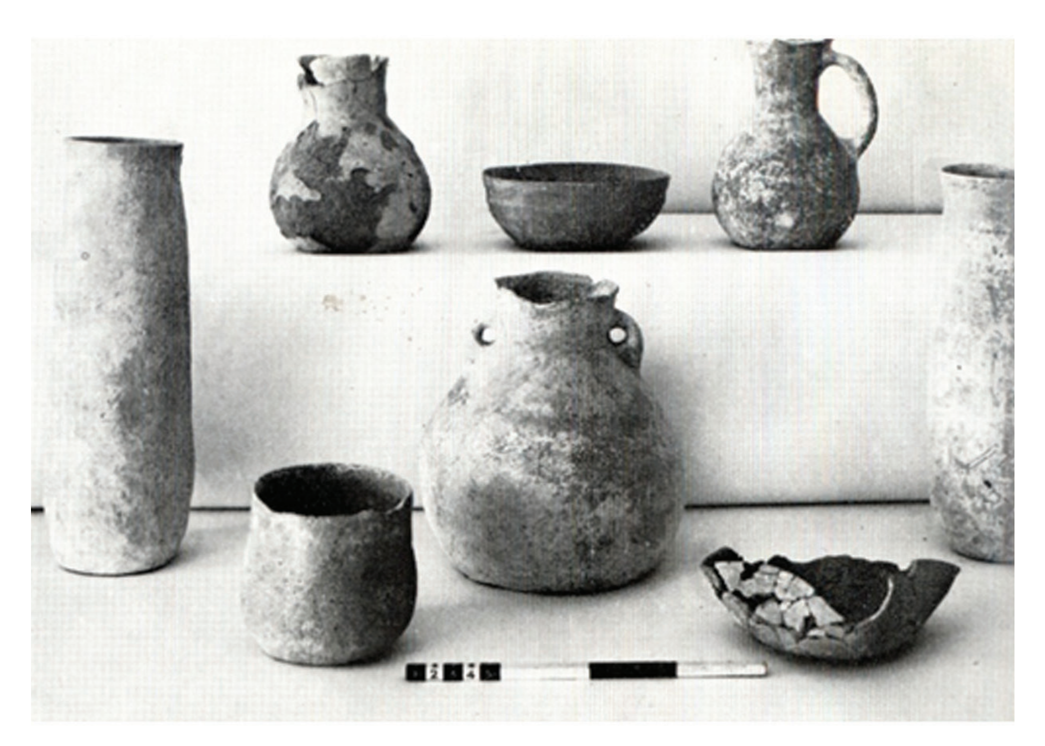
شكل 17: جرة فخارية من العصر البرونزي المبكر الأول عُثر عليها في قبر في منطقة الظهورة
(عن Vincent: 1911)

واعتمادًا على تنوع مصادر الأواني الفخارية ذكر بعض الباحثين أن المقابر، وحتى المنزل المكتشف، لا تدل على الاستقرار الدائم في منطقة نبع ستنا مريم والظهورة، وإنما استُخدمت من قبل مجموعات بشرية متحركة (بدو أو رعاة) جاءت إلى المنطقة خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد (Auld and Steiner 1996: 22). بينما يرى باحثون آخرون أن الموقع كان مستقرًا دائمًا تأسس على الأبعد خلال بداية الألف الثالث قبل الميلاد (Shiloh 1984; Prag 2007).

وعلى أية حال، يبدو لنا أن الناس وخلال الفترة المؤرخة بين حوالي 3500 و3000 قبل الميلاد سكنوا بداية الأمر في المنطقة القريبة من نبع ستنا مريم، فسكنوا الكهوف المطلة على الوادي، كما أنهم بنوا لأنفسهم في مرحلة لاحقة بيوتًا مكونة نواة لقرية صغيرة، غير محصنة. وحالهم في هذا حال سكان المناطق القريبة من القدس، حيث كُشف في المنطقة الممتدة بين مدينتي القدس ورام الله عن حوالي 25 موقعًا تعود للعصر البرونزي المبكر (Finkelstein and Magen 1993). وبقيت القرية صغيرة المساحة، ولم تصل إلى مرحلة المدينة كغيرها من بعض المواقع الفلسطينية خلال الألف الثالث قبل الميلاد.

وحتى ما عُثر عليه من الفترة المؤرخة بين حوالي 2400 – 2000 قبل الميلاد لم يخرج في معظمه عن كونه مدافن عُثر بداخلها على أواني فخارية (الشكل 18) وكانت القبور مبعثرة هنا وهناك في منطقة القدس، مثل في مناطق حبلة العامود وجبل الزيتون (Prag 2007; 1995). وتصف كاثلين كنيون (Kenyon 1966: 74 – 75) المدفونين في هذه المدافن بأنهم من البدو الذين عاشوا في المنطقة. وعثر الإسرائيليون في منطقة البقعة في القدس، والتي تبعد حوالي 6 كيلومترات إلى الجنوب

الغربي من نبع عين ستنا مريم على بقايا موقع يعتقد أنه لقرية، تعود لهذه الفترة، تراوحت مساحتها بين 30 إلى 50 دونمًا، اعتمد سكانها الزراعة وتربية الحيوانات أساسًا للعيش (Finkelstein 1991).



شكل 18: أواني فخارية من العصر البرونزي المبكر الرابع
(حوالي 2400–2000 ق.م) (عن Kenyon 1974: Fig. 21)

ويقترح الآثاريون أنه لا بد من وجود بقايا أثرية تعود للعصور البرونزية المتوسطة، أي الفترة ما بين (2000 – 1550 ق.م) في مناطق الظهوره وقرية سلوان وعلى امتداد وادي ستنا مريم. ويقترح بعض الباحثين أن بداية القدس كمدينة محصنة لم تكن إلا خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي حوالي 1800 ق.م، إذ عُثر في المنطقة المطلة على عين ستنا مريم (الشكل 19) على سور سمكه 3م، دُعم بدعامات حجرية على شكل أبراج (Kenyon 1966: 76).



الشكل 19: أحد المناطق المطلة على وادي ستنا مريم والتي حفرت بها كاثلين كنيون (عن: Kenyon 1974: Fig. 14)

وبما أن الجهة الشرقية للمدينة القديمة منحدرة بشكل كبير، فقد بُنيت هناك مصاطب ليستفيد السكان من تلك المنطقة إبان ذلك الوقت. واعتقدت كنيون بداية الأمر أن هذه المصاطب هي التي ذُكرت في التوراة باسم «ميلو»، والتي يقول العهد القديم إن الملك داود بناها، وأصلحها ابنه سليمان. كما اكتُشف حديثًا لجدران وأبراج تحصينية ارتبطت بنظام مائي مكون من قنوات مقطوعة في الصخر وأنفاق، وظيفتها سحب المياه من عين ستنا مريم للموقع. وهذه أُرخت للعصر البرونزي المتوسط. كما أن هؤلاء استخدموا الكهوف المحفورة في الصخر الطبيعي تحتها مدافنَ لموتاهم (Prag 1991). واقترح أحد المنقبين (Weill 1920: 131–135) أن هؤلاء الناس كانوا كنعانيين.

وكما ذكرنا أعلاه، فإن المصادر المصرية المكتوبة أطلقت اسم «أوروسالم» على مدينة العصر البرونزي المتوسط في القدس. وتعتقد الباحثة «كي براغ» (K. Prag) أن المدينة عاشت في بحبوبة من العيش خلال هذه الفترة بدلالة وجود التحصينات، وأوان فخارية جيدة الصناعة استخدمها سكان الموقع في هذه الفترة، ولاكتشاف معاصر في موقع التلة المطل على عين ستنا مريم في شمالي القدس الحديثة (Prag 2007: 57). لكن هناك من الباحثين من يخالف هذا الرأي، إذ ترى ماغريت شتاينر (Steiner 2007: 33 أ 28 :1998 ;70) أنه لم يُعثر في القدس على أية مخلفات أثرية، سواء عمائرية أو أوان فخارية تعود للفترة بين حوالي 1700 و1550 قبل الميلاد، وأن القبور التي عُثر عليها وتنسب لهذه الفترة يجب أن تُؤرخ للمرحلة التالية، وهي العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 - 1200 ق.م.). وتقترح شتاينر أن موقع «أوروسالم» المذكور في المصادر المصرية، مثل رسائل تل العمارنة، يجب أن يكون في منطقة أخرى، غير منطقة القدس الحديثة.

أما عن الفترة التي تمثل نهاية العصور البرونزية (حوالي 1550 – 1200 ق. م). فقد جاء ذكر القدس في رسائل تل العمارنة (حوالي 1400 ق. م). ومن المعلومات الواردة في المدونات المصرية حول القدس يتولد الانطباع بأن المدينة في ذلك الوقت كانت غنية بمواردها وحاولت السيطرة على بعض المدن المجاورة، لكنَّ ما اكتُشف من آثار يقول غير ذلك. ويظهر أنه نتيجة لوقوع فلسطين تحت السيطرة الفرعونية، وفرض الضرائب الباهظة على سكانها، اضطر كثير من سكان المدن لهجرانها. وربما كان هذا حال القدس كغيرها من مدن جنوبي بلاد الشام. لذا جاءت المخلفات الأثرية المكتشفة في القدس والمؤرخة لهذه الفترة قليلة جدًا، علمـاً أن كاثلين كنيون ذكرت بأنها اكتشفت جداراً نسبته لليبوسيين (الشكل 20). كما أن عدد المواقع المؤرخة للعصر البرونزي المتأخر الواقعة في المناطق المحيطة بالقدس تراجع عن عدده خلال الفترة السابقة (Finkelstein and Magen 1993).



شكل 20 : الجدار اليبوسي الذي عثرت عليه كاثلين كنيون
(عن Kenyon 1974:Fig. 26)

وعلى الرغم مما ذكر أعلاه، فقد كشفت الحفريات التي أجراها سلفستر سالر في عام 1954 عن قبر غني بموجوداته الأثرية في منطقة جبل الزيتون. كما عثر ديمتري برامكي في عام 1935 على بئر للماء عثر بداخله على موجودات أثرية متعددة تعود للفترة الواقعة بين (1550 – 1200 ق. م). وإضافة لهذا وغيره فقد كُشف في الجهة الجنوبية الشرقية عن منشآت حجرية تؤرخ للفترة المذكورة أعلاه مكونة من مصاطب حجرية ذات ارتفاعات مختلفة، تكوِّن مرتفعًا ضخمًا.

خلاصة القول، فإننا نرى أن هذه النتائج تقول بوجود مدينة كنعانية ازدهرت خلال المرحلة الأخيرة من العصور البرونزية، وربما تكشف الحفريات عن مزيد من المعلومات عن هذه المرحلة. ونتفق وكثير من الباحثين بأن القدس وخلال العصر البرونزي المتأخر كانت مكان إقامة لحاكم محلي خضع للفرعون المصري، وحكم منطقة صغيرة المساحة في شمالي وجنوبي المدينة، أما المنطقة الجبلية المشرفة عليها فكانت في يد عدد من القبائل التي لم تخضع لأحد.

ب- العصور الحديدية:

وأما عن القدس في العصور الحديدية (حوالي 1200-539 ق. م) فإن المصادر الأثرية والتاريخية تزودنا بمعلومات كثيرة عن المرحلة المتأخرة منها، أما المرحلة الأولى (حوالي 1200 - 1000 ق.م.) فلا يوجد لها أي ذكر في السجلات والوثائق المدونة. كما رأينا أعلاه، أكدت المصادر التاريخية المكتوبة وجود مدينة سابقة للعصر الحديدي. أما مدينة يبوس التي احتلها الملك داود من أهلها اليبوسيين، فلا ذكر لها إلا في الأسفار التوراتية. لذا وجد كثير من الباحثين تناقضًا بين المصادر المكتوبة ونتائج التنقيبات الأثرية في تحديد مكان وهوية مدينة أوروسالم المذكورة خاصة في رسائل تل العمارنة. إذ إنهم يرون أن نتائج الحفريات لا تعطي صورة واضحة عن مدينة اليبوسيين الذين امتلكوا المدينة قبل العصر الحديدي، كما أنها لا تثبت وجود مملكة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد (Steiner 2007). موضحين أن البقايا الأثرية من القرن العاشر قبل الميلاد، إن وجدت، جاءت قليلة ومبعثرة. وللخوض في هذه المسألة الشائكة نورد أدناه معلومات حول ما اكتُشف من آثار تعود لهذه الفترة (حوالي 1200 - 900 ق.م.) علها تساعدنا في رسم صورة واضحة لمدينة القدس في هذه الفترة.



شكل 21: صورة توضح منطقة الظهورة والمكان الذي يعتقد الإسرائيليون أنه مدينة داود، ولم يتم العثور على أية آثار في هذه المنطقة من زمن هذا الملك (عن الإنترنت)

جاءت المكتشفات الأثرية المؤرخة للفترة بين حوالي 1200 إلى 900 قبل الميلاد قليلة جدًا، وكشفت الحفريات الإسرائيلية في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الحرم الشريف عن كسر فخارية لجرار تعرف بذات الطوق (Collared–rim Jars) تؤرخ للفترة بين حوالي 1200 - 1100 قبل الميلاد (Shiloh 1984: 26; Herr 2007: 71 :75; Steiner 2007). وتذكر شتاينر أنه لم يُعثر في هذه المنطقة، التي يسميها الإسرائيليون الآن «مدينة داود» (الشكل 21)، على أية بقايا لمبان ضخمة، بُنيت فوق المصاطب التي كشفت عنها كنيون، ولا عن طبقات أثرية فيها مخلفات أثرية من هذه الفترة، وتضيف أن الموقع خلال هذه المرحلة لم يخرج عن كونه قلعة، أو حصن

صغير بني لمراقبة المناطق المحيطة به (Steiner 2007: 71). وإذا كان الأمر كما تقول شتاينر، فإننا ندرك أن مدينة القدس المؤرخة للقرن العاشر أو حتى التاسع قبل الميلاد بُنيت لأول مرة في هذه الفترة، لأنها لم تكن موجودة سابقًا....!.

وذكرت كنيون أنها عثرت على مصاطب مدرجة، وعلى جدار مزدوج يؤرخان إلى القرن العاشر قبل الميلاد. علمًا أن ماكلستر كان قد اكتشف جزءًا منها قبلها، وأطلق عليها اسم «المنحدر اليبوسي Jebusite Ramp». كما حاول عدد من الآثاريين التأكيد على نسبة المنطقة المبنية عل شكل مصاطب وبعض بقايا تيجان الأعمدة إلى عهد الملك داود معتمدين في ذلك على ما ورد في النصوص التوراتية (سفر صموئيل الثاني 5:7، سفر الملوك الثاني 8:1). ويعتقدون أنه فقط وفي زمن الملك سليمان تم نقل المباني الإدارية والعامة إلى منطقة الحرم الشريف. لكن عدداً آخر من الآثاريين، ومنهم إسرائيليون لا يوافقون على هذا التأريخ ولا القول، ويشددون على أنه لم يُعثر حتى الآن على أية دلائل أثرية تؤيد ما ذهبت إليه كنيون ومن تبعها. فعلى سبيل المثال، يذكر توماس طومسون (1999: 23-42) أن القدس لم تكتسب صفة المدينة الحقيقية إلا خلال القرن السابع قبل الميلاد، وكانت قبل هذه الفترة بلدة صغيرة. ويضيف، أنه لم تكن في القدس، خلال القرن العاشر قبل الميلاد، سلطة مركزية قوية كما تذكر النصوص التوراتية. ويؤيد هذا القول مجموعة من الباحثين الغربيين الآخرين المعروفين باسم «التفكيكيين، أو المحرفين، أو الراديكاليين، أو المقللين» (أبو طالب 2006ب: 167)، من أمثال كايت وايتلام (Whitelam 2001: 160 – 175)، ونيلس بيتر لمكه (Lemche 1998: 62 – 64). وانضم إلى هذه النخبة من العلماء الغربيين باحثون إسرائيليون، من أمثال إسرائيل فنكلشتاين ونيل آشر سيلبرمن (Finkelstein and Silberman 2001).

وكان متداولًا بين الآثاريين التوراتيين، واعتمادًا على النصوص التوراتية (سفر صموئيل الثاني 5: 6 – 10، أخبار الأيام الأول 11: 4-9) أن الملك داود سيطر

عنوة على أورشليم التي كان يقيم فيها اليبوسيون، واتخذها عاصمة له. وتصف هذه النصوص كيفية دخول جيش داود هذه المدينة اليبوسية المسورة دون إلحاق الضرر بأسوارها، وعلى النحو الآتي:

«6 وسارَ المَلِكُ ورِجالُهُ إلى أورُشليمَ لِمُحاربَةِ اليَبوسيِّينَ سُكّانِها، فقالَ لَه هؤلاءِ وهُم يَظنُّونَ أنَّه لا يَقدِرُ أنْ يَدخلَها: «لا يُمكِنُكَ أنْ تَدخلَ إلى هُنا، فحتى العميانُ والعُرْج يصدُّونكَ». 7لكنَّ داوُدَ احتَلَ حِصنَ صِهيونَ وهوَ مدينةُ داوُدَ 8 وقالَ في ذلِكَ اليومِ لرجالِهِ: «مَنْ أرادَ أنْ يُهاجمَ يَبوسيًا، فليَدخلْ عبرَ قناةِ المياهِ إلى حيثُ أولئِكَ العُرْج والعُميانُ الذينَ تَعافُهُم نفْسي». فلذلِكَ يُقالُ: «لا يدخلُ بَيتَ الرّبِّ أعمى ولا أعرَج». 9 وأقامَ داوُدُ في الحِصنِ وسَمَّاهُ مدينةَ داوُدَ، وبَنى حولَه سُورًا مِنَ القَلعةِ إلى الدَّاخلِ» (صموئيل الثاني 5: 6 – 9).

ومن الملاحظ أن النصوص التوراتية وعند حديثها عن المدينة في الفترة السابقة لاحتلالها من قبل داود تطلق عليها اسم «يبوس»، لكن بعد احتلالها تسميها «يروشالايم» (سفر يشوع 15: 8؛ 18: 8؛ سفر القضاة 19: 10). والاسم «يروشلم» مذكور في نصوص اللعنات المصرية المؤرخة للقرن التاسع عشر قبل الميلاد، ورسائل تل العمارنة العائدة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد (Kitchen 2007)، أي قبل احتلال داود لها بمئات السنين. أما اسم «يبوس» فلم يعثر عليه خارج النصوص التوراتية.

ولم تشف نتائج الحفريات الأثرية التي جرت في مدينة القدس غليل الباحثين عن هذه المدينة المسورة، فهم لم يعثروا لا على الأسوار ولا على الآثار، وحتى المخلفات الأثرية المؤرخة للقرن العاشر قبل الميلاد، إن وجدت، جاءت قليلة (Knauf 2007). علمًا أنه، وعكس هذا، فإن نصوص العهد القديم (سفر صموئيل الثاني 5: 11، سفر أخبار الأيام الأول 14 : 1) تشير إلى أن الملك داود أقام في المدينة

عـددًا مـن المنشـآت، بعضهـا بمسـاعدة ملـك صـور الفينيقـي حيـرام. وحتـى اللحظـة لـم يعثـر الآثاريـون علـى أيـة بقايـا لهـذه المنشـآت.

وتـدل المكتشـفات الأثريـة علـى أن مدينـة القـدس بلغـت قمـة ازدهارهـا خـلال القـرون التاسـع والثامـن والسـابع قبـل الميـلاد، حيـث تحـول المنحـدر التحصينـي الـذي ذكرنـاه آنفًـا إلـى تلـة صناعيـة، وبنـي فوقـه عـدد مـن البيـوت الخاصـة. وبالإضافـة إلـى هـذه، فقـد عُثـر فـي نفـس المنطقـة علـى دمـى ربمـا ارتبطـت بعقائـد دينيـة مختلفـة، وقـد يشـير هـذا إلـى تحـول أو تغيـر فـي المعتقـد الدينـي فـي ذلـك الوقـت. ويـرى لاري هيـر (Herr 2007:78) وآخـرون أن المدينـة كانـت خـلال هـذه الفـترة عاصمـة لمقاطعـة صغيـرة، أطلـق عليهـا اسـم «يهـوذا».

وعُثـر فـي سـلوان علـى قبـور منحوتـة فـي الصخـر (انظـر لاحقًـا)، رأى بعـض الآثاريـن الإسـرائيليين أن بعضًـا منهـا، مسـقوف بشـبائح حجريـة، تشـابه فـي طريقـة بنائهـا القبـور الفينيقيـة المؤرخـة للقـرن الثامـن قبـل الميـلاد (Ussishkin 1993). ومـن الجديـر بالذكـر أن أهـل سـلوان سـكنوا هـذه القبـور بعـد تنظيفهـا. وهـذا الأمـر جعـل مـن الصعـب علـى الباحثيـن تقريـر تاريخهـا الدقيـق.

كذلـك، فـإن مـن أهـم المظاهـر المؤرخـة لهـذه الفـترة هـو النظـام المائـي، فقـد كُشـف عـن قنـوات جـرت الميـاه مـن عيـن سـتنا مريـم إلـى بركـة الملـوك. ومـن هـذه المنشـآت أيضًـا مـا يعـرف باسـم بئـر وارن (Warren's Shaft)، علمًـا أن تاريـخ هـذه البئـر غيـر محـدد، لغيـاب الشـواهد الأثريـة، أو ربمـا يكـون المنقـب نفسـه قـد دمرهـا بعـدم اتباعـه للأسـس العلميـة فـي التنقيـب.

ويجـب أن لا ننسـى هنـا ذكـر النفـق المنسـوب للملـك حزقيـا والنـص الـذي عُثـر عليـه فـي هـذا النفـق، إذ يعتقـد بعـض العلمـاء أنـه يـؤرخ لنهايـة القـرن الثامـن قبـل الميـلاد. كمـا ويحـاول كثيـر مـن الباحثيـن الإسـرائيليين الإشـارة إلـى أن المدينـة بلغـت أقصـى اتسـاع

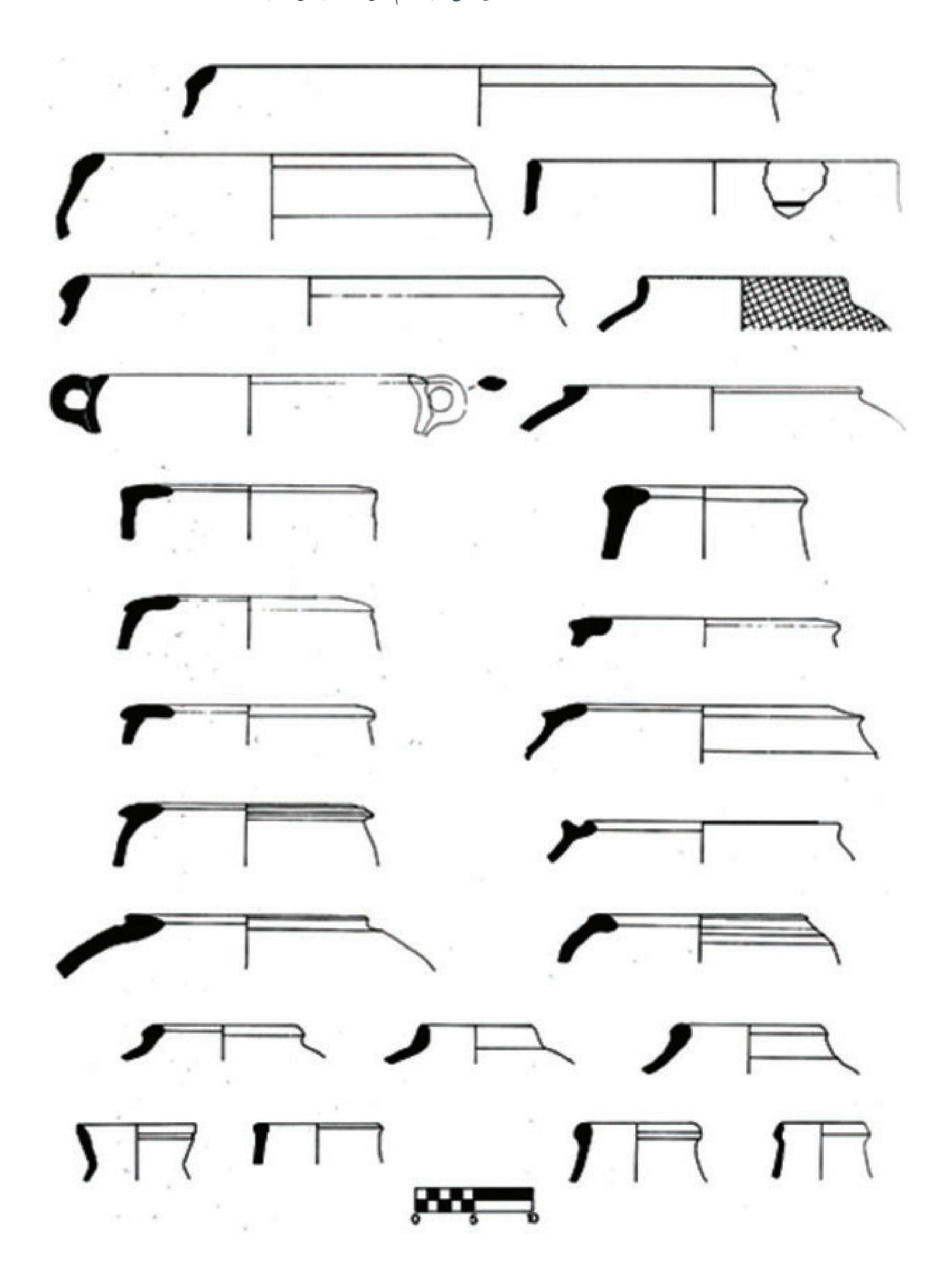
لها في هذه الفترة، خاصة في الجهة الواقعة للغرب من نفق الملك حزقيا، رادين ذلك إلى عاملين أولهما: الهجمات الآشورية على فلسطين، خاصة من جهتها الشمالية؛ وثانيهما استقلال المدن على الساحل الفلسطيني مما أدى إلى هجرة مجموعة من الناس إلى القدس.

شهد القرنان الثامن والسابع قبل الميلاد غزوات آشورية على منطقة بلاد الشام، لم يكن هدفها الوحيد السيطرة على المنطقة بقدر ما هو فتح الطريق للوصول إلى مصر. وكان الآشوريون لا يضمون أية منطقة يحتلونها إلى مملكتهم، بل كانوا يعينون عليها حاكمًا تابعًا ومخلصًا يدفع لهم الجزية. ويبدو أن فلسطين كانت غنية بإنتاج زيت الزيتون في هذه الفترة، حيث عُثر في موقع «خربة المقنَع/ عاقر» التي تبعد حوالي تسعة كيلومترات جنوب غربي مدينة الرمله، و25 كيلومتراً حنوب شرق مدينة يافا في فلسطين، على منشآت ضخمة لعصر الزيتون. وعلى أية حال، نجد الملك الآشوري سرجون الثاني يقوم في عام 722 قبل الميلاد باحتلال السامرة عاصمة مملكة «بيت عَمري» ، ويسبي أهلها. كما قام الملك سنحاريب في عام 701 قبل الميلاد بغزو مملكة يهوذا وحاصر القدس حتى وافق ملكها على دفع الجزية.

بعد اعتلاء الكلديون (الكلدانيون) سدة الحكم في بلاد الرافدين (حوالي 612 ق.م.)، حكمت مصر أسرة قوية، فوجد الناس في فلسطين أنفسهم بين فكي كمَاشة. وعلى أية حال، غزا الكلديون بلاد الشام في عدد من المرات، واستطاعوا في عام 586 ق.م. وعلى يد الملك نبوخذنصر، احتلال مدينة القدس وسبي أهلها إلى بابل. وعُثر في القدس على بقايا قليلة من هذه الفترة، خاصة في المنطقة الجنوبية الشرقية، والتي تكونت من مصاطب تشكلت من الطمم الناتج عن دمار المدينة. كما عُثر في الحي اليهودي من القدس على جزء من جدار المدينة الذي بني قبل مهاجمة الآشوريين للمدينة في عام 701 قبل الميلاد (Avigad 1980: 45–54).

استطاع الإسكندر المكدوني في حوالي عام 332 ق.م. السيطرة على منطقة شرقي البحر المتوسط، وبدأت نتيجة لامتزاج الحضارتين الشرقية والغربية جذور حضارة جديدة أُطلق عليها اسم الهلنستية. أما مدينة القدس، فمن المعروف أن المعلومات التي وصلتنا عنها من منتصف القرن الخامس وحتى الثاني قبل الميلاد قليلة، عدا بعض الكتابات التاريخية القليلة جدًا. لكن يبدو أنه وبعد الثورة المكابية أصبحت القدس مدينة مستقلة (حوالي عام 164 ق.م.) وأخذت تتسع غربًا، إذ تشير نتائج الحفريات الأثرية إلى أن المدينة في الفترة الهيلينستية قد تضاءلت مساحتها عن تلك السابقة لها، أي في فترة الحكم الفارسي، واقتصرت على الجزء الجنوبي الشرقي فقط، أي بما يعرف، لدى الإسرائيليين، بحدود مدينة الملك داود. إذ أُحيطت المدينة بأسوار، بُنيت في فترات سابقة، لكنها خضعت لإضافات زمن الملك نحميا (حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد). وقد كُشف عن هذه الأسوار ضمن الحفريات التي أجراها كل من ماكلستر (Macalister) ودنكان (Duncan) في النصف الأول من القرن العشرين، وأُعيد اكتشافها خلال الحفريات التي أجراها كل من كنيون وييغال شيلو (Yigal Shiloh) الذين أرَّخا هذه الجدران والأبراج إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد.

وبالإضافة إلى هذه الجدران والأبراج فقد كشفت الحفريات عن بقايا ولقى أثرية مهمة من هذه الفترة مثل بعض الحجارة المنقوشة والأواني الفخارية (الشكل 22).



شكل 22 :أواني فخارية من نهاية العصر الحديدي (القرنين السابع والسادس قبل الميلاد) من الحديقة الأرمنية (عن: Tushingham 1985: Fig. 3)

4

الفصـــــــل الرابع

القدس في المصادر التاريخية الفرعونية والرافدية

الفصل الرابع

القدس في المصادر التاريخية الفرعونية والرافدية

القدس في نصوص العصرين البرونزي والحديدي:

لا تزيد النصوص التي تحدثت عن أورشاليم ابتداء من العصور البرونزية المتوسطة وحتى العصر الحديدي الثاني، أي من حوالي 2000 وحتى 900 قبل الميلاد، عن عدد قليل، أغلبها، إن لم يكن جميعها، مصرية الأصل. وأقدم هذه النصوص تلك المعروفة باسم «نصوص اللعن» المؤرخة للقرن التاسع عشر قبل الميلاد المكتوبة سواء على أطباق فخارية أو دمى صلصالية (الشكل 23)، ورسائل تل العمارنة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد (Kitchen 2007).

وتتأتى أهمية نصوص اللعنات الفرعونية من أنها تأتي على أقدم ذكر لاسم المكان وبأشكال متعددة: «روشاريموم، وروشاليموم، ولوشاليموم، ولوشاريموم» (الشكل 24). ونلاحظ هنا أن الجذر «ش ل م» يتكرر في جميع هذه الأسماء، علمًا أن الاسم «روشاليموم» يبقى أقرب الأسماء للاسم «يروشاليموم». كما أنها تذكر أيضًا بعض أسماء حكام القدس، منهم «يقار- عمَو» ، ويعد كنيث كتشن، وهو مختص بدراسة اللغات السامية، أسماء هؤلاء الحكام سامية شمالية غربية، وبالتحديد أمورية، وهم من القبائل التي هاجرت من الجزيرة العربية (Kitchen 2007:29 - 31). وكان وليم أولبرايت (Albright 1928: 247 - 248) أول من تقدم بهذا الاقتراح، وأيده هانك فرانكن (Franken 1989: 20 - 21) .



شكل 23: دمية صلصالية مكتوب عليها واحد من نصوص اللعن التي تذكر الاسم «روشاليمم»

وهناك من الباحثين من يرى أن اسم القدس القديم هو «القدس» وليس «أورشليم»، وأنه لم تقم لها قائمة قبل القرن السابع قبل الميلاد (القبيسي 2017: 9 – 13)

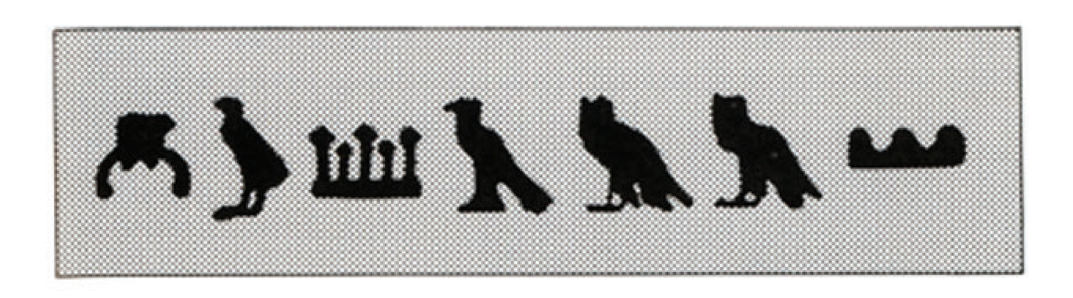
يذكر فرانكن، اعتمادًا على النصوص التوراتية (التكوين 10: 16)، أن سكان أورشاليم خلال العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 - 1200 قبل الميلاد) كانوا على الأغلب من اليبوسيين، وهم برأيه فرع من الكنعانيين (Franken 1989: 23). ويؤكد هذا القولَ المعلوماتُ الواردة في النصوص المصرية من نفس الفترة. إذ ورد في رسائل تل العمارنة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد اسم مدينة القدس «أورسالم» وحاكمها «عبدي- حبا/ خيبا» (Moran 1992). كذلك يرى المختصون أن اسم حاكم أورسالم (عبدي - خيبا) الوارد في رسائل تل العمارنة له أصول حورية،

حيث أن الكلمة حبًا/ خيبا تعني باللغة الحورية «ملك» (Lipinski 2007:4 – 5). وبرأينا ان وجود اسم حوري لا يعني بالضرورة أن سكان المدينة كانوا حوريين، بقدر ما يدل على وجود جالية حورية أو أشخاص حوريين سكنوا بين السكان الأصليين.

أثبتت التحريات الأثرية التي أُجريت في القدس أن البدايات الأولى للناس فيها كانت قبل أكثر من اربعماية ألف عام من السنوات، لكنَّ ورود اسم القدس في النصوص التاريخية المكتوبة وبأشكاله المختلفة كان أول ما ذُكر، وكما ذكرنا أعلاه، في نصوص اللعن المصرية المؤرخة للقرن التاسع عشر قبل الميلاد، حين ورد ذكر اسم مكان يُقرأ «(Je)rusalem»، وبقراءات متعددة، وعلى النحو الآتي:

Rusharimum; Rushalimum; Lushalimum; Lusharimun

وهنا يتكرر الجذر «ش ل م»، ومن المعلوم أنه لم يتم حتى الآن التعرف على مكان في فلسطين يدعى «Lushalimum» ، لكن الاسم «Rushalimum» يبقى قريبًا من الاسم «Urshalimum»، وهذا يعني القدس (Kitchen 2007: 29). ويرى بهجت القبيسي أن هذه الكلمة لا تقرأ «أورشاليموم» وإنما «أشامٌ» وتعني الشام ، أي أرض الشام (القبيسي 2017: 12).



شكل 24: الاسم «روشاليمم» كما ورد في نصوص اللعن المصرية
(Auld and Steiner 1996: Fig. 10)

وتذكر نصوص اللعنات المصرية أيضًا بعض أسماء حكام القدس منها «يقار- عمَو»، ويفسر العالم الانجليزي كنيث كتشن (K. Kitchen)، وهو متخصص بدراسة اللغات السامية، أن أسماء هؤلاء الحكام هي سامية شمالية غربية، وبالتحديد أمورية، وهم من القبائل التي هاجرت من الجزيرة العربية.

ويضيف بأن السبب وراء وجود أكثر من اسم حاكم لنفس المدينة، حكموا في نفس الوقت، هو أن المدن في كنعان خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد كان يحكمها حاكمان بوظيفتين مختلفتين، وعلى النحو الآتي: الأول، يحكم داخل المدينة وله الأمر والنهي بخصوص الأعمال الزراعية، أما الثاني؛ فله السلطة على القبائل الرعوية المنتشرة في المناطق المحيطة بالمدينة.

لكن الأمر اختلف في المرحلة اللاحقة، أي في العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 - 1200 قبل الميلاد) حين حكم المدينة حاكم واحد فقط (Kitchen 2007: 31). وتؤكد هذا القول المعلومات الواردة في النصوص المصرية من نفس الفترة. إذ ورد في رسائل تل العمارنة المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد (الشكل 25) اسم مدينة القدس «أورسالم» وحاكمها «عبدي- حبا/ خيبا» (Pritchard 1969; Moran 1992).

ولا بد لنا من التذكير بأن مجموعة من الباحثين يرون أن هناك تناقضًا بين ما تذكره المصادر التاريخية المكتوبة وطبيعة مدينة أورشاليموم وأهلها خلال العصور البرونزية المتوسطة والمتأخرة وبداية العصور الحديدية. فهم يرون أن المكان لم يخرج عن كونه قرية صغيرة، أو مزرعة لأحد الشيوخ في المنطقة، كان تابعًا لحاكم مصري مسؤول عن المنطقة. وعوضًا عن الخوض في نقاش لا يصل إلى نتيجة، برأينا، نورد على الصفحات الآتية أمثلة على بعض الآثار المكتشفة في القدس والمؤرخة للألف الثاني قبل الميلاد، علّها تكون فيصلًا في حكم الباحثين على هذا القول.

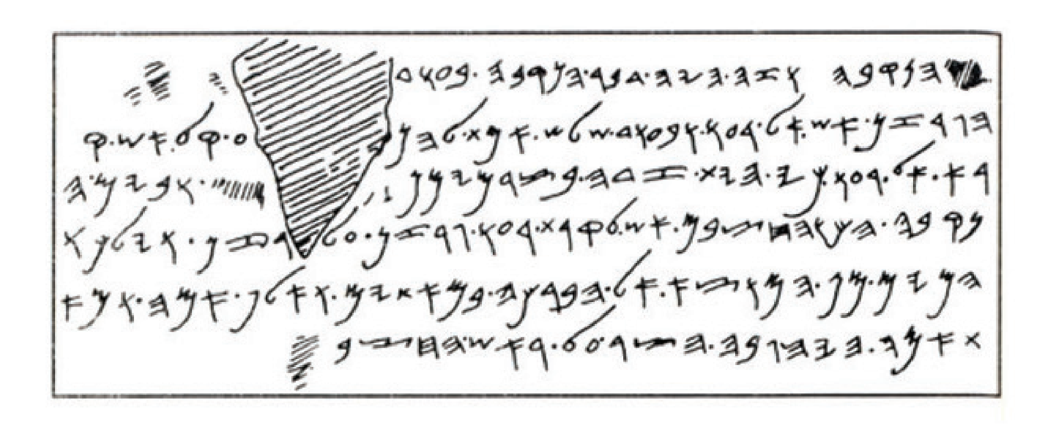


شكل 25: صورة عن رسالة حاكم القدس عبدو-حبَا
(عن Auld and Steiner 1996: Fig. 11)

وأما عن ذكر اسم القدس في المصادر التاريخية المصرية خلال الألف الأول قبل الميلاد، فلا بد من التنويه إلى أن السيطرة المصرية على بلاد الشام عامة انحسرت مع انتهاء الألف الثاني قبل الميلاد، وظهرت في المنطقة دول ذات عواصم متعددة، ومنها مملكة يهوذا وعاصمتها القدس. لكنَّ المصريين لم يتخلوا عن الرغبة في إعادة سيطرتهم على هذه البلاد، لذا جرَّد الفرعون المصري، الليبي الأصل، شيشنق

الأول، في حوالي 923 قبل الميلاد حملة عسكرية على فلسطين، وحقق انتصارات فيها، وسجل أسماء المدن التي غزاها على جدران معبد الكرنك، لكنه لم يذكر اسم مدينة القدس. ويفسر الباحثون التوراتيون ذلك بأن ملكها «رحبعام» استسلم للفرعون المصري، فدخلها دون حرب، لذا لم يُسجل اسمها بين المدن التي حاربها الفرعون. ويرى آخرون أن السبب في ذلك يعود إلى أن قائمة المدن التي حاربها شيشنق دُمرت في بعض المواضع، فضاعت ومحيت أسماء مدن أخرى كانت مدونة أصلًا في القائمة (Kitchen 2007:34).

ومن نافل القول أن المصادر الآشورية لم تذكر اسم مدينة أورشليم، وربما لأن الآشوريين لم يهتموا بمملكة يهوذا، وأن عاصمة مملكة يهوذا لم يكن لها دور فاعل في الأحداث المهمة في الشرق الأدنى القديم. وأفضل مثال على هذا أنه حين غزا الآشوريون مملكة السامرة «بيت عَمري»، والتي يسميها الدارسون «مملكة إسرائيل»، وحاصروا عاصمتها السامرة قبل أن يدمروها، لم تتعرض يهوذا وعاصمتها أورشليم لأي أذى، ربما لأن ملك يهوذا لم ينضم للحلف الذي تشكل من بعض ممالك المنطقة لمواجهة الزحف الآشوري عليها. بل نرى أن يهوذا خضعت لمملكة آشور فيما بعد ذلك ودفعت لها الجزية. ولم يدم الأمر طويلًا، فقد امتنع ملك يهوذا «حزقيا»، وبتشجيع من مصر، في مرحلة لاحقة عن دفع الجزية تحديًا لآشور، فجرَّد الآشوريون عددًا من الحملات العسكرية، أيام الملوك سرجون الثاني وسنحاريب، بلغت ذروتها في محاصرة القدس عام 701 قبل الميلاد. واضطر حزقيا إثرها إلى معاودة دفع الجزية وإرسال الهدايا لنينوى عاصمة آشور في ذلك الوقت. وعُثر في فلسطين على نصوص عائدة لهذه الفترة، ومن أهمها نقش سلوان (الشكل 26).



الشكل 26: نقش سلوان الذي عُثر عليه في نفق سلوان
(عن Auld and Steiner 1996: Fig. 19)

بعد وفاة الملك حزقيا تولى الحكم في يهوذا عدد من الملوك، وفي عام 612 قبل الميلاد سقطت نينوى عاصمة مملكة آشور بيد الكلدانيين (الكلديين)، فأصبحت يهوذا في حيرة من أمرها، هل تستمر في خضوعها لحكام بلاد الرافدين، أم تتحالف من جديد مع مصر؟ ويظهر أن ملكها (صدقيا) قرر التحالف مع مصر، مما أدى إلى تعرض بلاده لحملات عسكرية بابلية. لكنَّ النهاية، نهاية يهوذا، كانت في زمن الملك «يهوياقين» الذي تظاهر بالولاء في بداية حكمه للبابليين، إلا أنه تمرد عليهم بعد ذلك، مما دفع الملك الكلداني نبوخذنصر إلى دخول القدس في عام 586 قبل الميلاد وتدميرها وسبي الطبقة الحاكمة والكهّان والحرفيين من أهلها إلى بابل.

أما بخصوص الوثائق المكتوبة والآثار المؤرخة ابتداء من فترة السيطرة الفارسية على فلسطين في عام 539 قبل الميلاد وحتى العصر الهيلنستي المبكر (حوالي 200 قبل الميلاد) فجاءت قليلة جدًا، بل غير متوافرة في بعض الحالات. ولم يتعد الأمر في كثير من الحالات كتابة على قطعة نقد، أو كسرة من الفخار، أو طبعة ختم، وهكذا.

وبهذا نكون قد أنهينا الحديث عن القدس في المصادر والوثائق المكتوبة المعاصرة لها منذ بدايتها في الألف الرابع قبل الميلاد وحتى فتحها على يد المسلمين.

الفصـــــــل الخامس

5

القدس بين النصوص التوراتية والمخلفات الأثرية

الفصل الخامس

القدس بين النصوص التوراتية والمخلفات الأثرية

القصة التوراتية:

تبدأ القصة التوراتية بعد انحسار الطوفان وخروج الناس وعلى رأسهم النبي نوح (عليه السلام) من السفينة، حيث تذكر أسفار العهد القديم (سفر التكوين 9: 18) أن من بين من خرج من سفينة نوح كان سام وحام ويافث، وعلى النحو الآتي: «18 وكانَ بَنو نُوحِ الذينَ خرَجوا مِنَ السَّفينةِ سامًا وحامًا ويافَثَ، وحَامٌ هوَ أبو كنعانَ. 19 هؤلاءِ الثَّلاثةُ هُم بَنو نُوحِ وَمِنهُم اَنتَشَرَ كُلُّ سُكَّانِ الأرضِ».

لكن القصة التوراتية لا تكتمل إلاَ بارتحال أبرام من موطنه الأصلي في جنوبي العراق إلى حاران، ومن ثم إلى بلاد كنعان. حيث ترد القصة في سفر التكوين 12 على الشكل الآتي:

التكوين 12: وقالَ الرّبُّ لأبرامَ: «1 إرحَلْ مِنْ أرضِكَ وعَشيرَتِكَ وبَيتِ أبيكَ إلى الأرضِ التي أُريكَ، 2 فأجعَلَكَ أُمَّةً عظيمةً وأُبارِكَكَ وأُعَظِّمَ اَسمَكَ وتكونَ بَركَةً، 3 وأُبارِكُ مُبارِكيكَ وأَلعنُ لاعنيكَ، ويتَبارَكُ بِكَ جميعُ عَشائِرِ الأرضِ». 4 فرَحلَ أبرامُ، كما قالَ لَه الرّبُّ، وذهَبَ معَهُ لُوطٌ. وكانَ أبرامُ اَبنَ خمْسٍ وسَبْعينَ سنَةً لمَّا خرَج مِنْ حارانَ. 5 وأخذَ أبرامُ سارايَ اَمْرأتَهُ ولُوطًا اَبنَ أخيهِ، وكُلَ ما كانَ يَمتلكُهُ، هوَ ولُوطَ، والعبيدُ الذينَ حَصَلا علَيهِم في حارانَ. وخرَجوا جميعًا قاصِدينَ أرضَ كنعانَ.

فلمَّا وصلوا إلى أرض كنعانَ 6 اجتازَ أبرامُ في الأرضِ إلى بَلّوطَةِ مُورةَ في شَكيمَ، عِندَما كانَ الكنعانيُّونَ في الأرضِ. 7 وتَراءَى الرّبُّ لأبرامَ وقالَ: «لِنَسلِكَ أهَبُ هذِهِ الأرضَ».

وبعد أن وصل أبرام بلاد كنعان وأقام في حبرون (الخليل) لبعض الوقت شدّ الرحال إلى مصر، ثم عاد بعدها إلى كنعان بعد أن ذهب بزوجته (هاجر) الجارية المصرية وابنها اسماعيل إلى الجزيرة العربية، وزوجته (سارة) وبقية نسله إلى أرض كنعان.

ويرى بعض الباحثين من أمثال (Van Seter: 1975) أن قصة أبرام (إبراهيم) لم تكن مروية متواترة شفويًا من زمنه، في حوالي 1900 قبل الميلاد، إلى محرري التوراة، ولا هي في الأصل من المدونات المكتوبة، بل هي قصة مؤلفة خلال فترة السبي البابلي وما بعده. كما أضاف (فان سيتر) أن ما ورد في قصة إبراهيم من حكايات وأسماء وعلاقات يعكس فترة تدوينها في منتصف الألف الأول قبل الميلاد ويؤيد ذلك لطفي السومي (2018: 17–19).

ولا نريد في هذا المقام أن نعرج على قصة يوسف وكيفية ذهابه إلى مصر، لأن هذا الأمر ليس هدفـًا لهذه الدراسة، لكننا ننوه باهتمام كاتب الأسفار التوراتية بسرد قصة خروج بني إسرائيل من مصر بشكل مبالغ فيه. ونود أن ننبه هنا بأن النصوص التاريخية المكتشفة حتى الآن في بلاد الشرق الأدنى القديم لم تأت على قصة خروج بني إسرائيل من مصر على الإطلاق. وأن جميع المعلومات الواردة عنها، جاءت في الكتب السماوية حصرًا. إذ يرد في الأسفار التوراتية وصف لقصة الخروج من مصر لأرض كنعان، ووعد الرب لهم بإعطائهم أرض فلسطين. إذ يرد في سفر العدد 33 ما يأتي:

50 وكلَّمَ الرّبُّ موسى في سَهلِ موآبَ عَبرَ الأُردُنِّ مِنْ أريحا فقالَ: 51 «قُلْ لبَني إسرائيلَ: ستَعبُرونَ الأُردُنَّ إلى أرضِ كنعانَ، 52 فتَطرُدونَ جميعَ سُكَّانِها مِنْ أمامِكُم، وتُبيدونَ جميعَ مَنقوشاتِهِم وأصنامِهِم المسبوكَةِ، وتَهدِمونَ مَعابدَ آلهَتِهِمِ المُرتَفِعةِ. 53 وتَملِكونَ الأرضَ وتُقيمونَ بها لأنِّي أعطَيتُها لكُم ميراثًا. 54 تَرِثونَ

الأرضَ بالقُرعَةِ على حسَبِ عَشائرِكُم. الكَثيرُ تُكثِّرونَ لَه نصيبَهُ، والقليلُ تُقَلِّلونَ لَه، وما أصابَ أحدَكُم بالقُرعَةِ يكونُ لَه ميراثًا على حسَبِ أسباطِ آبائِكُم. 55 وإنْ لم تَطرُدوا أهلَ الأرضِ مِنْ أمامِكُم، يَكونوا مَنْ تُبْقونَهُ مِنهُم كمِخرَزٍ في عُيونِكُم وكشوكةٍ في خواصِرِكُم، يُضايِقونكُم في الأرضِ التي أنتُم مُقيمونَ بها. 56 فأفعَلُ بِكُم كما نَويتُ أنْ أفعَلَ بِهِم».

وتضيف أسفار العهد القديم أنه بعد دخول العبرانيين أرض فلسطين، قسموا البلاد بين قبائلهم الاثني عشر، لكنهم كانوا على صراع دائم مع أهلها المحليين. من هنا اجتمع شيوخ القبائل وقرروا توحيد قبائلهم في دولة واحدة تحت إمرة الملك شاؤول الذي قُتل في واحدة من هذه المعارك. تولى الحكم من بعد شاؤول الملك داود، ومعه تبدأ قصة مدينة القدس التوراتية.

يذكر العهد القديم أن الملك داود، والذي حكم مملكة إسرائيل في الفترة بين حوالي عام 1004 وحتى 965 قبل الميلاد احتل مدينة أورشليم من اليبوسيين واتخذها عاصمة لمملكته. وهناك روايتان توراتيتان حول الموضوع، الأولى وردت في سفر صموئيل الثاني 5: 6-10 على النحو الآتي:

6 وسارَ المَلِكُ ورِجالُهُ إلى أورُشليمَ لِمُحاربَةِ اليَبوسيِّينَ سُكّانِها، فقالَ لَه هؤلاءِ وهُم يَظنُّونَ أنَّه لا يَقدِرُ أنْ يَدخلَها: «لا يُمكِنُكَ أنْ تَدخلَ إلى هُنا، فحتى العميانُ والعُرْج يصدُّونكَ». 7 لكنَّ داوُدَ احتَلَّ حِصنَ صِهيونَ وهوَ مدينةُ داوُدَ 8 وقالَ في ذلِكَ اليومِ لرجالِهِ: «مَنْ أرادَ أنْ يُهاجمَ يَبوسيًّا، فليَدخلْ عبرَ قناةِ المياهِ إلى حيثُ أولئِكَ العُرْج والعُميانُ الذينَ تَعافُهُم نفْسي». فلذلِكَ يُقالُ: «لا يدخلُ بَيتَ الرّبِّ أعمى ولا أعرَج». 9 وأقامَ داوُدُ في الحِصنِ وسَمَّاهُ مدينةَ داوُدَ، وبَنى حولَه سُورًا مِنَ القَلعةِ إلى الدَّاخلِ. 10 وكانَ داوُدُ يَزدادُ عظمَةً، والرّبُّ القديرُ معَهُ.

والثانية في سفر أخبار الأيام الأول 11: 4-9 ، كما يأتي:

4 وسارَ داوُدُ ورِجالُه إلى أورُشليمَ أي يَبُوسَ حَيثُ كانَ اليَبوسيُّونَ، 5 فقالوا لَه: «لا يُمكِنُكَ أنْ تَدخلَ إلى هُنا». فاَحتَلَ داوُدُ حِصْنَ صِهيونَ الذي سُمِّيَ مدينةَ داوُدَ فيما بَعدُ. 6 وقالَ في ذلِكَ اليومِ: «كُلُّ مَنْ يَقتُلُ يَبُوسيًا أوَّلاً يكونُ رئيسًا وقائِدًا». فصعِدَ أوَّلاً يُوآبُ اَبنُ صَرُويَّةَ وقتَلَ يَبوسيًا فصارَ رئيسًا. 7 وأقامَ داوُدُ في الحِصْنِ وسَمَّاهُ مدينةَ داوُدَ. 8 وبَنى المدينةَ مِنْ حَولِهِ، مِنْ مَلُّو فما حَولَها، وجدَّدَ يُوآبُ سائِرَ المدينةِ. 9 وكانَ داوُدُ يزدادُ عظَمَةً، والرَّبُّ القديرُ معَهُ.

ولاحظ الدارسون وجود اختلاف بين الروايتين المذكورتين أعلاه، إذ يقول محمود أبوطالب (2006 أ او ب) أن كاتب رواية سفر أخبار الأيام الأول حذف معلومات وردت في سفر صموئيل الثاني، وهي: «العرج والعميان الذين تعافهم نفسي» وكلمة «صنّور» والتي تعني قناة المياه. ويظهر من المعلومات الواردة في رواية أخبار الأيام أن كاتبها حاول إضفاء صفة البطولة على الملك داود بعد أن عدَّل في رواية صموئيل الثاني.

إذن ذكرت لنا الأسفار التوراتية أن مدينة يبوس كانت محاطة بأسوار، وأنه كان هناك حصن أو قلعة «ميلو» مما اضطر داود أن يدخلها من خلال قنوات المياه (صنّور). أما بخصوص الحصن، فيذكر سفر صموئيل الثاني 5: 7 الرواية على النحو الآتي: «7 لكنَّ داوُدَ اَحتَلَ حِصنَ صِهيونَ وهوَ مدينةُ داوُدَ». أما سفر صموئيل الثاني (5: 8) فيصف عملية الدخول أنها تمت بشكل بطولي، حيث تسلل أحدهم أولًا، وهو يؤاب بن صرّوية، ثم تبعه آخرون إلى داخل المدينة عن طريق قنوات المياه. لكنَّ كاتب سفر أخبار الأيام الأول (11: 4-9) لم يأت على ذكر الدخول إلى المدينة من خلال الأنفاق. وفي هذا اختلاف في كيفية احتلال المدينة حسب نصوص العهد القديم.

ويظهر أن كاتب سفر أخبار الأيام أراد أيضًا رسم صورة البطل للملك داود، فبالإضافة للقلعة «ميلو»، جعل القارئ يستنتج أن داود بنى سورًا حول المدينة. ويجزم بعض الباحثين أن أورشاليم لم تكن محاطة بسور على الإطلاق، سواء أيام اليبوسيين أو خلال حكم داود لها (أبوطالب 2006أ: 206)، بينما يرى آخرون (Simmons 1952: 62) أن التلة الجنوبية الشرقية كانت محاطة بسور في الفترة اليبوسية.

وأطلقت التوراة في أكثر من مكان على مدينة «يروشلم» أورشليم الكنعانية التي احتلها داود، اسم «يبوس» (يشوع 15: 8)، على النحو الآتي:

8 وعِندَ الحَدِّ إلى وادي ابنِ هِنُّومَ إلى جانبِ يَبوسَ جنوبًا، وهيَ أورُشليمُ، ويصعَدُ إلى رأسِ الجبَلِ الذي هوَ تُجاهَ وادي هِنُّومَ غربًا في طَرَفِ وادي الرَّفائيم شمالًا.

ويذكر محمود أبوطالب (2006أ: 200) وأولرش هيوبنر (Hübner 2007) أن اسم المكان «يبوس» ما هو إلا اشتقاق متأخر من اسم العلم «اليبوسيين» الوارد في التوراة، ابتدعه محررو الأسفار التوراتية لظنهم أن الاسم «يروشاليم» اسم مقدس جاء به العبرانيون. علمًا أننا ذكرنا أن اسم «يروشاليم» مذكور في نصوص اللعن المصرية من القرن التاسع عشر قبل الميلاد (Wilson 1969: 328)، وفي رسائل تل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (Albright 1969: 487).

كذلك نود الإشارة إلى إن الاسمين «يبوس» و«اليبوسيون» لم يردا خارج النصوص التوراتية، ويقترح هوبنر (Hübner 2007) اطلاق تسمية «المقدسيين» عوضًا عن الاسم اليبوسيين الوارد في التوراة (مثلاً يرد اسم «اليبوسيين» في آخر قائمة الشعوب التي يذكرها سفر الخروج 3: 8):

8 فنَزَلْتُ لأُنقِذَهُم مِنْ أيدي المِصْرِيِّينَ وأُخرِجهُم مِنْ تِلكَ الأرضِ إلى أرضٍ

رَحْبةٍ تَدرُّ لَبَنًا وعسَلًا، إلى موطِنِ الكنعانيِّينَ والحِثِّيِّينَ والأمُوريِّينَ والفَرِزِّيِّينَ والحِوِّيِّينَ واليَبوسيِّينَ.

ونوافق أبو طالب (2006أ: 201) الرأي بأنه لا نستطيع حتى الآن تحديد الأصول الإثنية لليبوسيين بسبب نقص المعلومات الواردة عنهم، إذ إن المعلومات عنهم لم تخرج عن نطاق الاسمين: «اليبوسيون» و «أرونا» الواردَين في العهد القديم. وإن كان بعض الباحثين العرب يرون أن أصل اليبوسيين كنعاني، وأنهم هاجروا كغيرهم من الشعوب السامية من جزيرة العرب إلى بلاد الشام (العارف 2005: 37 – 42). بينما يرى آخرون، مثل مندنهول، أن أصل اللفظة «يبوسي» أموري (Mendenhall 1973: 145) ، بينما يذكر بنيامين مازار (Mazar 1975: 4) أن الاسم «أرونا» حثّي الأصل.

لكن ماذا حلّ بسكان أورشاليم «يبوس» الأصليين بعد احتلالها من قبل داود وجيشه، إن كان قد احتلها في الأساس؟ تؤكد التوراة في أكثر من موضع أن الإسرائيليين لم يتمكنوا من طردهم، وأنهم أقاموا في المدينة مع قبيلة بنيامين اليهودية. ومن الأمثلة على هذه النصوص التوراتية، نورد ما يأتي:

«وأمَّا اليَبوسيُّونَ سُكَّانُ أورُشليمَ، فلم يقدِرْ بَنو يَهوذا على طَردِهِم. فأقامَ اليَبوسيُّونَ معَ بَني يَهوذا في أورُشليمَ إلى هذا اليومِ» (سفر يشوع 15: 63).

«أمَّا اليَبوسيُّونَ المُقيمونَ في أورُشليمَ فلم يَطرُدْهُم بَنو بنيامينَ، فأقاموا معَ بَني بنيامينَ في أورُشليمَ إلى هذا اليومِ» (سفر القضاة 1: 21).

وبعد الانتهاء من وصف احتلال داود لمدينة يبوس، تتابع الأسفار التوراتية وصف ما قام به هو وابنه سليمان من أعمال إنشائية فيها، مثل بناء داود لقصر أعانه على إتمامه ملك مدينة صور الفينيقية. إذ يذكر سفر صموئيل الثاني 5:11 المعلومة

علـى النحـو الآتي:

11 «وأرسَلَ حِيرامُ مَلِكُ صورَ وفدًا إلى داوُد وأخشابَ أرزٍ ونَجارينَ ونحَّاتينَ، فبَنَوا لَه قصرًا».

بينما ترد قصة إرسال حيرام ملك صور الفينيقية المساعدات الفنية واللوجستية للملك داود في سفر أخبار الأيام الأول 14:1 كما يأتي:

«وأرسلَ حيرامُ مَلِكُ صورَ وَفدًا إلى داوُدَ وأخشابَ أرزٍ ونَجارينَ ونَحَّاتينَ، فبَنَوا قصرَ داوُدَ».

وبالإضافة لبناء المنشآت المدنية في أورشالم، أقام الملك داود مذبحًا فيها، بناه فوق أرض بيدر اشتراه من صاحبه اليبوسي أرونا (سفر صموئيل الثاني 18-25):

18 فجاءَ جادُ ذلِكَ اليومَ إلى داوُدَ وقالَ لَه: «إصعَدْ إلى بَيدَرِ أرونا اليَبوسيِّ، وأقِمْ هُناكَ مذبَحًا للرّبِّ». 19 فصعِدَ داوُدُ كما أمرَهُ الرّبُّ على لسانِ جادَ. 20 ونظَرَ أرونا فرأى المَلِكَ وحاشيتَهُ عابرينَ إليهِ، فخرَج وانحَنى لَه حتى الأرضِ 21 وسألَ: «لماذا جئتَني يا سيِّدي المَلِكُ؟» فأجابَهُ داوُدُ: «لأشتَريَ مِنكَ البَيدَرَ وفيه أُقيمُ مذبَحًا للرّبِّ، فتكُفَ الضَّربَةُ عنِ الشَّعبِ». 22 فقالَ لَه أرونا: «ليأخذْ سيِّدي المَلِكُ ويُصعِدْ للرّبِّ مِنَ المُحرَقاتِ ما يَراهُ حسَنًا. ها بقَرٌ للمُحرقَةِ، والنَّوارِج وأنيارُ البقَرِ تكونُ حطَبًا». 23 هذا كُلُّه قدَّمَهُ أرونا للمَلِكِ وقالَ لَه: «الرّبُّ إلهُكَ يَرضى عَنكَ». 24 فأجابَهُ المَلِكُ: «كلاَ، بل أدفَعُ لكَ الثَّمنَ. فأنا لا أُصعِدُ للرّبِّ إلهي مُحرَقاتٍ مجانيةً». فاَشتَرى داوُدُ البَيدَرَ والبقَرَ بخمسينَ مِثقالاً مِنَ الفِضَّةِ، 25 وبَنى هُناكَ مذبَحًا للرّبِّ، وأصعَدَ مُحرقاتٍ وذبائِحَ سلامةٍ، فأشفَقَ الرّبُّ على الشَّعبِ، وكفَّتِ الضَّربَةُ عَنْ إسرائيلَ.

ويؤكد هذا الخبر سفر أخبار الأيام الأول 21:

18 فأمَرَ ملاكُ الرّبِّ جادَ النَّبيَ أنْ يأمُرَ داوُدَ بالصُّعودِ إلى بَيدَرِ أرنانَ اليَبوسيِّ ويُقيمَ مذبَحًا للرّبِّ. 19 فصَعِدَ داوُدُ كما أمَرَهُ الرّبُّ على لِسانِ جادَ. 20 والتَفَتَ أرنانُ وهوَ يَدوسُ الحِنطَةَ على البَيدَرِ فرأى الملاكَ فاَختبَأ هوَ وبَنوهُ الأربعَةُ الذينَ معَهُ. 21 وجاءَ داوُدُ إلى أرنانَ، فلمَّا رآهُ أرنانُ خرَج مِنَ البَيدَرِ واَنْحَنى لَه إلى الأرضِ. 22 فقالَ لَه داوُدُ: «أعطِني البَيدَرَ بالثَّمنِ الذي يَستَحِقُّه حتى أبنيَ فيهِ مذبَحًا لِلرّبِّ، فتكُفَ الضَّربةُ عَنِ الشَّعبِ». 23 فقالَ لَه أرنانُ: «خذْهُ يا سيِّدي المَلِكُ واَعمَلْ ما تَراهُ حسَنًا. ها أنا أُعطي البقَرَ مُحرَقاتٍ والنَّوارِج حطَبًا والحِنطَةَ تقدِمةً. هذا كُلُّهُ أُعطيهِ». 24 فقالَ لَه المَلِكُ داوُدُ: «كلاَ، بل أشتَري مِنكَ البَيدَرَ بِثَمنٍ كامِلٍ. فأنا لا آخذُ مالَكَ فَأُقَدِّمُ للرّبِّ مُحرَقَةً مَجانيَّةً». 25 فدَفَعَ داوُدُ إلى أرنانَ ثمَنَ البَيدَرِ سِتَ مئَةِ قِطعَةٍ مِنَ الذَّهبِ. 26 وبَنى فيهِ مذبَحًا للرّبِّ، وقدَّمَ مُحرَقاتٍ وذَبائِحَ سلامةٍ، ودَعا إلى الرّبِّ فاَستجابَ لَه بإنزالِ نارٍ مِنَ السَّماءِ على مذبَحِ المُحرَقَةِ. 27وأمرَ الرّبُّ الملاكَ فرَدَ سيفَهُ إلى غِمدِهِ.

يرى محمود أبوطالب (2006أ: 198 – 199) أن هاتين الروايتين تمثلان جزءًا من سيرة حياة الملك داود. ويضيف أن سفر صموئيل الثاني هو المصدر الذي استقى منه كاتب سفر أخبار الأيام الأول معلوماته. وعلى أية حال، فإننا نرى ما ورد من معلومات في هذين السفرين حول القدس، كما رأى غيرنا من قبلنا، يدل على وجود فروق في المعلومات فيهما، خاصة في اسم الشخص اليبوسي الذي اشترى منه الملك داود البيدر (أرونا وأرنان). لكن من الواضح أن النص التوراتي فيهما يؤكد أن داود وأحفاده هم الملوك الشرعيون لبني اسرائيل، وأن القدس هي المكان الوحيد لعبادة الإله «يهوه». كما أن القارئ لهاتين الروايتين يستنتج أن هدف الكاتب من كتابتهما كان لأغراض عقائدية أكثر منها تاريخية. كما نود أن نلفت انتباه القارئ أن ثمن البيدر

دُفع في الحالة الأولى بخمسينَ مِثقالًا مِنَ الفِضَّةِ، وفي الحالة الثانية سِتَمئَةِ قِطعَةٍ مِنَ الذَّهبِ، علمًا أن النقد لم يكن مستخدمًا في ذلك الوقت.

آثار العصور البرونزية والحديدية المكتشفة في القدس:

تحدثنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب حول بدايات الاستقرار في القدس الحالية وما حولها، وشمل الحديث دراسة مسهبة للعصور البرونزية والحديدية. وبما أنه لا يجوز أن نكرر ما ذكرناه أعلاه، فإننا قررنا أن نقدم دراسة موجزة حول بلدة سلوان والتي يظن التوراتيين أنها كانت جزءاً من إرث مملكة داود وسليمان.

تصمت النصوص المكتوبة خلال الفترة بين حوالي 1200 و1000 قبل الميلاد عن الحديث عن القدس، وحتى الآثار المكتشفة فيها، هذا إن وجدت، لا تعطي الانطباع بوجود مدينة كبيرة. وعلى أية حال، فإن الحديث حول القدس في هذه الفترة لا يزال غير واضح وبحاجة لمزيد من البحث. لكن القصة التوراتية تذكر أنه وبعد دخول الإسرائيليين لفلسطين توزعت القبائل الأرض بينها. وبعد مرور فترة من الزمن اجتمعت هذه القبائل وقررت توحيد نفسها بقيادة شاؤول، ووقعت حروب بين أهل البلاد والإسرائيليين انتهت بمقتل شاؤول.

بعد وفاة الملك شاؤول خلفه ابنه إيشبعل، وكان ضعيفًا، مما أعطى المجال للملك داود بالتحرك نحو الحكم بعد أن كان على رأس قُطَّاع الطرق، والذي ذهب إلى حبرون «مدينة الخليل الحالية» وبويع على الملك من قبل وفد من رجال يهوذا. ويرد الخبر في سفر صموئيل الثاني 2: 4 على النحو الآتي: «3 واَصطَحَب داوُدُ الرِّجالَ الذينَ معَهُ، كُلَ واحدٍ وعائلَتَهُ، فأقاموا في جوارِ حَبرونَ. 4 وجاءَ رِجالُ يَهوذا ومسَحوا هُنالِكَ داوُدَ مَلِكًا على بيتِ يَهوذا.»

وبعد مرور عدّة سنوات من الحروب بين القبائل الإسرائيلية الشمالية ويهوذا، قدم وفد منها وبايع داود ملكًا على كامل إسرائيل. ويقترح بعض الباحثين أنه نظرًا لموقع أورشاليم المتوسط بين إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب، أنها لم تتبع في أي من الأيام لأي منهما، بعد أن اتخذها داود عاصمة للمملكة الموحدة.

وحتى نعطي الأمر حقه، وحيث أن الإسرائيليين يعتقدون أن منطقة الضهور/ الظهورة المطلة على وادي سلوان، وبلدة سلوان يمثلان مدينة القرن العاشر قبل الميلاد (أيام حكم الملوك داود وسليمان) فقد قررنا أن ندرج في هذا الكتاب بحثًا لنا كان قد نُشر في عدد خاص عن القدس من مجلة جامعة الكويت بعنوان «سلوان بين التوراة والآثار» (كفافي 2012)، ويقدم معلومات حول البلدة والمطامع الإسرائيلية فيها، وهي على النحو أدناه.

سلوان: بين التوراة والآثار

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الأضواء على بقعة مهمة، مجاورة للحرم الشريف في القدس، وهي بلدة سلوان، والتي يسميها الباحثون التوراتيون والإسرائيليون مدينة داود. إذ تعرضت هذه البلدة خلال السنوات الأخيرة إلى التدمير المنظم لبنيتها العربية التحتية من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي، بهدف تحويلها لمتنزه تاريخي توراتي، يؤكد أنها كانت المكان الذي بنى فيه داود عاصمته. وبناء عليه، وجدنا أنه لا مناص من دراسة نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في هذه المنطقة للاستدلال على تاريخها القديم من خلال المعثورات الأثرية، لا من خلال النصوص التوراتية.

يذكر الآثاري الإسرائيلي رفائيل غرينبرغ (R. Greenberg) في مقالة نشرت له في شهر شباط من عام 2009 (Greenberg 2009)، أن الدراسات الأثرية في بلدة داود «سلوان» سُلِّمت في السنوات الأخيرة لمنظمات إسرائيلية غير رسمية، ويعني بذلك

المستوطنين. ويؤكد هذا القول التصريحات التي يدلي بها المسؤولون الإسرائيليون بين الفينة والأخرى، ونقتبس هنا بعضها:

نشرت وكالة الأنباء (أ.ف.ب) بتاريخ 30/ 5/ 2009م ما صرح به الحاخام «ياكوف سافير» الذي يدير مدرسة دينية في مستوطنة صغيرة في الضفة الغربية: «إن الانتقادات الدولية للاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية سخيفة؛ لأن الله هو الذي وعد اليهود بهذه الأرض، وعلى العرب أن يرحلوا إلى مكان آخر». وهذا الكلام يقول بصريح العبارة إن ما احتُل عام 1967م هو أرض يهودية.

كذلك نشر المحلل الإسرائيلي «شالوم يروشالمي» في جريدة معاريف الإسرائيلية بتاريخ 24/ 7/ 2009 م ما يأتي: «إن اللحظة الراهنة هي الأكثر ملائمة لدق أوتاد الاستيطان في كل مكان، وهي تجري في القدس من بيت لبيت...». إن المصطلحات الأساسية المستخدمة بهذا الصدد من قبل «أليشع بيلغ» و «ماني دان كوهين» و «دافيد باري» وهم الشخصيات الأولى المسؤولة عن النشاط اليهودي الاستيطاني في شرق القدس، هي، «القطع» و «فرض الحقائق على الأرض التي تحول دون تقسيم المدينة» و «أحياء يهودية تقام في قلب الأحياء العربية لقطع التواصل السكاني العربي في المدينة» و «منازل تشرى في قلب سلوان من أجل منع وجود تواصل عمراني عربي داخل الحي....».

إذن نرى أن المخطط الاسرائيلي لم يركز على مدينة القدس داخل السور فقط، وإنما أيضًا على الأحياء والقرى المرتبطة بالمدينة، كغيرها من باقي مناطق فلسطين. والآن جاء دور سلوان، والتي هي مدار حديثنا في هذه المحاضرة.

الموقع:

بُنيت بلدة سلوان على جانبي وادي سلوان/ ستنا مريم (Kidron)، وتحتل الأراضي القريبة لسور القدس من جهته الجنوبية، ويفصلها عنها وادي حلوة، وضُمت

إلـى مدينـة القـدس في عـام 1961م ، وأصبحـت تُعـد حيًـا مـن أحيائهـا (الأشـكال 27 – 29). وعلى مقربة من البلدة تتوزع مجموعة من المصادر المائية، مثـل «عيـون سـلوان»، و «عيـن أم الـدرج»، و «بركـة سـلوان»، و «البركـة التحتانيـة»، و»بئـر أيـوب»، و «عيـن اللـوزة». وربمـا كانـت هـذه هـي السـبب الـذي دفـع المجموعـات البشـرية للاسـتقرار فيهـا منـذ الألـف الرابـع قبـل الميـلاد. وتشـكل في الوقـت الحاضـر حاضنـة المسـجد الأقصـى. والبلـدة غنيـة جدًا بمواقعهـا الأثريـة والتاريخيـة، والتـي تعـد شـاهد عيـان علـى أصولهـا العربيـة.

بعـد سـقوط الضفـة الغربيـة بأيـدي الاحتـلال الإسـرائيلي بعـد حـرب عـام 1967م، وضعـت سـلطات الاحتـلال نصـب عينيهـا البحـث في أرض سـلوان مـن خـلال إجـراء حفريـات أثريـة، سـعيًا منهـا في العثـور علـى بقايـا مدينـة داود في هـذا المـكان. كمـا أن إسـرائيل بـدأت بتشـريد سـكانها، أمـلًا في إحـلال مسـتوطنين يهـود بـدلًا عنهـم، وتهويدهـا، وحفـرت عـددًا مـن الأنفـاق التـي تتجـه صـوب المسـجد الأقصـى.



36a. THE VILLAGE OF SILOAM

شكل 27: سلوان 1865 (عن الإنترنت)



شكل 28: سلوان بداية القرن العشرين (1925؟) (عن الإنترنت)



شكل 29: القدس بين الأمس واليوم؛ سلوان 2020 (تصوير مروان أبو خلف)

النشاط الاستيطاني الإسرائيلي في سلوان:

كُتب الكثير عن آثار مدينة القدس وأجريت فيها الكثير من الحفريات والمسوحات الأثرية من قبل الإسرائيليين وغيرهم، هدفت جميعها إلى البحث عن آثار مملكة اسرائيل التوراتية. ونتج عن هذه الأعمال الميدانية مكتشفات أثرية كثيرة

حاول مكتشفوها وضعها ضمن إطار زمني، وتاريخي، ونسبتها إلى عرق معين من البشر. وللأسف نشط هؤلاء الباحثون في تفسير هذه اللقى الأثرية، وحاولوا ربطها مع الحدث التوراتي لنسج تاريخ لدولة إسرائيل الصهيونية المعاصرة (Abu el-Haj 2001; Feige 2007).

مر أكثر من سبعين عامًا على سقوط غربي القدس الغربية، وأكثر من خمسين عامًا على شرقيها، تغيرت خلالها المعطيات الأثرية والتاريخية، وحتى القانونية الدولية، كثيرًا؛ إذ أجرت إسرائيل عددًا كبيرًا من الحفريات الأثرية داخل المدينة وفي محيطها (Greenberg and Keinan 2007)، خاصة في المنطقة القريبة من الحرم الشريف، مما أدى إلى تغيير ملامح المنطقة كليًا عمَا كانت عليه عند الاحتلال عام 1967م ، وإلى تصدع الجدران القريبة من منطقة الحفريات. وبعد أن بنى الاسرائيليون العديد من المستوطنات في القدس والمناطق القريبة منها بهدف تغيير الواقع الديموغرافي في المدينة، أصبح يطلق على القدس اسم «القدس الكبرى». وتضم القدس الكبرى حاليًا، وحسب الإحصائيات الإسرائيلية، حوالي 730.000 ألف شخص يشكل الفلسطينيون منهم ما نسبته 30٪ (Greenberg 2009: 36). إضافة للتنقيبات الأثرية وتفسيراتها التي تصب لصالح المنهج التوراتي، والنشاط الاستيطاني المكثف في القدس، انتقل الهدف بشكل مرسوم ومخطط إلى بلدة سلوان.

كما نعلم، فإن إسرائيل تتخذ لنفسها الحق في سلب البلاد من أهلها وفي تأكيد حقها التاريخي المزعوم في فلسطين من خلال ربطها بين النصوص التوراتية والمكتشفات الأثرية. إن ما تقوم به إسرائيل من أعمال ميدانية أثرية مخالف لجميع اللوائح الدولية، وإنها يجب أن تتوقف، لأنها تنقب في أراض محتلة. إننا نعتقد أنه لا ينبغي استخدام الدراسات الأثرية في الصراعات السياسية، بل على العكس يجب أن تكون عامل تلاق بين الشعوب.

إن الموقع الجغرافي لسلوان قريب جدًا من منطقة الحرم القدسي الشريف (الشكل 30)، وهذا ما صبغ عليها صبغة تاريخية. ومن هنا، نرى أن جميع الدراسات الإسرائيلية والتوراتية الغربية تربط بين سلوان والمكان الذي اتخذه الملك داود عاصمة له (Gonen 2003). ونتيجة لهذا، قررت إسرائيل مؤخرًا تحويل حي البستان ببلدة سلوان إلى متنزه تاريخي، يرصد الزائرون فيه، حسب زعمها، الأحداث التي جرت في عهد الملكين داود وسليمان. ولتنفيذ هذا المخطط سلمته لجماعات المستوطنين (Greenberg 2009: 36) الذين باشروا بالضغط على أهالي البلدة لإخراجهم عنوة من بلدهم. وكانوا في الأصل قد بدأوا بإجراء حفريات أثرية في مناطق متعددة من سلوان.



شكل 30: صورة توضح اتصال بلدة سلوان بالحرم القدسي

إن تسليم أمر الدراسات الأثرية وتطوير بلدة سلوان للمستوطنين يعني الربط بين الأيديولوجيا الصهيونية وبين الدين لتحقيق أهدافهم على أرض الواقع. أي أن الحاضر الصهيوني هو امتداد للماضي اليهودي. ولتحقيق هذا المأرب، لا بد من إخراج سكان سلوان العرب منها. وحسب إحصائية إسرائيلية فإن العرب يشكلون الآن ما نسبته ٪90 من سكان سلوان الذين يتراوح عددهم بين 40.000 - 50.000 ألف نسمة* (Greenberg 2009: 36).

إن الجمع بين الأيديولوجيا الصهيونية، والتاريخ، والدين، والسياسة، لتنفيذ مخططات إسرائيل في سلوان كغيرها من مناطق فلسطين الأخرى، لا يساعد، بل يهدد، كل تفاهم مستقبلي بين العرب والإسرائيليين. وعلى هذا الأساس، فإننا ندعو إسرائيل لإعادة النظر في ما تخطط له من إقامة متنزه تاريخي في سلوان، يقوم على طرد وتهجير أهلها العرب منها.

وحتى يكون حديثنا مصبوغًا بصبغة علمية، نقدم أدناه دراسة لبعض ما ذكرته الأسفار التوراتية فيما يتعلق بموضوع بحثنا، ولنتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في سلوان، ولو أنها تمت في معظمها، إن لم يكن جميعها، على أيدي الإسرائيليين أو المتعاطفين معهم. هادفين من وراء هذا العرض إلى مقارنة النصوص التوراتية بنتائج الحفريات الأثرية، للوصول إلى المعرفة المجردة عن الأهواء.

* هذه الإحصائية منشورة في الأصل بكتاب باللغة العبرية هو:

Ramon, A. (ed.) 2007; The Historic Basin – Problems and Possible Solutions. Jerusalem: Jerusalem Institute for Israel Studies (Hebrew).

الآثار في سلوان:

بُنيت مدينة القدس، مدينة الأديان السماوية الثلاثة، فوق منطقة جبلية مرتفعة، أُقيمت فوقها أماكن العبادة، ربما حتى قبل الديانات السماوية. فأهل المنطقة، الكنعانيون خاصة، كانوا يبنون معابدهم فوق المناطق المرتفعة. من هنا يمكن القول إن المدينة والجبل المقام فوقهما أماكن العبادة تكون في الأساس أماكن مقدسة لدى سكان المنطقة منذ العصور القديمة.

إن محاولة بناء القصة التاريخية للمدينة، ومن ضمنها سلوان، يجب أن تعتمد على النصوص التاريخية والمخلفات الأثرية، لا على القصص التوراتية التي كُتبت بعد موسى عليه السلام بمئات السنين. أما بخصوص الآثار المكتشفة في المدينة، فلا بد من الإشارة إلى أن مكتشفيها، إلا من رحم ربي، أصحاب هوى توراتي، بل وحتى إسرائيلي. وحتى المادة الأثرية المكتشفة، خاصة المؤرخة للفترة الواقعة بين حوالي 2000 و900 قبل الميلاد جاءت قليلة ومبعثرة (Prag 2007). من هنا جاءت في بعض الأحيان متحيزة، ويجب التأكد من صحتها قبل البناء عليها. كما أن بعضًا من الباحثين قدم نظريات حول طبيعة الاستقرار في المدينة خلال هذه المدة، كأن المدينة كانت أيام داود وسليمان قرية صغيرة (Auld and Steiner 1996: 32; Steiner 2007).

استقر الناس في منطقة سلوان لأول مرة قبل أكثر من خمسة آلاف عام، وربما كان الحافز لهم وجود مياه دائمة في المنطقة، مثل عين أم الدرج/ عين سلوان (Gihon Spring)، الواقعة على المنحدر الغربي لوادي ستنا مريم (Kidron Valley). ساعد وجود مياه العين، والوادي الناس على زراعة الأراضي المحيطة بها، فكانت بساتين سلوان. وعُثر على بقايا أثرية ومقابر تؤرخ في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وحتى الوقت الحاضر. ويفصل بلدة سلوان عن المنطقة المسماة «مدينة داود» واد يسمى ب «وادي

حلـوة»، لكـنَّ البلـدة امتـدت فـوق هـذه المنطقـة وأصبحـت جـزء منهـا. لـذا، يحـاول الإسـرائيليون الآن بـكل مـا أوتـوا مـن قـوة ودهـاء إخـراج أهلهـا منهـا، وإعـادة بنـاء مدينـة داود المزعومـة.

تواجـد النـاس في مدينـة القـدس وأكنافهـا قبـل حوالـي نصـف مليـون سـنة، حيـث عثـر في منطقـة البقعـة علـى أدوات صوانيـة مؤرخـة لهـذه الفـترة (Kafafi and Schick 2007). وأُجريـت في القـدس حفريـات أثريـة أثبتـت، كمـا ذكرنـا أعـلاه، أن البلـدة بـدأت علـى شـكل قريـة صغيـرة خـلال منتصـف الألـف الرابـع قبـل الميـلاد، ولا تـزال مسـكونة حتـى الوقـت الحاضـر (Shiloh 1993:701). وتحـاول إسـرائيل منـذ احتلالهـا لشـرقي القـدس عـام 1967م البحـث في غـور أرض القـدس أمـلًا في العثـور علـى بقايـا لمدينـة داود وسـليمان، وقامـت ولا تـزال بإجـراء تنقيبـات في المنطقـة الواقعـة بالقـرب مـن الجـدار الغربي للحـرم. ويؤكـد الآثـاري الإسـرائيلي رفائيـل غرينـبرغ (Greenberg 2009: 38) بـأن القيـام بالحفريـات في هـذه المنطقـة شـكَّل ولا يـزال يشـكل عامـل تصـادم بيـن المسـلمين والإسـرائيليين، خاصـة إذا مـا علمنـا أن دولـة إسـرائيل فوضـت أمرهـا للحاخامـات الذيـن وظفـوا عـددًا كبيـرًا مـن الآثارييـن الإسـرائيليين للتنقيـب فيهـا لهدفيـن همـا:

1. الكشـف عـن الآثـار القديمـة، خاصـة الفـترة التـي يعتقـدون أنهـا معاصـرة لحكـم الملـك هيـرود الأكـبر.

2. لخلق مساحات واسعة في المنطقـة القريبـة مـن الحـرم الشـريف لممارسـة الشـعائر الدينيـة اليهوديـة، ولربطهـا بالأنفـاق المكتشـفة بالقـرب منهـا لتشـكل بهـذا منطقـة جـذب سـياحي.

تسـمى المنطقـة الواقعـة خـارج الأسـوار، في الجهـة الجنوبيـة- الشـرقية مـن الحـرم الشـريف، عـبر وادي سـتنا مريـم، والتحديـد علـى السـفح الجنوبـي الغربـي لجبـل الزيتـون،

باسم «الظهورة»، وفي بعض المصادر «الدوَّارة». ومع بداية القرن العشرين، بدأ سكان سلوان باستغلال هذه المنطقة للزراعة، وما زالوا يزرعونها وبنوا فوقها مساكنهم، فأصبحت تشكل جزءًا من بلدتهم. وعند نهاية القرن التاسع عشر، بدأت الحفريات الأثرية في هذه المنطقة بإشراف جمعية صندوق استكشاف فلسطين البريطانية (Palestine Exploration Fund). وأما في الوقت الحاضر، فإن منطقة وادي حلوة التي كانت تعد فاصلًا بين سلوان وما يعرف باسم مدينة داود، أصبحت ملك سلوان وربطتها بها. ولأن هذه المنطقة، برأي الإسرائيليين، هي المكان الأول لاستقرار اليهود في المنطقة، لذا أصبحت هدفًا للحفريات الإسرائيلية بحثًا عن آثار مملكة داود وسليمان. وحاول الإسرائيليون في بداية الأمر ربط عيون مياه «أم الدرج» و«سلوان» بالقصص التوراتية، والآن يحاولون تدعيمها بالقطع الأثرية، لتثبيت فكرة أن هذه المنطقة هي مدينة داود المذكورة في التوراة (سفر صموئيل الثاني 5: 9). علمًا أن المنقب الفرنسي ريموند فايل (Raymond Weill) والذي نقب في الظهورة خلال أعوام 1913 - 1914م اقترح أن هذه المنطقة هي قلعة داود (Weill 1920; 1947). وعلى أية حال، نود أن ننوه هنا بأن التقارير الأثرية السابقة عن هذه المنطقة لم تسمها لا «مدينة داود» ولا «قلعة داود» وإنما «الظهوره Ophel». إذن تم تركيز النشاطات الأثرية الميدانية ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر وحتى الآن على هذه المنطقة. ومن أهم الحفريات التي جرت في هذه المنطقة قبل الاحتلال الاسرائيلي في عام 1967م، ما يأتي:

1. الحفريات التي جرت في تسعينات القرن التاسع عشر في الجهة الجنوبية - الشرقية من هذه المنطقة بحثًا عن أنفاق تحت الأرض، وقام بها كل من بلس وديكي (Bliss and Dickie 1898).

2. الحفريات التي قام بها فنسنت في عام 1911م بحثًا عن النظام المائي فيها (Vincent 1911).

3. الحفريات التي قام بها كل من ماكلستر ودنكان في الفترة بين 1923 - 1925م بحثًا عن القلعة اليبوسية، والتي تقول التوراة إن الملك داود احتلها من اليبوسيين (Macalister and Duncan 1926).

4. الحفريات التي قامت بها كنيون في الفترة بين 1961 - 1967م (Kenyon 1974).

وهدفت هذه الحفريات جميعها إلى البحث عن آثار مملكة داود وسليمان، وإن اتبع كل من المنقبين أسلوبه البحثي الخاص. وأثبتت نتائج هذه الحفريات أن المنطقة العليا في الظهورة وسفحها الشرقي كانتا مسكونتين، وكما ذكرنا أعلاه، من الألف الرابع قبل الميلاد وحتى الآن. لكنَّ بعض الباحثين الإسرائيليين يرون أن منطقة المنحدر (السفح) هُجرت بعد تدمير القدس على يد نبوخذنصر في حوالي 586 قبل الميلاد، وانحصرت السكنى في قمة منطقة الظهورة (Greenberg 2009: 39– 41).

بعد احتلال المنطقة في عام 1967م ، قامت إسرائيل بالعديد من الحفريات الأثرية فيها، مواصلة بذلك ما تم خلال النصف الأول من القرن العشرين، وبحثًا عن نفس الأهداف. ونذكر منها ما قام به ييغال شيلو من الجامعة العبرية بين السنوات 1978 وحتى 1985م (Shiloh 1984; 1993). ويظهر أن طريقة التنقيب التي اتبعها وتفسيراته العلمية للمكتشفات الأثرية لم تشبع رغبات الحاخامات، فاصطدم باليهود الأرثوذكس، لأنه نقب في عام 1981م عن قبور اعتقدوا أنها ليهود، وأنه بهذا دمر تراثًا يهوديًا. أوردنا هذه الحادثة لنظهر أن رجال الدين في اسرائيل يزعمون أن كل ما يُعثر عليه في هذه المنطقة هو يهودي. على أية حال، وكما ذكرنا أعلاه، فإننا نعتقد أنه بعد هذا الحدث وضعت حكومة إسرائيل هذه المنطقة بتصرف الحاخامات، وهم وراء المخططات الهادفة لتحويلها لمتنزه تاريخي.

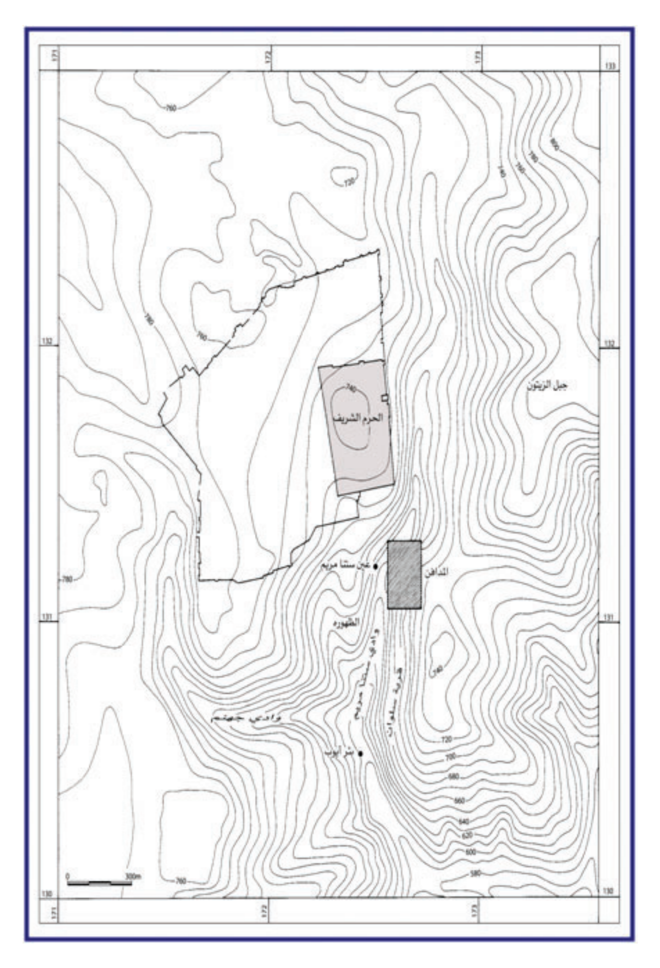
ويذكر رفائيل غرينبرغ (Greenberg 2009:41)، أنه وخلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى قامت منظمة إسرائيلية غير حكومية (NGO) تحمل اسم العاد (El'ad)

وتعني «إلى مدينة داود» (אל עיר דויד) بادّعاء ملكية المنطقة المحيطة بوادي حلوة. بعدها فوضت إسرائيل إدارة المنطقة لمجموعة من المستوطنين الذين بدأوا بتأسيس المتنزه التاريخي فيها. من هنا نجد أنهم لووا عنق جميع التفسيرات العلمية للآثار الموجودة في المنطقة ووائموها مع القصص التوراتية، ولم يعودوا يتطرقون لما فيها من آثار تعود لفترات غير العصور الحديدية. كما وجرت تحت إشرافهم حفريات، مثل تلك التي قام بها ايلات مازار (Mazar 2006) ، الذي ادّعى بأنه عثر على مبنى لقصر من زمن الملك داود. لكننا نود التنبيه إلى أن مؤسسة مدينة داود أُسست عام 1986م (www.cityofdavid.org.il/ IrDavidFoundation_Eng.asp)، أي قبل بدء الانتفاضة الأولى، وأن الأمور كان مخطط لها سابقًا. وهذه المؤسسة تنشط الآن بشراء الأراضي المحيطة بالمنطقة، وحتى الاستيلاء عليها بالقوة. وبني فوق المنطقة المسماة «مدينة داود»، حيث استوطن المستوطنون حديثًا، كنيس يهودي، وحضانة أطفال، ومركز دراسات أثرية. كما ساعد تعيين أرئيل شارون عام 1992م وزيرًا للإسكان في إسرائيل المستوطنين على بناء وحدات سكنية فوق مرتفع الظهورة، وبنوا مبانيهم حتى فوق الآثار (Greenberg 2009: 42). واستطاع المستوطنون بعدها أن يمدوا سلطانهم على مناطق في سلوان والمناطق القريبة منها والواقعة على مجرى وادي ستي مريم (ستنا مريم). وبدأت ولا تزال دائرة الاثار الإسرائيلية تقوم بالتنقيب في المنطقة، وكشفت فيها عن بقايا أثرية يعود أقدمها للعصر البرونزي المبكر (الألف الرابع قبل الميلاد)، لكنْ، تُرك أمر تلك المكتشفات الأثرية بأيدي المستوطنين. وهم للأسف من يقرر أي القطع الأثرية ينبغي إبرازها للناس.

من هنا نستطيع القول أن المكتشفات الأثرية في سلوان أثبتت أن الناس سكنوا في المنطقة قبل وجود مملكة اسرائيل الموحدة بأكثر من ألفي عام. وأن المدرج، الذي يحاول التوراتيون إثبات أنه الميلو الذي بناه داود وسليمان، هو بحسب رأي كاثلين كنيون أقدم بمئات السنين من وجود هؤلاء.

المقابر:

تقـع القبـور المحفـورة في الصخـر في سـلوان (عددهـا بيـن 50 - 60 قـبرًا) علـى المنحـدر الشـرقي لـوادي سـلوان أو في مصـادر أخـرى وادي سـتنا مريـم (Kidron)، في الجهـة المقابلـة للحـرم الشـريف، أي إلـى الجنـوب الشـرقي لبلـدة سـلوان، وبالتحديـد إلـى الجنـوب مـن نبـع ستنا مريـم (Gihon Spring) (الشـكل 31). وهـي تتكـون مـن ثلاثـة أشـكال مـن القبـور، هـي: القبـور ذات السـقف المسـتوي، والقبـور ذات السـقف المسـقوف ببلاطـات تشـكل شـكلًا هرميًـا gabled، والثالـث هـو القبـر المحفـور داخـل حجـر منصـوب.



شكل 31: خارطة كنتورية توضح موقع سلوان ومحيطها

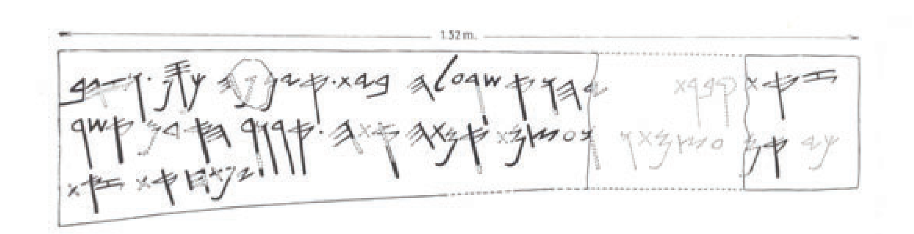
اعتقد بعض الرحالة الذين زاروا سلوان في القرن السابع عشر أن الملك سليمان استخدم قبور البلدة المحفورة في الصخر لإسكان زوجاته وجواريهن (Ussishkin 1993: 3). فقد زار عدد من الرحالة والمستكشفين الغربيين عبر القرون المختلفة بلدة سلوان في أثناء زياراتهم لفلسطين، لكنها تكررت كثيرًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ونذكر من أهم هؤلاء:

R. Richardson, J. S. Buckingham, W. K. Kelly, U. J. Seetzen, C. W. Wilson, F. de Saulcy, and J. L. Porter.

وقدم هؤلاء في تقاريرهم وصفًا للبلدة وسكانها، وقام بعضهم بإجراء تنقيبات أثرية استكشافية في المقابر الصخرية الموجودة فيها (Ussishkin 1993: 1 – 13) ومنها ما قام به الفرنسي دي سولسي من دراسة للقبر المسمى «قبر ابنة فرعون» المحفور على شكل غرفة داخل الصخر، فقاس أبعاده، ورسم واجهته ووصفها (de Saulcy 1882). وتابع الفرنسي الآخر شارل كليرمونت- غانو (Charles Clermont–Ganneau) في عام 1870م دراسة هذه القبور الصخرية. ونتيجة لهذه الدراسة اكتشف نقشين منقوشين بالخط العبري على واجهة أحد القبور (قبر رقم 35) (الشكل 32). وقُص الصخر المنقوش عليه النقشان عام 1871م بمساعدة القنصل البريطاني، في ذلك الوقت، في القدس، وبتمويل من المتحف البريطاني في لندن، وهما الآن ملك للمتحف البريطاني (Ussishkin 1993: 7). وحصل الإسرائيلي نعمان أفيغاد (Nahaman Avigad) على طبعة لهذين النقشين من المتحف البريطاني وقام بنشرهما (Avigad 1953; 1955).

وللحصول على مزيد من المعلومات عن هذه القبور، قبل عام 1948م، قام الباحثان أدولف رايفنبرغ (Adolf Reifenberg) ونعمان أفيغاد (Nahman Avigad)

مـن الجامعـة العبريـة بدراسـتها، وذكـروا أنهـم وجـدوا نقشُـا علـى واجهـة القـبر رقـم 34، وبنـاء عليـه اقترحـا أنهـا تخـص الملـك داود وعائلتـه (Reifenberg 1948: 134 - 137). ثـم أجـرت بعثـة أثريـة إسـرائيلية برئاسـة ديفيـد أوسيشـكن (David Ussishkin) ابتـداء مـن عـام 1968م وحتـى عـام 1971م، أي بعـد عـام علـى سـقوط سـلوان بيـد الإسـرائيليين مسـوحات وحفريـات أثريـة فيهـا (Ussishkin 1993). ويذكـر هـذا الأخـير في تقريـره أنـه لاحـظ وجـود بقايـا أثريـة بيـن البيـوت العربيـة الحديثـة، علمًـا أن القبـور نحتـت في المنحـدر الصخـري كمـا نـرى في الشـكل (33). وتعـدّ منطقـة المقابـر جـزءاً مـن أمـلاك الكنيسـتين الروسـية والفرنسيسـكانية. ولا ينكـر هـذا الإسـرائيلي أن بعـض هـذه القبـور تحولـت في الوقـت الحاضـر لمسـاكن للنـاس، أو تشـكل أجـزاء مـن بيـوت لبعـض العائـلات (الشـكل 33).





شكل 32 : أحد النقشين اللذين كانا منقوشين على واجهة القبر 35



شكل 33: منظر عام لقبور سلوان (عن Ussishkin 1993)

أما بالنسبة لتأريخ هذه القبور، فلم يتفق الباحثون الإسرائيليون عليه؛ إذ ذكر بعضهم أن «قبر ابنة فرعون»، وربما بعض القبور الأخرى، تعود إلى ما بعد القرن الخامس قبل الميلاد، والتي يسميها الباحثون الإسرائيليون «Post–Exilic» (Loffereda 1973). أما أفيغاد (Avigad)، فقد أرخ القبر 35 المسمى «Tomb of the Royal Steward» إلى حوالي 700 قبل الميلاد. لكنَّ الإسرائيلي أوسيشكن يؤرخه في القرن العاشر قبل الميلاد، والذي يسميه «First Temple Period»، ويعتمد في تاريخه هذا على عدة أمور، أهمها شكل الخط المنقوش على واجهات القبور (Ussishkin 1993: 325 – 327). ويقول إن هذا الخط كُتب على نفس الشاكلة التي كُتب فيها الخط العبري القديم.

ونستطيع القول إن هذه القبور المحفورة في الصخر والمستخدمة منذ إنشائها وحتى الوقت الحاضر يصعب تأريخها لعدة أسباب:

1. أنها تخلو من أية مكتشفات أو مواد أثرية تساعد في تأريخها.

2. أنها استخدمت عبر العصور المختلفة (الرومية والبيزنطية والإسلامية)، ولا تزال قيد الاستخدام، ولا توجد أية اشارات على بداية استخدامها.

3. لا يمكن ربط هذه المقابر بعضها ببعض لتكوِّن وحدة واحدة، لذا من المستبعد جداً أن تكون خدمت عائلة واحدة. لكننا نقر بأنها تقع جميعًا في نفس المنطقة، ولهذا يمكن عدها وحدة أثرية واحدة، وإنْ لم تكن متعاصرة.

4. يعتقد المنقب أنها استُخدمت جميعًا لأغراض مرتبطة بالدين، لأن من حفرها استخدم نفس الأدوات والتقنية، ونفس الصخر، ومتشابهة في مخططها، وأنها تعرضت للحت بفعل العوامل الجوية بنفس المقدار (Ussishkin 1993: 17).

5. عثر الدارسون لقبور سلوان على أربعة نقوش جنائزية منقوشة بخط عبري، واحد منها (قبر بنت فرعون) قصير جدًا لا يتعدى محتواه الحرفين (Avigad 1953; 1955; Ussishkin 1993:241 – 254)، وهذا غير كاف للاستدلال على صاحبه. أما أطولها فهو المنقوش على واجهة القبر رقم 35.

6. يرى أوسيشكن أن منطقة القبور حُفرت في نفس الفترة، وأن المنطقة برمتها تحولت إلى محجر. لكنه في نفس الوقت يذكر أن الحَفر في المنطقة مر بأربع مراحل زمنية، لكنها في إطار الفترة الواحدة.

7. نستطيع القول إن جميع التواريخ المقترحة لمقبرة سلوان اعتمدت على افتراضات وليس على حقائق علمية ثابتة.

ختامًا، إن الاستقرار في مدينة القدس سبق وجود مملكة داود وسليمان بأكثر من ألفي عام، وأن أول مرة تُذكر فيها القدس في النصوص التاريخية كان في حوالي 1900 قبل الميلاد (كفافي 2005)، حين كانت إحدى المدن الكنعانية في بلاد الشام،

سكنها بعدها اليبوسيون، ومن ثم اليهود المحليون، ثم دخلها اليونان وتبعهم الروم، ومن بعدهم البيزنطيون، ومن ثم فُتحت على يد الخليفة عمر بن الخطاب فدخل أهلها الاسلام. إذن، القدس مدينة متعددة الهويات الثقافية والدينية في إطارها الزماني، لكنها محلية فلسطينية في فضائها المكاني. لذا، يجب المحافظة على هذا التراث الأثري بأزمانه المتعددة، ويجب أن لا ندمر آثارًا لتظهر أخرى.

ونأمل بأن توفق هذه الدراسة في وضع صورة حقيقية عن تاريخ سلوان في العصور القديمة، ودحض زيف الزعم الإسرائيلي، بناء على حقائق أثرية لا تحتمل التأويل. وفي كل الأعمال التي يخطط لها الصهاينة يعتمدون النص التوراتي مرجعًا ووسيلة لهم. وخلاصة الكلام ما يأتي:

1. لا يوجد أي نص تاريخي مكتوب قبل السبي البابلي يذكر أن أورشاليم كانت عاصمة.

2. يذكر محمود أبو طالب (2006أ: 204–205) نقلًا عن سوجين (Soggin 1977: 355) أن النصوص المكتوبة بعد السبي البابلي تجعل كلًا من يهوذا وأورشاليم وحدتين مستقلتين.

3. أشار العهد القديم إلى أن أورشاليم هي مدينة داود.

4. لم يُعثر حتى الآن على أية بقايا أثرية في القدس من المنشآت والمباني الضخمة التي ذكرت التوراة أن داود وسليمان قد بنوها. ولا حتى على أية مخلفات أثرية أخرى من هذه الفترة. وعلى الرغم من هذا، كان كثير من التوراتيين يرون أن الملك داود دخل أورشليم اليبوسية المسورة بخدعة، حيث أمر جيشه دخولها عن طريق الأنفاق. وبهذا لم تتعرض المدينة لأية دمار. حاول الآثاريون

التوراتيـون والإسـرائيليون البحـث عـن السـور اليبوسـي فلـم يعثـروا عليـه (Shiloh 1975). لكـن كاثليـن كنيـون قالـت إنهـا عثـرت في المنطقـةI على الوجـه الغربـي مـن سـور بنـي في حوالـي 1800 قبـل الميلاد واسـتمر اسـتخدامه لمـدة تقـرب مـن ألـف عـام (Kenyon 1974: 83).

5. اعتمـادًا علـى نتائـج الحفريـات الأثريـة التـي أُجريـت علـى مـدى السـنوات في القـدس (Franken 2007).

6. اقـترح بعـض الباحثيـن أن التلـة الجنوبيـة الشـرقية مـن مدينـة القـدس الحاليـة، الواقعـة خـارج الأسـوار العثمانيـة، ربمـا تكـون هـي يبـوس اليبوسـية وأورشـليم الداودية؛ حيـث عثر على قليـل مـن آثار العصـور البرونزية المتوسطة والمتأخرة. وهـذه المنطقـة هـي التـي يسـميها عليهـا أهـل البلاد في الوقـت الحاضـر «الظهـورة» ومسـاحتها تبلـغ علـى وجـه التقريـب أحـد عشـر دونمًـا، وهـي المطلـة علـى بلـدة سـلوان ولا يفصلهـا عنهـا إلا وادي سـلوان «سـتنا مريـم» (Kidron)، الـذي توجـد فيـه عيـن مـاء اسـمها «أم الـدرج» أو «سـتنا مريـم». وتعـدّ هـذه العيـن المصـدر المائـي الوحيـد للمدينـة القديمـة كلهـا.

7. شـكك كثيـر مـن العلمـاء في الطـرق المتبعـة في تأريـخ المـادة الأثريـة المكتشـفة خـلال هـذه الفـترة بالـذات، لعـدم اتبـاع المنقبيـن الأسـس العلميـة الصحيحـة في التنقيـب، ولعـدم معرفـة الكثيـر منهـم بكيفيـة تأريـخ الفخـار المكتشـف، والـذي هـو الأسـاس في تأريخ المكتشفات الأثريـة الأخـرى. بـل جزم أحد أهـم الباحثيـن التوراتييـن، جـورج إيرنسـت رايـت (Wright 1962: 127) بأنـه لا يوجـد أي اكتشـاف مؤكـد يمكـن تأريخـه لفـترة حكـم كل مـن داود وسـليمان.

8. على أية حال، فإن سكان أورشاليم خلال الألف الثاني قبل الميلاد كانوا خليطًا من الكنعانيين، والأموريين، والهكسوس، والعابيرو، واليبوسيين. وهي بهذا لم تخرج عن مثيلاتها من المدن المعاصرة في بلاد الشام (Franken 1989; Lipinski 2007).

9. من الثابت للآثاريين الآن، واعتمادًا على نتائج الحفريات الأثرية في القدس، أنها كانت خلال نهاية العصور البرونزية وبداية الحديدية قرية صغيرة (Auld and Steiner 1996).

وفي الختام، فإننا عندما نتحدث عن دولة داود وسليمان، فإننا نتحدث عن مملكة محلية ولا علاقة لها بدولة إسرائيل الصهيونية المعاصرة، ونتمنى أن تؤخذ الأمور على هذا المحمل. أردد ما قاله بعض الأخوة من قبلي (المرحوم خالد الناشف): «لقد خسرنا الأرض فلماذا نخسر داود وسليمان أيضًا...!» ألم يقل الرسول الكريم (نحن أولى بموسى منهم، يقصد اليهود؟).

الفصل السادس 6

التوراة والأرض الموعودة

الفصل السادس

التوراة والأرض الموعودة

كانت فلسطين في الفترة السابقة للعصر الحديدي الأول، أي في العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 – 1200 قبل الميلاد)، عامرة بالمدن الكنعانية، من أمثال تل وقاص، بيسان، تل المتسلم، تل تعنك، كيسان، تل السلطان/ أريحا، وتل بيت مرسِم. كما كان لسكان هذه المدن علاقات بمحيطها القريب والبعيد، حيث عُثر على أعداد كبيرة من الأواني الفخارية المصنوعة في قبرص وبلاد اليونان في هذه المواقع، وغيرها، امتدادًا من السهل الساحلي الفلسطيني وحتى مناطق الأغوار. ويظهر أن قَدَر هذه البقعة من الأرض أن تكون مطمعًا للقوى الكبرى على مدى العصور من قديمها وحديثها. إذ إنها خضعت للسيطرة المصرية خلال العصور البرونزية، والرافدية والفارسية خلال العصور الحديدية، واليونانية، والرومية، والبيزنطية في الفترات الكلاسيكية. لذا، تعرض سكان هذه البقعة من الأرض، كما تعرض غيرهم من سكان بلاد الشام، لدخول أعراق وأجناس متعددة إليها، لكن هذا لم يغير من طابعها المحلي على الدوام. وعلى الرغم من هذا، فإن أهلها بقوا متمسكين بأرضهم، وإذا ما سلَّمنا بصحة النصوص التوراتية، فإنها تذكر أن الإسرائيليين قد اغتصبوا أجزاء من البلاد وليست كلها، من أهلها وعن طريق الحرب.

تعدُّ الفترة الواقعة بين حوالي 1200 إلى 1000 قبل الميلاد المرحلة التي يُعتقد أنها شهدت دخول العبرانيين إلى فلسطين، واستيلائهم على بعض المدن الكنعانية فيها عنوة، حسب ما ورد في التوراة، وتلا ذلك تأسيس المملكة الموحدة بقيادة شاؤول في حوالي 1004 قبل الميلاد. إضافة لهذا الزعم التوراتي باحتلال الأرض، فإن يقولون إن الرب وعد إبراهيم (أبرام) وذريته هذه البقعة من الأرض،

وهذان الأمران هما الركيزتان اللتين تعتمدهما الصهيونية العالمية في احتلالها لفلسطين المعاصرة. وحتى يتضح الأمر للقارئ تم تقسيم موضوع «التوراة والأرض الموعودة» إلى المحاور الآتية:

1. التوراة والأرض الموعودة.
2. سكان فلسطين في العصر البرونزي المتأخر.
3. هل دخل العبرانيون إلى فلسطين؟ ومن أين جاؤوا؟ ورأي الباحثين في هذا الأمر.

وسنتناول بالنقاش كل محور من هذه المحاور على حدة، وكما هو مبين أدناه.

التوراة والأرض الموعودة:

يعتقد كثير من الباحثين أن خروج بني إسرائيل من مصر إلى فلسطين (الأرض الموعودة) كان مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وهذا يتماشى مع النص التوراتي. وتبدأ حكاية كنعان الشخص الملعون أول مرة في سفر التكوين من التوراة، بوصفه أحد أبناء نوح، وهي على النحو الآتي:

«18 وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك سَاما وحامًا ويافث.

19 وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض.

20 وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا،

21 وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه

22 فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجًا.

23 فأخذ سام ويافث الرداء، ووضعاه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما.

24 فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير،

25 فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته.

26 وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم» (التكوين 9: 18–26).

وتستمر الحكاية التوراتية لتعلمنا كيف خرج أبرام من حرَّان إلى بلاد كنعان، وهي أرض ابن نوح المغضوب عليه. وتقول القصة إن الرب أمر أبرام ليأخذ عشيرته إلى أرض كنعان، وتتابع:

1 وقال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك،

2 فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة،

3 وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض.

4 فذهب أبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران.

5 فأخذ أبرام ساراي امرأته، ولوطًا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان،

6 واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم، إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض.

7 وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحًا للرب الذي ظهر له.

8 ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحًا للرب ودعا باسم الرب.

9 ثم ارتحل أبرام ارتحالًا متواليًا نحو الجنوب» (التكوين 12: 1–9).

وكان لأبرام ولدان، هما، إسحق واسماعيل، وولد لإسحق ابنه يعقوب. وينسب بنو إسرائيل إلى يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، الذي أسماه الرب «إسرائيل» بناء على القصة التوراتية المذكورة أدناه:

«فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت» (سفر التكوين 32: 27–28).

ويخالف بعض الباحثين هذا التفسير لاسم «إسرائيل»، إذ يرون أن الاسم «إسرائيل» مؤلف من كلمتين هما «يسر» والتي تعني «غلب»، و»إيل» وتعني «إله» وبهذا يصبح المعنى «غلب الإله». ولا يختلف هذا المعنى عمَّا ورد أعلاه، لكن من المعلوم أن «إيل» هو كبير الآلهة الكنعانية.

ولنفترض أن المعلومات الواردة في إصحاح التكوين صحيحة، فهي تعترف بأن الكنعانيين هم أصحاب الأرض، حتى قبل قدوم «أبرام» إليها. كما أن بقية القصة التوراتية تؤكد أن أبرام اضطر إلى تركها إلى مصر، بسبب مجاعة حلت ببلاد كنعان، واصطحب معه زوجته سارة، أم إسحق، وإسحق هو والد يعقوب. وتزوج أبراهم في

مصر جارية مصرية، اسمها «هاجر»، وهي أم اسماعيل. وإذا كانت التوراة تقول لأبرام «لنسلك أعطي هذه الأرض»، فأين هي حصة إسماعيل فيها؟ (Kafafi 2014a) أليس هو من نسل «أبرام»، أيضًا؟ وعلى أية حال، فإن القرآن الكريم يعلمنا أن إبراهيم وذريته مسلمون (البقرة 133):

«أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

ولا نريد في هذا المقام أن نقفز فوق قصة دخول يعقوب وقومه إلى كنعان، وغدرهم بأهل مدينة «شكيم». ويروي سفر التكوين (الإصحاح 34) أن الفتاة «دينة» ابنة يعقوب من والدتها «ليقة» خرجت من بيت أبيها لتنظر الأرض التي حول بيت أبيها فرآها ابن صاحب الأرض وضاجعها، وأحبها حبًا شديدًا، فطلب إلى والده أن يخطبها إليه. وعلم يعقوب ما جرى لابنته، فأعلم رجال قومه الذين غضبوا غضبًا شديدًا، لكنهم كتموا غيظهم. وبعد أن جاء «حمور» والد «شكيم» إلى يعقوب عارضًا عليه المصاهرة ، قائلًا له: «صاهرونا تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا» (سفر التكوين 34: 9)، والمشاركة في الأرض: «وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم، اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها» (سفر التكوين 34: 10). فوافق يعقوب وقومه على هذا، لكنْ شريطة أن يختتن كل ذكور البلدة، «فقالوا لهما لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر أن نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا». ليس هذا فقط، إنما توضح القصة التوراتية بالتفصيل كيف غدر قوم يعقوب بأهل المنطقة بعد أن اختتن جميع الذكور في البلدة، وهي على النحو الآتي:

«فسمع لحمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة، واختتن كل ذكر، كل الخارجين من باب المدينة. فحدث في اليوم الثالث، إذ كانوا متوجعين، أن

ابني يعقوب، شمعون ولاوي، أخوَي دينة، أخذا كل واحد سيفه، وأتيا على المدينة بأمن، وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف، وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا، ثم أتى بنو يعقوب على القتلى، ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت» (سفر التكوين 34: 24-29).

فالقصة التوراتية توضح أن كلًا من «أبرام» و «يعقوب» وذريتهم قد دخلوا بداية الأرض سلمًا، وإذا كان الأول قد هاجر من كنعان إلى مصر نتيجة لموجة قحط ألمت بها، فإن الثاني وقومه غدروا بأهلها الذين أكرموا وفادتهم. وتستمر التوراة في روايتها لعلاقة بني إسرائيل بفلسطين بقصة يوسف عليه السلام. إذ يعتقد بعض الباحثين أنها حصلت في زمن الهكسوس (حوالي 1650 - 1550 قبل الميلاد)، حين انتشله تجار مصريون من البئر وباعوه لرئيس الشرطة في مصر، وانتهى به الأمر وزيرًا ومسؤولًا عن خزائن ومخازن الملك/ الفرعون (بغدادي 1996: 5 - 8). وتكتمل القصة بحضور إخوانه للحصول على القمح من مصر، وتعرفه عليهم، ثم يعرِّفهم بنفسه، ويستقرون بمصر. ويظهر أنهم عاشوا فترة رخاء في مصر، لكنهم لم يندمجوا مع المصريين، بل تمسكوا بعنصريتهم. ويبدو أن هؤلاء قد سيطروا بشكل غير مباشر على الحكم في مصر، فكرهم أهل البلاد، وانتهى الأمر بظهور فرعون، ربما يكون رمسيس الثاني (حوالي 1280 - 1213 قبل الميلاد) صب عليهم غضبه، فتجرعوا مرارة الذل والاستعباد. وفي هذا الوقت يبعث الله «موسى» نبيًا ليخلصهم من عبوديتهم واضطهادهم، فانطلق موسى بقومه من أرض مصر متوجهًا إلى الأرض المقدسة. ويذكر الله تعالى في محكم كتابه العزيز: «77 لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى 78 فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ» (طه 77-78). وهذا الأمر الإلهي

يناقض ما ورد في التوراة بأنهم خرجوا بعد حصولهم على الإذن من الفرعون (سفر الخروج 13: 17–18، 14: 11–12، العدد 14: 3–4).

ومن المعلوم أن بني إسرائيل تمردوا وانقلبوا خلال التيه على نبيهم موسى وأخيه هرون، فعبدوا العجل وغفلوا عن عقيدة التوحيد. وجاء في القرآن الكريم «138 وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ 139 إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 140 قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» (الأعراف 138–140). هذه الردة الدينية تشير بوضوح إلى مدى تأثر بني إسرائيل بتعدد الآلهة، وربما يكون هذا ناتج عن معايشتهم للمصريين، أو من البيئة التي هم منها أو فيها، أي سيناء. وربما شاهدوا في سيناء أو صحاري جنوبي بلاد الشام معابد للإلهة الفرعونية «حتحور» التي يُرمز لها البقرة، ووُجدت معابد من زمن الدولة الوسطى تخص هذه الإلهة عند مناجم الفيروز في سيناء. ولقد تكرر هذا المشهد أيضًا بعد وفاة سليمان (عليه السلام) في حوالي 922 قبل الميلاد، حين انقسمت الدولة الموحدة إلى دولتين، فأقام الملك يربعام الأول عاصمته في السامرة وزودها بعجل ذهبي، وبنى مكانين لعبادة العجل في كل من موقعي «بيت إيل» و «دان» (بغدادي 1996: 15). إضافة لهذا، فقد ثار على موسى مائتان وخمسون من رؤساء الجماعة، وكانوا من أبناء عمومته اللاويين، وقد انتقم منهم الرب بأن ابتلعتهم الأرض. وورد ذكر هذه الحادثة في التوراة على النحو الآتي: « 16وقال موسى لقورح كن أنت وكل جماعتك أمام الرب، أنت وهم وهرون غدًا 17 وخذوا كل واحد مجمرته، واجعلوا فيها بخورًا، وقدموا أمام الرب كل واحد مجمرته، مئتين وخمسين مجمرة. وأنت وهرون كل واحد مجمرته 18فأخذوا كل واحد مجمرته، وجعلوا فيها نارًا، ووضعوا عليها بخورًا، ووقفوا لدى باب خيمة الاجتماع مع موسى وهرون 19 وجمع عليهما قورح كل الجماعة إلى باب

خيمة الاجتماع، فتراءى مجد الرب لكل الجماعة 20 وكلم الرب موسى وهرون قائلًا 21 افترزا من بين هذه الجماعة، فإني أفنيهم في لحظة 22 فخرًّا على وجهيهما، وقالا اللهم إله أرواح جميع البشر، هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة» (سفر العدد 16: 16-22). ويذكر القرآن الكريم هذه الحادثة في محكم تنزيله على النحو الآتي: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» (البقرة 55).

نستنتج مما ورد أعلاه أن علاقة بني إسرائيل الدينية وحتى العاطفية اتجاه نبيهم موسى كانت مهزوزة، وأن أحاسيسهم اتجاهه متقلبة، بل إنهم ربما ندموا على الخروج من مصر، فقد كانوا دائمي التبرم والشكوى (العدد 13: 1-33). وربما لم تزد قصة الخروج هذه - التي ضخمتها القصص التوراتية - عن كونها واحدة من الرحلات المتواصلة بين جنوبي بلاد الشام ومصر خلال العصور القديمة.

تبدأ قصة الأرض المقدسة الموعودة بعد الخروج من مصر، مرورًا بالتيه في الصحراء وتنتهي بدخولهم إلى أرض كنعان. إذ يذكر القرآن الكريم في سورة المائدة أن موسى خاطب قومه قائلًا: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون» (المائدة 21-23). لكنهم لم يدخلوها خوفًا من أهلها الذين كانوا يسكنونها، ووصفتهم التوراة بأنهم قوم جبارين.

وإذا ما اعتمدنا القصة التوراتية فإننا نستنتج ما يلي:

1. أن الوعد بالأرض المقدسة لبني اسرائيل أعطي من الرب لنبيه موسى عليه السلام، لكن لا موسى ولا حتى أخاه هرون دخلوا أرض الميعاد، وإنما دخل القوم بقيادة

يوشع/ يشوع بن نون. وجاء في سفر التثنية (3: 25-27؛ 34: 4) ما يأتي:

«25 دَعْنِي أَعْبُرْ وَأَرَى الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ الَّتِي فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ، هذَا الْجَبَلَ الْجَيِّدَ وَلُبْنَانَ.

26 لكِنَّ الرَّبَّ غَضِبَ عَلَيَّ بِسَبَبِكُمْ وَلَمْ يَسْمَعْ لِي، بَلْ قَالَ لِي الرَّبُّ: كَفَاكَ! لاَ تَعُدْ تُكَلِّمُنِي أَيْضًا فِي هذَا الأَمْرِ.

27 اصْعَدْ إِلَى رَأْسِ الْفِسْجَةِ وَارْفَعْ عَيْنَيْكَ إِلَى الْغَرْبِ وَالشِّمَالِ وَالْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ، وَانْظُرْ بِعَيْنَيْكَ، لكِنْ لاَ تَعْبُرُ هذَا الأُرْدُنَّ».

ويؤكد هذا الأمرَ ما ورد في نفس السفر (التثنية 34: 4): «وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: هذِهِ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بِعَيْنَيْكَ، وَلكِنَّكَ إِلَى هُنَاكَ لاَ تَعْبُرُ».

2. تقلب بنو إسرائيل في العقيدة، فهاهم يعبدون إلههم «يهوه»، فهل كان الوعد من هذا الإله، أم من رب موسى؟ كذلك لا بد من الإشارة إلى أن الوعد أُعطي لجيل من الإسرائيليين تاه في الصحراء أربعين عامًا، وباعتقادنا فإن الجيل الذي خرج من مصر وأُعطي الوعد الإلهي قد فني مع الزمان، ولم يدخل إلى أرض الميعاد، وهذا يعني، في رأينا، سقوط الوعد الإلهي، لأنه أُعطي لجيل لم يعد موجودًا.

إذا كانت التوراة أعطت بني إسرائيل أرض كنعان بوعد إلهي لأبرام وموسى، فإن الكلام عن الأرض الموعودة قد تغير بعد موت موسى واستلام يشوع بن نون مقاليد الأمر. فها هي الأرض الموعودة تمتد من الفرات إلى النيل، كما ورد في سفر يشوع، وعلى النحو الآتي:

«1 وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلًا:

2 موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبر هذا الأردن، أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي لبني إسرائيل.

3 كل موضع تدوسه بطون أقدامكم، لكم أعطيته كما كلمت موسى.

4 من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم» (يشوع 1: 1–4).

برأينا أن قصة الأرض المرتبطة بوعد إلهي جاءت من أن بني إسرائيل لم يكن لهم بأي حال من الأحوال مستقر ووطن ثابت حسب القصص التوراتية. فهم مروا بتلك البلاد كغيرهم من الأقوام والأجناس البشرية التي كانت استقرت في بلاد الشام منذ القدم وحتى الوقت الحاضر. ومن الواجب ذكره أن القصص التوراتية ترتبط ارتباطـًا وثيقا بالحديث عن المكان، ولا تركز على الزمان، وذلك لبحثهم عن بقعة جغرافية تأويهم. ومن هنا فإن فكرة الحصول على الأرض لها اليد العليا فوق كل القيم والأخلاق عندهم. وأكبر دليل على هذا استخدام الزانية الساكنة في أريحا وسؤالها عن الأرض وساكنيها. وعليه، أصبح لا بد لهؤلاء القوم بعد تبنيهم ديانة التوحيد، وهي ديانة جديدة في المنطقة، من إيجاد ملاذ لهم، فتم اختراع قصة الأرض الموعودة.

وتذكر التوراة أن أبرام خرج من أور بجنوبي العراق، وذهب إلى حرَّان، ومن ثم إلى الخليل، وبعدها إلى مصر؛ كما أن ذرية يعقوب انتقلوا من كنعان إلى مصر، كل هذا يدلل على عدم وجود مستقر ثابت لبني إسرائيل، أي لم يكن لهم وطن طيلة الدهر. وعندما استقام لهم الأمر، وتوحدوا دينيًا، بحثوا عن منطقة جغرافية تأويهم، وتصلح لحياة رغيدة، ولما كان من الصعب عليهم العودة إلى مسقط رأس أبرام لسيطرة الآشوريين وقوتهم ونشر نفوذهم على المنطقة آنذاك، وظهور الممالك الآرامية والعمونية والمؤآبية والأدومية في معظم مناطق بلاد الشام الجغرافية، كان لا بد

من الذهاب إلى المنطقة الأضعف، فكانت منطقة غربي نهر الأردن/ فلسطين الحالية التي كانت مقسَّمة إلى دويلات، كل مدينة تحكم نفسها بنفسها، كما أنها تعرضت في نفس الوقت لغزوات شعوب البحر، والتي استقرت قبيلة منها على سواحل البحر المتوسط الجنوبية. لكنَّ السؤال كيف دخلت هذه القبائل الإسرائيلية الموحدة إلى غربي النهر؟ هذا ما سنجيب عنه أدناه.

صراحة الأمر أن هذا الوعد الإلهي لم يرد إلا في الكتب السماوية، كما أن المصادر التاريخية المكتوبة، سواء الفرعونية أو الرافدية، لم تأت على ذكر الخروج ولا على دخول بني إسرائيل عنوة أو سلمًا إلى فلسطين الجغرافية. هذا بالمختصر المفيد حول دلالات القصة التوراتية، فهي تعترف بأن الكنعانيين هم سكان الأرض الموعودة حتى قبل مجيء «أبرام» إليها، كما أن الوعد أعطي لنسل «أبرام» ومن بينهم ابنه «اسماعيل» أبو العرب. إذن لماذا يزعم الصهاينة أن هذه الأرض لهم؟ ومن هنا نقول: «من فمك أدينك».

لكنْ، هل فلسطين الجغرافية هي بلاد كنعان التوراتية؟ والسبب في طرح هذا السؤال، أن ما أعطي توراتيًا لأبرام هو بلاد كنعان، وليس فلسطين. وأعتقد أن السبب في تحديد هذا الاسم «كنعان» وإطلاقه على بقعة جغرافية محددة سببه أن الاسم «فلسطين» لم يكن موجودًا آنذاك، أي في العصر البرونزي المتوسط (حوالي 2000 – 1550 قبل الميلاد). ويقترح الباحثون، خاصة التوراتيون منهم، أن قدوم أبرام إلى كنعان كان في حوالي 1900/ 1800 قبل الميلاد. كما أن الاسم «فلسطين» أُطلق في مرحلة لاحقة على جزء بسيط من بلاد الشام، وهي المنطقة التي شغلتها قبيلة «البلست» من قبائل شعوب البحر. وحيث أن الأمر هكذا، فقد حاول الباحثون تحديد بلاد كنعان، وفلسطين جغرافيًا، كما نورده أدناه.

يجادل كثير من الباحثين أن الكنعانيين خرجوا من الجزيرة العربية إلى شماليها، لكن، حتى الآن، لم تؤكد هذا الأمر أو تنفيه المصادر والوثائق التاريخية (Lemche 1991: 25)، غير أن النصوص التوراتية ذكرت أن الكنعانيين كانوا العنصر الأساسي بين سكان فلسطين (يوشع 13: 4 ؛ العدد 13: 29). وأطلقت التوراة، على سبيل المثال، اسم «ملك كنعان» على حاكم مدينة تل وقاص «Hazor»، الواقعة في سهل الحولة بشمالي فلسطين (سفر القضاة 4. 2: 23–24).

يذكر عمر الغول (2016: 15) أن عدد الشواهد التاريخية على وجود الكنعانيين لا تزيد على الأربعين شاهدًا متفرقة زمانيًا ومكانيًا، مما دفعه للقول «ولا توافينا بصورة واضحة المعالم عن حضارة ذات شخصية متكاملة الهوية في اللغة، والديانة، والعمارة، والفخار، وبناء المدن ...». ورد اسم العلم «كنعان» على شكل *kn^{c}n* في النصوص الأجاريتية، والفنيقية/ البونية، وكُتب بأشكال مختلفة في وثائق وادي الرافدين، ومصر، وبلاد الأناضول (Gray 1965: 15 – 16; Hackett 1997: 408). والاسم كنعان مشتق من الكلمة «*kinahna*» ، وهي سامية الأصل، أطلقها سكان وادي الرافدين خلال النصف الثاني على منطقة سواحل البحر الأبيض المتوسط الشامية. وكُتب الاسم «كنعان» أو «كنعاني» لأول مرة في نصوص تل الحريري «ماري» المؤرخة للقرن الثامن عشر قبل الميلاد. واختفى بعدها من الوثائق والنصوص التاريخية، ولم يعاود الظهور إلاَ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، في نص للفرعون أمنحوتب الثاني، والذي يذكر فيه أنه طارد الكنعانيين. بعد هذا تكرر ذكر كنعان في وثائق القرون اللاحقة، مثل ما ورد في رسائل تل العمارنة، ونقش الملك «إدريمي» ملك تل العطشانه (ألالاخ) بشمال غربي سوريا (Astour 1965). من هنا نلاحظ أن اسم المكان هذا ورد في نصوص من خارج كنعان، أي أن أهل كنعان لم يسموا أنفسهم «الكنعانيين».

وأما التوراة (سفر العدد 34: 1–12) فتحدد أرض كنعان التي وعدها الله لنبيه موسى على النحو الآتي:

«1 وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا:

«2 أَوْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. هذِهِ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي تَقَعُ لَكُمْ نَصِيبًا. أَرْضُ كَنْعَانَ بِتُخُومِهَا:

3 تَكُونُ لَكُمْ نَاحِيَةُ الْجَنُوبِ مِنْ بَرِّيَّةِ صِينَ عَلَى جَانِبِ أَدُومَ، وَيَكُونُ لَكُمْ تُخْمُ الْجَنُوبِ مِنْ طَرَفِ بَحْرِ الْمِلْحِ إِلَى الشَّرْقِ،

4 وَيَدُورُ لَكُمُ التَّخْمُ مِنْ جَنُوبِ عَقَبَةِ عَقْرَبِّيمَ، وَيَعْبُرُ إِلَى صِينَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ مِنْ جَنُوبِ قَادَشَ بَرْنِيعَ، وَيَخْرُجُ إِلَى حَصَرِ أَدَّارَ، وَيَعْبُرُ إِلَى عَصْمُونَ.

5 ثُمَّ يَدُورُ التَّخْمُ مِنْ عَصْمُونَ إِلَى وَادِي مِصْرَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ الْبَحْرِ.

6 وَأَمَّا تُخْمُ الْغَرْبِ فَيَكُونُ الْبَحْرُ الْكَبِيرُ لَكُمْ تُخْمًا. هذَا يَكُونُ لَكُمْ تُخْمُ الْغَرْبِ.

7 وَهذَا يَكُونُ لَكُمْ تُخْمُ الشِّمَالِ. مِنَ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ تَرْسُمُونَ لَكُمْ إِلَى جَبَلِ هُورَ.

8 وَمِنْ جَبَلِ هُورَ تَرْسُمُونَ إِلَى مَدْخَلِ حَمَاةَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُ التَّخْمِ إِلَى صَدَدَ.

9 ثُمَّ يَخْرُجُ التَّخْمُ إِلَى زِفْرُونَ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ حَصَرِ عِينَانَ. هذَا يَكُونُ لَكُمْ تُخْمُ الشِّمَالِ. 10 وَتَرْسُمُونَ لَكُمْ تَخْمًا إِلَى الشَّرْقِ مِنْ حَصَرِ عِينَانَ إِلَى شَفَامَ.

11 وَيَنْحَدِرُ التَّخْمُ مِنْ شَفَامَ إِلَى رِبْلَةَ شَرْقِيَّ عَيْنٍ. ثُمَّ يَنْحَدِرُ التَّخْمُ وَيَمَسُّ جَانِبَ بَحْرِ كِنَّارَةَ إِلى الشَّرْقِ.

12 ثُمَّ يَنْحَدِرُ التَّخْمُ إِلَى الأُرْدُنِّ، وَتَكُونُ مَخَارِجُهُ عِنْدَ بَحْرِ الْمِلْحِ. هذِهِ تَكُونُ لَكُمُ الأَرْضُ بِتُخُومِهَا حَوَالَيْهَا».

ويبدو أن حدود كنعان لم تكن ثابتة، إذ إنها تختلف من نص تاريخي لآخر، ومن فترة زمنية لأخرى، لكنْ، يتفق أغلب الباحثين على أنها المنطقة الممتدة من وادي العريش بقطاع غزة بفلسطين جنوبًا، وحتى شمالي أعالي جبال لبنان شمالًا، والبحر الأبيض المتوسط غربًا، وحفرة الانهدام (سهل البقاع، جبال الجولان وغور الأردن، والبحر الميت شرقًا) (Hackett 1997: 409). وبلغ الكنعانيون قمة ازدهارهم خلال العصر البرونزي الأخير، وإن بزغ نجمهم خلال العصور البرونزية القديمة والمتوسطة (Tubb 1998). من هنا نرى أن الإسرائيليين كانوا يبحثون عن وطن لهم، لذا طالبهم موسى بالاستيلاء على أرض كنعان، فهي ليست أرضهم ولم يرثوها عن أسلافهم. وهذا يثبت لنا أن فكرة الوطن عند بني إسرائيل تختلف عن غيرهم من الأمم، إذ إنها جاءت بعد ظهور بني إسرائيل إلى حيز الوجود، أي أن الوطن جاء بعد وجود القوم.

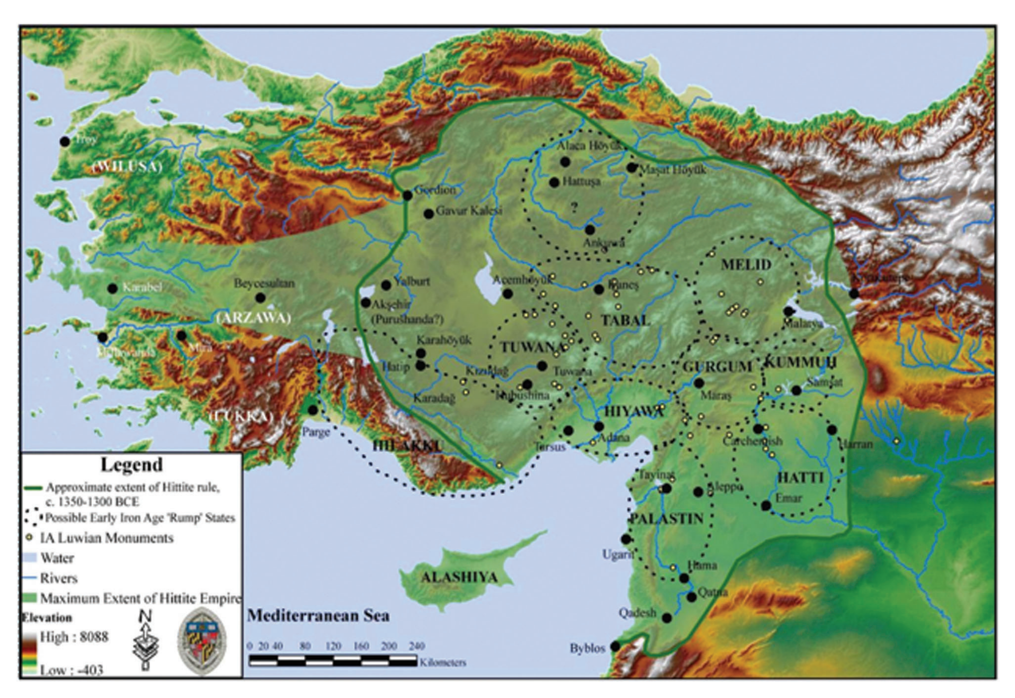
أما الشواهد الأثرية على وجود الكنعانيين، فنستطيع القول إنها غير موجودة، فلم يُعثر حتى الآن على أي دليل مادي مكتوب عليه أنه كنعاني، أو صُنع في كنعان. وحتى نفسر الأمر بشكل أوضح، عُثر في بعض القصور الآشورية كتابة تنص على أن من بناه هو الملك الآشوري فلان، ولم يُعثر على مثل هذا في كنعان حتى الآن (الغول 2016: 13). لكنَّ الآثاريين ينسبون ما عُثر عليه في البقعة المحددة أعلاه وتعود للعصور البرونزية إلى كنعان، ويسمونها الآثار الكنعانية.

أما بخصوص اسم «فلسطين»، فيرى كثير من الباحثين أنه جاء مع قبائل شعوب البحر الخمس التي هاجرت بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد نتيجة لقحط حلَّ ببلاد اليونان/ مايسينيا، واستقرت على سواحل البحر المتوسط الشرقية. ومن هذه القبائل قبيلة اسمها «البلست» التي استقرت في الجزء الجنوبي من السهل الساحل الفلسطيني، وأعطت اسمها للمنطقة هذه(Albright 1969) . ورد ذكر اسم شعوب البحر لأول مرة في رسائل تل العمارنة، المؤرخة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، حيث ترد إشارات مصرية تصفهم بأنهم

كانوا محاربين وبحارة عملوا جنودًا مرتزقة لمن يستأجرهم (Dothan and Dothan 1992).

لم يستخدم الاسم «فلستيا/ فلسطين» للدلالة على منطقة جغرافية قبل حوالي 800 قبل الميلاد، حين ورد في السجلات الأشورية من أيام الملك «أدد نيراري الثالث»، على مسلة له تعود للسنة الخامسة من حكمه ذكرت أن قواته أخضعت «فلستو Palastu»، وأجبرت أهلها على دفع الجزية. وتكرر ذكر «فلستيا» في السجلات الآشورية من عهد ملوك آخرين، من أمثال تيجلات- بيلاسر الثالث (734 ق.م.). وتحول الاسم من «فلستيا» إلى «بالستاين»عند المؤرخين والرحالة الإغريق، مثل هيرودتس، باعتبارها المنطقة الجغرافية الممتدة على الجزء الجنوبي من بلاد الشام. أما الكتاب الروم، من أمثال سترابو وديودور، فقد ذكروا أن مصطلح «بالستاين» الجغرافي يشمل الأرض المقدسة، وأخذ هذا المصطلح صفته الرسمية خلال العصر البيزنطي ، أي بعد دخول الناس في هذه المنطقة في الديانة المسيحية والاعتراف بها كدين رسمي للدولة البيزنطية ابتداء من حكم هدريان في حوالي 324م (إبراهيم 2010: 11-13).

ومن المفيد القول أن بعض الباحثين العرب، مثل كمال صليبي وفاضل الربيعي، اقترح خلال العقود القليلة الماضية أن أصل اليهود كان في الجزيرة العربية ولم يكن في كنعان، واعتمد هؤلاء في مقترحهم على الاشتقاق اللغوي لأسماء المواقع والأماكن الواردة في التوراة وما هو موجود على أرض الواقع في الوقت الحاضر. كما وضعها آخرون في شمال غربي سوريا الحالية (الشكل 34)، فاعتمادًا على ورود الاسم «بلستين» في نقش «لوفي» عُثر عليه في معبد إله العاصفة في قلعة حلب قبل بضع سنوات، اقترح الأمريكي/ الكندي تيموثي هاريسون(Timothy Harrison) أن مملكة «بلستاين» كانت في أعالي نهر العاصي، وكانت عاصمتها موقع «تل تينات/ طعينات» الحالي، وأن هذه المملكة سيطرت على مدينة حلب خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد (Harrison 2009; 2013: 76 - 77).



Early Iron Age Syro-Hittite States Emerge from Hittite Empire Collapse

شكل 34 : خارطة تبين الممالك الحثية – اللوفيه في الأناضول وشمال غربي سوريا
(بإذن من تيموثي هاريسون)

خاتمة الكلام بخصوص الأرض الموعودة اعتمادًا على ما ذُكر أعلاه، فإننا لا نستطيع الجزم بحدود الأرض الموعودة جغرافيًا، حتى لو اعتمدنا النصوص التوراتية. فلا حدود كنعان، ولا الأرض المقدسة، محددة بشكل دقيق.

7

الفصل السابع

دراسات القدس بين المنهجين المتشدد والمقل

الفصل السابع

دراسات القدس بين المنهجين المتشدد والمقل

مقدمة:

ساد العالمين (المشرق والمغرب) خلال الفترة السابقة للإسلام ديانات وعقائد مختلفة، منها النصرانية (المسيحية)، واليهودية، والوثنية، والمجوسية. وقد عاش وتعايش أبناء هذه الديانات، خاصة في الجزيرة العربية، جنبًا إلى جنب دون أية مشاكل وحروب كبرى تذكر؛ فكنت تجد المعبد والكنيسة والكنيس مبنية جنبًا إلى جنب في نفس المنطقة. هذا التسامح الديني لم يعد موجودًا منذ الحروب الصليبية وحتى الوقت الحاضر، وحل محله الخصام بدلًا من الوئام في كثير من الحالات. وبعد أن خرجت أوروبا من ظلمة العصور الوسطى، وجدت أصولها في الحضارتين اليونانية والرومية. وبما أن الديانة المسيحية هي الدين الشائع في الدول الأوروبية والأمريكية، فقد رأى سكان هذه القارات، وخاصة في أوروبا، أن الأسفار التوراتية (العهد القديم والعهد الجديد) هي الموروث الديني لسكان العالم الغربي. وحاول الغربيون أن ينسجوا من المرويات التوراتية حقائق تاريخية ودينية، أي أن الرواية الدينية تحولت إلى حقيقة تاريخية. أدى هذا الوضع في الحضارة الغربية إلى تغييرات عميقة في إدراك المجتمع الغربي لنفسه وتحديد هويته التاريخية والدينية مقابل الحضارات العالمية الأخرى الآسيوية والإفريقية. ومن هنا، دخلت الصهيونية اليهودية في رسم خطى العالم الغربي ورسم صورته أمام أصحاب الحضارات الأخرى، وكان النموذج التوراتي «شعب الله المختار» هو النمطية الغربية. وعزز هذا النموذج التوراتي عدة أحداث جرت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، وهي:

1. الثـورة الصناعيـة؛ إذ طغـى المـال علـى العقيـدة، كمـا أن الصناعـة أصبحـت بحاجـة لمـواد خـام تتوافـر في المشـرق، خاصـة في العالـم العربـي، ممـا دفـع الغـرب إلـى السـيطرة علـى الشـرق.
2. الثورة الفرنسية التي تتصف بالعلمانية ونادت بفصل الدين عن الدولة.
3. ثـورة مارتـن لوثـر الدينيـة وظهـور البروتسـتنتية، والتـي هـي في تعاليمهـا أقـرب للديانـة اليهوديـة مـن الكاثوليكيـة والأرثوذكسـية.

هـذه الأمـور الثلاثـة حكمـت العلاقـة بيـن المشـرق والمغـرب ابتـداء مـن القـرن التاسـع عشـر وحتـى الوقـت الحاضـر، فـكان لا بـد للعالـم الغربـي مـن الاسـتيلاء علـى مقـدرات المشـرق الدينيـة والاقتصاديـة حتـى يسـيطر علـى العالـم اقتصاديًـا وفكريًـا وعسـكريًا، وتصبـح هنـاك حضـارة غربيـة شـمولية. لكـن مـا هـو السـبيل إلـى ذلـك، ومـا هـي الوسـائل التـي يجـب اتباعهـا، إضافـة للقـوة العسـكرية؟ فكانـت المنـاداة بفكـرة «الأرض الموعـودة» لليهـود مـن يهـوه، وأنهـا يجـب أن تعـود إلـى الإسـرائيليين أصحابهـا الأُول، حتـى وإن كانـت مليئـة بالسـكان في الحاضـر. فأُسسـت الجمعيـات التبشـيرية، والجمعيـات، والمعاهـد، ومراكـز البحـث في كل مـا يتصـل بالأحـداث التوراتيـة مـن نـاس ومـكان وزمـان.

بعـد انتشـار الإسـلام فـوق منطقـة واسـعة نتيجـة للفتوحـات الإسـلامية، وسـيطرة المسـلمين علـى مناطـق واسـعة مـن العالـم خـلال العصـور الاسـلامية الأولـى، ومـن ضمنهـا جميـع الأراضـي المقدسـة، لـم يـرق هـذا للفرنجـة الغربييـن، فكانـت حمـلات الحـروب الصليبيـة التـي جـاءت للمنطقـة بحجـة حمايـة المقدسـات المسـيحية في الأراضـي المقدسـة. واسـتطاع هـؤلاء السـيطرة علـى البـلاد حوالـي المائتـي عـام، حتـى اسـتطاع الملـك صـلاح الديـن الأيوبـي الانتصـار عليهـم في معركـة حطيـن عـام 1187م، خـرج بعدهـا الفرنجـة مـن البـلاد وعلـى دفعـات، فحكـم الأيوبيـون البـلاد، تبعهـم المماليـك ثـم العثمانيـون، حتـى انتهـاء الحـرب العالميـة الأولـى في عـام 1917/ 1918م.

وعلى الرغم من أن البلاد أصبحت تحت الحكم الإسلامي بعد تحريرها من حكم الفرنجة، إلا أن الغربيين لم يتخلوا عن حلمهم في السيطرة على الأراضي والأماكن المقدسة. ونعتقد أن الأمر لم يقتصر على تحقيق أهداف دينية كما أُعلن، بل تعداه لأهداف اقتصادية وللأمل في سيطرة الحضارة الغربية على الحضارة الشرقية. ولتحقيق هذا المأرب كان الدين هو المسلك الذي سلكه الغربيون، فجاؤوا إلى منطقتنا يحملون التوراة بيد والمعول بيد أخرى.

شهدت الفترة اللاحقة لخروج الصليبيين من المنطقة قدوم الرحالة والمستكشفين للمنطقة، هدفهم جمع المعلومات عن البلاد والعباد في الأراضي المقدسة، وإرسال التقارير إلى بلدانهم (كفافي 2004: 24-35). إلا أن الأمر لم يقتصر على إرسال الرحالة والمستكشفين، بل تعداه في نهاية القرن الثامن عشر إلى القيام بحملات عسكرية، فكانت حملة نابليون على مصر، التي اصطحب فيها معه علماء وباحثين في دراسة التاريخ والآثار. ونرى أن هذه الحملة جاءت لتؤكد استمرار الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والذي بدأ بالصراع الفارسي اليوناني وقدوم الإسكندر المكدوني إلى هذه المنطقة، واحتلاله لبلاد الشام في عام 333ق.م.، عوضًا عن البحث في تلاقي الحضارتين.

وكما نوهنا في أكثر من مكان في هذا الكتاب فإنه ومع نهاية القرن التاسع عشر أصبح الهدف الأهم أمام الحركة الصهيونية، خاصة بعد مؤتمر بازل في عام 1896 ميلادية هو انشاء وطن لليهود. وبعد أن أصدر وزير خارجية بريطانية وعده بمنح اليهود وطنًا لهم في فلسطين، تركز البحث الأثري في عدد من المواقع المذكورة في التوراة واعتمد المنقبون مناهج لإثبات صحة ما جاء في النصوص التوراتية، نناقشها أدناه.

التوراتيون المحافظون (Maximalists)

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسست في أوروبا وأمريكا مدارس ومعاهد هدفها الأساسي إثبات صحة ما جاء في التوراة. وكانت جمعية استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund) التي تأسست عام 1865م أولى هذه الجمعيات، وأصدرت مجلة باسمها تنشر تقرير وأبحاث حول فلسطين ابتداء من عام 1865م وحتى الوقت المعاصر. وحتى يقترن القول بالفعل، كان لا بد من وجود إثباتات مقنعة للناس بأن المرويات التوراتية صحيحة، فوجدت هذه الجمعيات في البحث عن الآثار المعاصرة للحدث التوراتي الوسيلة الفُضلى للوصول إلى تلك الإثباتات. لذا رأينا في الفصول السابقة كيف بدأت الرحلات الاستطلاعية والاستكشافية، ليس للقدس وحسب، وإنما لجميع المناطق التي شملتها القصص التوراتية، سواء في بلاد الرافدين، أو بلاد الشام، أو مصر، أو حتى الجزيرة العربية، وخاصة اليمن (كفافي 2004).

يعد الإسرائيليون أنفسهم من نسل يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، من نسل سام بن نوح المتسلسل من آدم (عليهم جميعًا السلام)، أي أنهم جميعًا من أصل واحد. وحتى يستطيعوا إثبات هذا الأمر، قسموا التاريخ الإسرائيلي اعتمادًا على التوراة إلى عدة مراحل زمنية، هي:

1. الآباء: إبراهيم وإسحق ويعقوب.
2. العبودية في مصر.
3. الخروج من مصر بقيادة موسى، والتيه في سيناء.
4. دخول الأرض الموعودة وتدمير المدن الكنعانية فيها.
5. زمن القضاة: بعد موت يشوع/ يوشع إلى شاؤول، أول ملك على إسرائيل.

6. المملكة الموحدة: فترة حكم كل من شاؤول وداود وسليمان (حوالي 1004 – 923ق.م).

7. انقسام المملكة إلى مملكتين: بيت عَمري (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها السامرة، ويهوذا في الجنوب، وعاصمتها أورشليم.

8. تدمير مملكة بيت عَمري وزوالها نهائيًا في الشمال على يد الملك الآشوري سرجون الثاني عام 722ق.م.

9. تدمير مملكة يهوذا وزوالها نهائيًا على يد الملك الكلدي نبوخذنصر عام 586ق.م.، وسبي جزء كبير منهم (أفراد الأسرة الحاكمة، والكهان، والصنّاع والحرفيون) إلى بابل.

10. عودة عدد كبير منهم من السبي البابلي بمرسوم من الملك الفارسي قورش عام 539ق.م.

ومن المعلوم أن الإله الرئيس لليهود هو يهوه، وحسب المرويات التوراتية فإن هذا الإله هو الذي وعد إبراهيم، وجدَّد وعده لإسحق ويعقوب بأن يهبهم الأرض الموعودة، وأن شعب إسرائيل هو المختار والمتميز عند الإله يهوه عن باقي شعوب الأرض. وتمتلئ النصوص التوراتية بلعنات تنصب على الشعوب الأخرى من كنعانيين وآراميين وآشوريين ومؤآبيين وعمونيين، وغيرهم. كما أنها تبشر بقدوم ملك مخلص ومعلم هو «مسيح» يحررهم ويؤسس لهم مملكة كبيرة تسيطر على كل الأمم. هذه هي الفكرة والأساس التي تقوم عليها الدراسات التوراتية، والتي بدأ الباحثون التوراتيون (Maximalists) يسعون إلى تثبيتها بالقيام بالحفريات والمسوحات الأثرية ودراسة وتحليل الكتابات والنقوش القديمة. هذا

المنهج كان له رواد، وعلى رأسهم الأمريكي وليم فوكسويل أولبرايت (William Foxwell Albright) الذي أجرى عددًا من الحفريات والمسوحات الأثرية في مناطق ومواقع على ضفتي نهر الأردن، نذكر منها على سبيل المثال: تل بيت مرسم (فلسطين)، وباب الذراع وأدر (جنوبي الأردن). وتعد مؤلفاته عن نتائج حفرياته في موقع تل بيت مرسم، وطريقة تفسيره للمادة الأثرية المكتشفة في الموقع، خاصة دراسة الفخار، المنهج والأساس الذي ارتكز عليه التوراتيون الآخرون في تفسير نتائج حفرياتهم الأخرى (Albright 1933; 1938; 1943). ولقد جمع عناوين مؤلفات وليم أولبرايت زملاء له يحكمهم نفس المنهج والتوجه في كتاب نُشر عام 1975 (Freedman MacDonald and Mattson 1975).

اعتمدت هذه المدرسة منهجية الربط بين الطبقات الأثرية والأواني أو الكسر المكتشفة فيها لتأريخ المكتشفات الأثرية. أي أن الطبقة السفلى أقدم تاريخيًا من الطبقة التي تعلوها، ويتثبت الآثاري من هذا الأمر عن طريق الفخار والقطع الأثرية المكتوب عليها تاريخها. وطبعًا رُبط تقسيم المادة الأثرية وترتيبها زمنيًا بالأحداث التاريخية اليهودية المذكورة أعلاه. وأوضح أولبرايت في الفصل العاشر المعنون بـ «The Old Testament and Archaeology»، وفي الفصل الحادي عشر والموسوم بـ «The New Testament and Archaeology» من كتابه «Archaeology of Palestine» رأيه في الربط بين الآثار وما ورد في التوراة من معلومات، وأفاد أن آثار فلسطين قلما تساعدنا في إلقاء الضوء على الشخصيات التوراتية لعدم ذكرها في الكتابات القديمة (Albright 1971: 219 – 250).

لكن هذا المنهج وهذه المنهجية تعرضت للنقد في العقود الأخيرة، كما سنبين أدناه.

المقلّون Minimalists:

ظلت الدراسات الأثرية في فلسطين خاصة أسيرة لتفسيرات الباحثين الغربيين الذين كانوا يأتمرون بأوامر ممولي بعثاتهم في الجمعيات والمعاهد والمراكز التوراتية، والذين وجدوا أنهم من خلال اكتشاف مواقع وآثار معاصرة للحدث التوراتي يستطيعون «إعادة بناء إسرائيل القديمة». وقامت الحركة الصهيونية تمهيدًا لاحتلال فلسطين بتوزيع عدد من الآثاريين وتمويلهم للقيام بحفريات أثرية في مواقع ذكرتها التوراة، ومنها القدس، وأريحا، وتل المتسلم (مجدو)، وتل الفارعة الشمالي. ونشر هؤلاء المنقبون أبحاثهم بعد أن اعتمدوا مصطلحات وجداول زمنية تتوائم مع الحدث والمصطلح التوراتي، كما ذكرناه أعلاه. وكانت أخبار نتائج هذه التنقيبات الأثرية تُنشر في الصحف والمجلات، فخرجت المسألة من النطاق الأكاديمي الضيق إلى النطاق العام الأوسع. وهذا كله صب في مصلحة الهدف الصهيوني، وهو إقناع المجتمع الغربي بإنشاء دولة لليهود في فلسطين. وبناء عليه كان وعد بلفور الذي صدر عام 1917م، تلته الهجرة اليهودية بمساعدة أوروبا، وخاصة بريطانيا بعد انتدابها على فلسطين، ثم تأسيس دولة إسرائيل على جزء من فلسطين عام 1948م، ومن ثم احتلال فلسطين كاملة عام 1967م.

عقب إحتلال إسرائيل للقدس في عام 1967م كانت هناك حفرية منظمة تقوم بها الإنجليزية كاثلين كنيون في منطقة الظهورة، والتي كان يعتقد أنها مدينة أورشليم، عاصمة داود وسليمان. وخرجت هذه المنقبة بنتائج لا تدعم وجهة النظر التوراتية، فنشرتها على استحياء في كتابها (Digging Up Jerusalem)، وبما أنها لم تستطع أن تكمل نشر نتائج حفرياتها نتيجة لوفاتها في عام 1978م، فقد أوكلت المدرسة البريطانية للآثار للهولندي هنك فرانكِن (Henk Franken) الذي أشرك معه الهولندية (مارغريت شتاينر

Margreet Steiner) بنشر ما اكتُشف من آثار في المربعات A /I–XXIX، وأضيف إليها بعد هذا ما عُثر عليه في المربعات H and B في حفرية كنيون. وبعد أن انتهيا من دراساتهما، نشرا تقارير نهائية لنتائج الحفريات عناوينها:

1. Excavations in Jerusalem 1961 - 1967. II. The Extramural Quarter on the South-East Hill.

2. Excavations by Kathleen M. Kenyon in Jerusalem 1961 - 1967, Volume III. The Settlement in the Bronze and Iron Ages.

وقد توصل الباحثان إلى أن المكتشفات الأثرية في حفرية كاثلين كنيون لا تطابق الوصف التوراتي لمدينة أورشليم عاصمة داود وسليمان في القرن العاشر، وأنها كانت قرية صغيرة غير مهمة.

بعد احتلال إسرائيل للقدس في عام 1967م، أجرى الباحثون الإسرائيليون وبعض علماء اللاهوت، وبشكل خاص من جامعة تل أبيب، عددًا كبيرًا من الحفريات في جميع مناطق القدس، بما في ذلك منطقة الحرم الشريف، بحثًا عن دلائل أثرية تخدم مشروعهم السياسي وتثبت حقهم التاريخي (حسب ادعائهم) في أرض فلسطين. وشارك في التنقيبات الأثرية هذه مختصون في شتى العلوم المتعلقة بدراسة البقايا الأثرية. ووصل بعضهم، مثل إسرائيل فنكلشتاين، وزئييف هيرتسوغ، وتوماس طومبسون، وفيليب ديفيس، ونيلز ليمكه، وإنغريد هيلم) إلى نفس النتيجة التي وصلت إليها كاثلين كنيون، وهي صعوبة الربط بين نتائج الحفريات الأثرية والمرويات التوراتية، خاصة تلك من القرن العاشر قبل الميلاد. وهذا لا يعكس، بطبيعة الحال، الصورة النمطية لمملكة إسرائيل الموحدة وعاصمتها أورشليم. ومن هنا، بدأت تظهر على الساحة أصوات من التوراتيين أنفسهم تطالب بوقفة مراجعة للمنهج البحثي التوراتي،

وبضرورة إعادة شاملة للخارطة المعرفية في تاريخ وآثار فلسطين التوراتي (وايتلام وآخرون 2004). وكان توماس طومبسون قد نشر في عام 1992 كتابه المشهور، والذي أحدث ضجة كبيرة بين صفوف التوراتيين المحافظين، وعنوانه:

Early History of the Israelite People from the Written and Archaeological Sources.

وكان طومبسون حين نشر كتابه أستاذًا للآثار في جامعة «مار -كويت» بولاية ميلواكي بالولايات المتحدة الأمريكية، لكنه طُرد من الجامعة بعد نشر الكتاب. وهنا يتبين لنا الصراع القائم بين البحث العلمي الرصين والتعصب لفكرة دينية وتاريخية. إن هذا التوجه الجديد يدعو للتحرر من العقلية اللاهوتية الضيقة وضرورة الوصول إلى فهم جديد لتاريخ إسرائيل القديم. ويعني هذا انهيار البناء التاريخي المعتمد على المرويات التوراتية التي تؤكد نظرية الخروج من مصر وغزو وتدمير المدن الكنعانية في فلسطين، أمام البيّنات الأثرية والوثائق التاريخية المكتوبة.

خلاصة الأمر إن البيّنات الأثرية والوثائق المكتوبة لا تقدم معلومات كافية عن قيام دولة في أورشليم خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. فمثلًا، لم يدرج الفرعون المصري شيشنق اسم مدينة أورشليم في قائمة المدن التي هاجمها في حملته على فلسطين عام 923 ق.م.، وهذا يدل على عدم أهميتها السياسية في القرن العاشر قبل الميلاد، حتى أن قائمته لم تذكر اسم يهودا. كما أن الكتابة التي عُثر عليها في كونتيلة عجرود تشير إلى اسم الإله يهوه في السامرة وليس في أورشليم. ويشكك طومبسون في كتابه بوجود إثنية مشتركة بين مملكتي السامرة ويهودا.

أدى ما كتبه طومبسون إلى نشوء مدرسة أكاديمية منذ عام 1994م مركزها مدينة كوبنهاغن، ينادي بضرورة إجراء مراجعة شاملة للنظريات والتفسيرات القديمة المعتمدة على النصوص التوراتية، وضرورة الخروج من تحت عباءة الفكر التوراتي.

انضوى تحت لواء هذه المدرسة باحثون عالميون، يجمعهم رأي واحد هو مراجعة نقدية للنصوص التوراتية، واستقراء المكتشفات الأثرية والنصوص التاريخية مبتعدين عن الأفكار المسبقة، واعتبار التوراة نصًا دينيًا وغير تاريخي. لقد أطلق المحافظون (Maximalists) على أعضاء هذا التيار الجديد اسم المقلّون (Minimalists). بل ووصل الأمر بالمحافظين أن نعتوا الراديكاليين بأنهم معادون للسامية ولإسرائيل، وللعهد القديم، وأنهم محرفون وراديكاليون (أبو طالب 2006ب: 167).

خلاصة الرأي، أننا نتفق مع الراديكاليين في أن إسرائيل الموصوفة في النصوص التوراتية لا توجد إلا في عقول من كتب الأسفار التوراتية، أي أنها اسطورة وليست حقيقة. ولم يبن هذا الرأي على عاطفة، بقدر ما استند على حقائق مدعمة بالإثباتات المكتوبة والآثار المكتشفة.

والمتابع لما يجري بين الباحثين الاسرائيليين وبعض الغربيين في اختلاف الرأي حول طبيعة القدس في القرن العاشر قبل الميلاد، وهل كانت هناك عاصمة أو مدينة أو عبارة عن قرية صغيرة، فإننا نرى الاختلاف بين الفريقين غير جوهري لأنهما يلرميان إلى هدف واحد، وهو حق اسرائيل في أرض فلسطين التاريخية. ونضرب أدناه مثلاً على ما ذهبنا إليه.

بين إسرائيل فنكلشتاين ويوسي غارفنكل: الاختلاف في المظهر والاتفاق في الجوهر

يعدُّ كل من «إسرائيل فنكلشتاين» و«يوسي غارفنكل» من علماء الآثار الإسرائيليين المعروفين، ليس على النطاق المحلي وحسب، وإنما على المستوى العالمي. ليس لأنهما آثاريان، وإنما لأنهما يبحثان في تاريخ إسرائيل القديم، ولهما وجهتا نظر مختلفتان حول وجود مملكة إسرائيل الفلسطينية (مملكة داود وسليمان). فالباحث الأول يرى

أن لا وجود لها، بينما يؤكد الآخر أنه عثر على دلائل أثرية تثبت وجودها. واختلاف وجهتي النظر يمثلان رأيين صهيونيين متناقضين، ففنكلشتاين يمثل وجهة النظر العلمانية، أما غارفنكل فينهج منهجًا ينتهجه اليمين الإسرائيلي لتوسيع أراضي الدولة الصهيونية. ويجب أن نوضح أن غارفنكل من الذين يصرون أن العهد القديم يجب أن يؤخذ بالمعنى الحرفي، على عكس رأي فنكلشتاين ومدرسته التي تنادي بعدم الاتكاء عليه في كل صغيرة وكبيرة؛ فمثلًا ينكر فنكلشتاين المعلومات التي نشرها بعض الآثاريين الإسرائيليين عن مبان اكتُشفت في مواقع، مثل تل وقاص «حاصور»، وتل المتسلم «مجدو»، وتل الجزر «جيزر»، وقولهم إنها بُنيت في عهدَي الملكين داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد. ويرى فنكلشتاين أنها قد شيدت خلال القرن التاسع قبل الميلاد، وأن القدس لم تكن في القرن العاشر قبل الميلاد سوى هضبة أو قرية صغيرة، وأن داود لم يكن يملك جيشًا كبير العدد كثير العدة، كما وصفته التوراة.

وكي يدحض الآثاريون التوراتيون الإسرائيليون قول فنكلشتاين زعموا أنهم عثروا على منشآت أثرية تخص الملكين داود وسليمان؛ فهذه الإسرائيلية إيلان مازار تزعم أنها عثرت على قصر الملك داود في القدس، بينما يزعم يوسي غارفنكل أنه عثر على أطلال مدينة يهودية تعود لفترة حكم الملك داود في منطقة وادي السنط، في موقع يسمى خربة قيافة، يقع على بعد ثلاثين كيلومترًا إلى الجنوب الغربي من مدينة القدس. وتجب الإشارة هنا إلى أن غارفينكل اعتمد في تأريخه لموقع «خربة قيافة» في القرن العاشر قبل الميلاد، على تحليل أربع نوات زيتون عُثر عليها في الموقع، باستخدام الكربون الإشعاعي، وعلى مظاهر معمارية ينسبها الباحثون التوراتيون لهذه الفترة، مثل وجود بوابتين مبنيتين في السور المحيط بالموقع. وتُرجم كلمة «بوابتان» إلى اللغة العبرية بـ«شعرايم שערים»، وهي مدينة ذُكرت في التوراة؛ فمثلًا، ورد في أحد الأصحاحات أن البلستنيين هربوا من داود عبر طريق شعرايم إلى مدينتهم غات (سفر صموئيل الأول 17: 52).

من هنا نرى أن غارفينكل اعتمد في روايته على النصوص التوراتية، وعلى نتائج تحليل أربع نوات زيتون بواسطة الكربون الإشعاعي، لكنه لم يذكر بالمقابل حجم المساحة التي نقب عنها في الموقع، والتي لا تتجاوز 5٪. ونحسب أن لغارفينكل أجندة شخصية، إضافة للأيدولوجية. ولا ينبغي أن نغفل، على أية حال، عند استخدام تواريخ الكربون الإشعاعي، عن أن هذه التواريخ تحتمل الزيادة والنقصان، أي أنها تشتمل على هامش خطأ يُقدر بحوالي أربعين سنة، كما أن القراءات تختلف باختلاف المختبرات.

8

الفصـــــــــل الثامن

أورشليم/ أورسالم الكنعانية/ اليبوسية

الفصل الثامن

أورشليم/ أورسالم الكنعانية/ اليبوسية

تشكل فلسطين بكل الأحوال الجزء الجنوب الغربي لبلاد الشام، وهي لا تنفصل بجغرافيتها، أو تاريخها أو حتى سكانها عن بلاد الشام، فهي بهذا تعدُ جزءًا من كلٍ. وتشير الدلائل الأثرية المكتشفة في فلسطين أن الناس، بغض النظر عن جنسهم أو عرقهم، سكنوا في هذه البلاد قبل نحو مليون ونصف المليون سنة، بدلالة ما اكتُشف من بقايا أثرية وإنسانية في جبال الجليل والكرمل وغور الأردن (Garrod and Bate 1937). ولا تزال هذه البقعة من الأرض معمورة بسكانها حتى الوقت الحاضر دونما أي انقطاع أو فجوة سكانية. وقد شهدت فلسطين كغيرها من مناطق بلاد الشام الأخرى التحول الاقتصادي من الصيد والجمع والتجوال في طول البلاد وعرضها إلى الاستقرار في قرى زراعية كبيرة، بنى أهلها البيوت والتحصينات، وأفضل مثال على مجتمعات الفلاحين الأوائل جاء من موقع تل السلطان في أريحا (Kenyon 1957). وبما أن عصور ما قبل التاريخ خلت من الكتابة، فلا نستطيع القول من هم سكان فلسطين في تلك الفترات، لكننا نستدرك ونقول إن الموقع الجغرافي يقضي، بما أن فلسطين كانت ولا تزال تعدُّ حلقة اتصال عالمي بين قارات آسيا، وافريقيا، وأوروبا، فقد سكنتها عناصر من جنسيات وأعراق مختلفة إلى جانب سكانها الأصليين.

وشهد الألف الرابع قبل الميلاد ظهور أنماط اقتصادية واجتماعية أدت إلى ظهور المجتمعات المتمدنة، وبناء المدن خاصة مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد، أي في حوالي 3000 – 2900 قبل الميلاد، ومن الأمثلة على هذه المدن في فلسطين تل المتسلم في سهل مرج ابن عامر، وتل عراد على الأطراف الشمالية الشرقية لصحراء

النقب. ومن المعلوم للآثاريين أن معظم هذه المدن دُمر مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد لسبب ما، فتحول معظم سكانها إلى أنصاف بدو، أي يمارسون نوعًا بسيطًا من الزراعة إلى جانب الرعي وتربية الماشية.

مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد عادت المدن في جنوبي بلاد الشام إلى الظهور مرة أخرى، فسكن الناس المدن والقرى إلى جانب المجتمعات البدوية. وقد كشفت الحفريات الأثرية التي جرت في مواقع متعددة من بلاد الشام، مثل تل الحريري (ماري)، ورأس شمرة (أجاريت) عن معلومات تحدد جنس سكان هذه المنطقة وطبيعة حياتهم. وبالفعل كان هناك ذكر للحضر الكنعانيين والبدو الأموريين (كفافي 2011: 249 – 255). ويوصف المجتمع الكنعاني بأنه متحضر عاش في مدن ومراكز حضارية، وكانت التجارة هي الأساس الذي ارتكز عليه الاقتصاد. كما كان المجتمع الكنعاني متعدد الطبقات، فكان فيه الغني والفقير، والتاجر والعامل والفلاح. وكانت للكنعانيين ديانتهم الخاصة، تجلت في تعدد الآلهة وتقديم الأضحيات لها، وأكد هذا الأمرَ النصوص التي وُجدت في موقع رأس شمرة بسوريا وتؤرخ لحوالي 1400 قبل الميلاد (Kenyon 1963; Miller P.D. 1981; Tubb 1998).

تمتعت بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (حوالي 2000 – 1550 قبل الميلاد) بنوع من الحرية السياسية، وساد فيها نظام يعرف باسم المدينة – الدولة (City–State)، أي أن لكل مدينة حاكم، وتحكم نفسها بنفسها. وبقي هذا النظام سائدًا في فترة العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 – 1200 قبل الميلاد)، أي المرحلة السابقة لتشكيل الدولة الوطنية(National State) مع بداية العصر الحديدي (حوالي 1200 قبل الميلاد). ونتيجة لطرد الهكسوس من مصر، وتأسيس الدولة الحديثة فيها، أخضع الفراعنة المصريون، وعلى رأسهم الفرعون تحتموس الثالث (حوالي 1490 – 1436 قبل الميلاد) الجزء الواقع إلى الجنوب من مدينة

حلب لسيطرتهم. وقد ترك هؤلاء الفراعنة قوائم بأسماء الأقوام والمدن التي هزموها وسيطروا عليها، ونذكر منهم: «النيجس Neges»، والحوريون، والشاسو، والكنعانيون، والعابيرو (Wilson 1969: 246 – 247). كما ساعدتنا تلك القوائم في التعرف على التوزيع الجغرافي لهذه الجماعات، فمثلًا سكن النيجس شمالي سوريا الحالية، والحوريون والكنعانيون في فلسطين، والشاسو بواديَ جنوبي بلاد الشام، وربما سيناء أيضًا. كما حددت تلك القوائم طبيعة العمل والطبقة الاجتماعية لكل جنس من هؤلاء السكان، فكان هناك «الماريانو»، وهم طبقة الأشراف ومحاربي العربات، والكنعانيون وهم التجار، أما العابيرو «Apiru/'Abiru» فلم يشكلوا جنسًا أو عرقًا واحدًا، بل كانوا خليطًا من الأجناس ويعملون مرتزقة (Ahlström 1993: 235). وبما أن جنوبي بلاد الشام، خاصة فلسطين، وقع تحت الحكم الفرعوني خلال العصر البرونزي المتأخر، فقد سكنت في عدد من المدن الفلسطينية، مثل غزة وتل المتسلم وبيسان، جاليات مصرية، وعيَّن الفرعون في كل مدينة مندوبًا ساميًا مصريًا أسمته الوثائق الفرعونية «رابسو»، وتعني «مفوضًا أو مفتشًا».

كما ذكرنا أعلاه، فإضافة للمجتمعات الحضرية (سكان المدن والقرى)، انتشرت في بلاد الشام قبائل بدوية تنقلت في جنوبي بلاد الشام وسيناء خاصة، أسمتهم الوثائق الفرعونية «شاسو»، ويعتقد بعض الباحثين (Ahlström 1993:276) أنهم هم «السوتيون» الذين ذكروا في الوثائق الأكادية وفي رسائل تل العمارنة.

هذا عن السكان في فلسطين في المرحلة السابقة لتشكيل ما نعرفه باسم «الدولة اليهودية الموحدة» إلى جانب عدد من الدول الأخرى مع بداية الألف الأول قبل الميلاد. لكن هل كانت هذه البلاد خالية من المدن الكبيرة، أو المراكز الحضارية؟ تَرِد الإجابة من خلال نتائج الحفريات الأثرية التي أُجريت في عدد من المواقع الأثرية في فلسطين، مثل تل وقاص، وبيسان، وتل المتسلم، وتل تعنك،

وأريحا، وتل العجول، وغيرها الكثير. وثبت بالوجه القاطع أن البلاد كانت بسواحلها وجبالها وأغوارها ونقبها مأهولة بالناس وبالمواقع الحضرية. وكان لسكانها اتصالات بالمحيط القريب والبعيد. وثبت هذا من تشابه المادة الأثرية المكتشفة، فعُثر، مثلًا، على أوان فخارية وغيرها مستوردة من قبرص وبلاد اليونان ومصر. وهذا يؤكد بشكل قاطع أن فلسطين كانت عامرة بأهلها قبل الخروج من مصر والدخول إلى فلسطين. وقد تحدثت الوثائق والكتابات، خاصة الفرعونية منها، عن المدن الكنعانية بأسمائها وأسماء ملوكها.

ينقلنا هذا الكلام إلى السؤال التالي وهو: كيف استطاعت هذه المجتمعات البدوية -حسب رأي التوراة- الدخول إلى فلسطين والسيطرة على أجزاء منها، وتشكيل دولة فيها، بما أن فلسطين كانت مليئة بالمراكز الحضارية؟ وسنحاول أدناه أن نجيب على مجموعة من الأسئلة، وهي، هل دخل الإسرائيليون إلى فلسطين؟ ومن أين جاؤوا؟

شغلت الإجابة على السؤال عن طريقة دخول الإسرائيليين إلى أرض كنعان الباحثين قبل وبعد تأسيس المدارس والمعاهد الأثرية الأوروبية والأمريكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبقي يشغلهم حتى الوقت الحاضر. وحتى يستقيم الأمر لهم اتخذوا من البقايا الأثرية وسيلة، وربطوا بينها وبين الحدث التوراتي، وأسسوا لهذا الغرض المناهج والطرق البحثية. وقد تطور المنهج التوراتي عبر السنوات من خلال وضع نظريات لم تخلع، كلها، عباءة التوراة عن أكتافها. ونستعرض أدناه، وبشكل مختصر، مجموعة من هذه النظريات، كان قد درسها وناقشها باحثون قبلنا، ومنهم غسان نجاجرة الذي ناقش الموضوع برمته في رسالته للماجستير التي قدمها لجامعة اليرموك، وأشرف عليها مؤلف هذا الكتاب (نجاجرة 2012).

والسؤال الذي يجب الإجابة عليه من أين جاء الاسم «إسرائيل»، ولماذا سمي اليهود بالإسرائيليين؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد من القول أن اليهود واعتماداً على النص التوراتي، وكما ذكرنا أعلاه (الصفحة 137)، يعدون أنفسهم من نسل «أبرام» الذي هو «إبراهيم» والذي أنجب كلاً من إسحق من زوجته «سارة» وإسماعيل من جاريته المصرية «هاجر». وأن إسحق أنجب من زوجته ولدين هما «يعقوب» و«عيسو». وجاء في سفر التكوين الإصحاحات 24-28 أن الرب أطلق على يعقوب اسم «إسرائيل»، وعلى النحو أدناه:

24 فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ.

25 وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ.

26 وقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي».

27 فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ».

28 فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ».

وبناء عليه، فإن اليهود يعتبرون أنفسهم من نسل يعقوب، لذا سموا أنفسهم باسم الإسرائيليين. وبطبيعة الحال فإم هذا الوصف لا ينطبق على اليهود الحاليين، فكثير منهم من أعراق وأجناس متعددة.

ذكرت كلمة «اسرائيل» لأول مرة في نص مسلة الفرعون المصري مرنبتاح (1213-1204 قبل الميلاد)، وأطلقت على أرض وليس على شعب (انظر الفصل

الثامن من هذا الكتاب). وحتى بعد انقسام المملكة الموحدة (ولا نعرف إن كان اسمها اسرائيل) بعد موت الملك سليمان في حوالي عام 923 قبل الميلاد إلى مملكتين شمالية وسميت ب» السامرة»، والجنوبية وأطلق عليها اسم «يهوذا» ، إذن لم تسم أي وحدة سياسية منهما اسمها باسم «اسرائيل». والمصدر الوحيد الذي سمى مملكة السامرة باسم اسرائيل هو الملك المؤآبي ميشع في مسلته التي يخلد فيها انتصاره على آحاب بن عمري ملك اسرائيل. من هنا لا بد من الاستنتاج أن الاسم «اسرائيل» لم يطلق على أية وحدة سياسية في المنطقة خلال العصور الحديدية المبكرة. ومن الممكن الإضافة بأن هناك فرق بين الإسمين «اسرائيل» الذي منحه الرب لشخص يعقوب، و»اليهود واليهودية» وهذه تسمية أطلقت على الديانة الموسوية وليس على شخص أو شعب.

1. النظرية التوراتية التقليدية (نظرية احتلال كنعان بالقوة):

تعتمد هذه النظرية على السرد القصصي التوراتي، والتي تلتزم بما ورد في التوراة، بأن الإسرائيليين خرجوا من مصر بقيادة موسى وأخيه هرون، وأنهم تاهوا مدة أربعين سنة في الصحراء، لكنهم استطاعوا الدخول إلى أرض كنعان واحتلال مجموعة من مدنها بالقوة، أي الاحتلال العسكري خلال العصر الحديدي الأول (حوالي 1200 – 1000 قبل الميلاد). وصاحب هذه النظرية هو الأمريكي وليم فوكسول أولبرايت (William Foxwell Albright)، والذي نقب في ثلاثينيات القرن الفاءت عن موقع «تل بيت مرسم» الواقع قرب مدينة الخليل. وناقش أولبرايت طريقة احتلال الإسرائيليين لأرض كنعان في مقالة نشرها في عام 1935م، عنوانها:

Albright, W. F. 1935; Archaeology and the Date of the Hebrew Conquest of Palestine. *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 58: 10 - 18.

رصد أولبرايت في هذه المقالة نتائج الحفريات التي أُجريت في مواقع فلسطينية ذكرت النصوص التوراتية أن الإسرائيليين هاجموها، مثل مدن: أريحا، وبيتين (بيت إيل)، وتل الدوير (لاخيش)، وتل بيت مرسم، وتل المتسلم (مجدو). فعلى سبيل المثال ذكر أن الاحتلال الإسرائيلي لموقع تل بيت مرسم حدث في الفترة بين حوالي 1250 – 1200 قبل الميلاد؛ إذ أظهرت نتائج الحفريات في الموقع طبقة أثرية مدمرة تؤرخ لهذه الفترة. وقابل هذه النتائج بما ورد عن بني إسرائيل في سفرَي يشوع والخروج (Albright 1935: 10 – 16).

بعد تأسيس دولة إسرائيل في عام 1948م، واحتلال الضفة الغربية في عام 1967م، أعاد الآثاريون الإسرائيليون التنقيب عن عدد من المواقع المذكورة أعلاه، للتأكد من النتائج التي نشرها أولبرايت، خاصة التسلسل التاريخي للاستقرار الإسرائيلي فيها. خاصة وأن بعض النتائج التي نشرها أولبرايت لا تتوافق تمامًا مع النص التوراتي (Albright 1939: 11 – 12)، كما أن باحثين آخرين، مثل الألماني مارتن نوت (Martin Noth)، عارضوا المنهج الذي اتبعه أولبرايت في استخدام نصوص العهد القديم للتأريخ، وتتبع الهجمات العسكرية الإسرائيلية على المدن الكنعانية (Noth 1948; 1958).

وأفضل مثال على التناقض الحاصل بين القصص التوراتية ونتائج الحفريات الأثرية هو تفسير الظواهر الأثرية المكتشفة في موقع التل (بالقرب من مدينة القدس) على أنها تخص موقع (عاي Ai) المذكور في التوراة بحسبما ذكر أولبرايت، على الرغم من أن الحفريات الأثرية التي أجراها كل من جون غارستنغ (John Garstang) في عام 1928م، وجوديث ماركيوت-كراوزه (Judith Marquet – Krause) بين الأعوام 1933 و1935م، وجوزيف كالاوي (Joseph Callaway) بين الأعوام 1964 و1970م في الموقع، أشارت إلى أنه ازدهر كمدينة في الفترة التي تعرف باسم العصر البرونزي

الثاني (النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد)، وهُجر بعدها ولم يُستوطن إلا في بداية العصر الحديدي (Callaway 1993). إذن أين مدينة العصر البرونزي المتأخر التي دمرها الاسرائيليون؟ على أية حال، وحتى يخرج أولبرايت من هذه الورطة نجده يشير في بحث آخر إلى وجود جماعات من الإسرائيليين في كنعان حتى قبل دخول الإسرائيليين (Albright 1940: 276 – 278). والأدهى والأمر في فشل نظرية الاحتلال بالقوة للمدن الكنعانية في فلسطين، يتمثل في أنه لم يُعثر في موقع تل السلطان/ أريحا على أية بقايا للمدينة التي هاجمها يشوع ودمرها. وهنا يقترح أولبرايت أن طبقة دمار المدينة على يد يشوع اختفت لأسباب بيئية أدت إلى تجريفها، فلم يُعثر عليها (Albright 1963: 27 – 28).

تبع أولبرايت في نظريته التي تقول بأن الإسرائيليين دخلوا كنعان عنوة لتتوائم والقصة التوراتية، مجموعة من الباحثين على رأسهم جورج إيرنست رايت (Wright 1940) ويغال يادين (Yadin 1982: 17 – 18). إذ يؤكد رايت صحة الحدث التوراتي، ويرتب توالي انهيار وسقوط المدن الكنعانية بيد الإسرائيليين زمنيًا على النحو الآتي: تل الدوير في عام 1230 ق.م.، تل المتسلم في عام 1100 ق.م. ومن بعدها بيسان، القدس، وتل الجزر حتى تنصيب داود ملكًا على إسرائيل واحتلاله لباقي الأراضي الفلسطينية (Wright 1940 :26). كما يقترح رايت الذي نقب عن تل بلاطه (شكيم) أن الموقع لم يتعرض للهجوم، لأنه كان مسكونًا عند دخول الإسرائيليين من قبل نسل يعقوب الذين لم يغادروا إلى مصر (Wright 1960: 446 – 471). وينكر باحثون آخرون احتلال كنعان بالقوة من قبل القبائل الإسرائيلية، ومنهم أيضًا باحثون إسرائيليون، مثل يوحنان أهاروني (Yonan Aharoni) الذي تركزت أبحاثه على منطقة النقب، وذكر أنها كانت خالية من التحصينات العسكرية في زمن دخول الإسرائيليين، فلا يمكن أن تكون قد دُمرت، كما ورد في سفر يشوع (Aharoni 1976: 71 – 75).

2. نظرية التسرب السلمي:

صاحب هذه النظرية هو الألماني ألبرشت ألت (Albrecht Alt)، والذي ناقش قضية دخول بني إسرائيل وسكناهم في أرض كنعان في مقالة نشرها عام 1925م (Alt 1925). وطالب ألت بضرورة الاعتماد على المصادر الفرعونية المكتوبة المؤرخة للفترة السابقة للخروج من مصر؛ لأنها تتضمن معلومات كاملة حول ما كان يجري فيها في تلك الفترة. وأكد في بحثه ضرورة أخذ التقسيمات الجغرافية لأرض كنعان بالاعتبار عند الحديث عن طبيعة وحياة سكان تلك المناطق وفي المقاطعات السياسية. ويرى أن الطبيعة الجغرافية وبيئة المنطقة أثرت على التوزيع السكاني في هذه البلاد وعلى إنشاء وحدات سياسية واصلت اتباع نظام المدينة- الدولة الذي ساد في العصر البرونزي المتوسط (حوالي 2000 – 1550 ق.م.)، لكنه اختلف في العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550–1200 ق.م.) في أن الفرعون المصري هو الذي كان يعين حكام المدن، إضافة إلى وجود مندوب سام مصري في المدن الكبرى. كذلك فقد تركزت دويلات المدن في فلسطين في المناطق الساحلية والسهلية، بينما قلت في المرتفعات الجبلية. ونتيجة لوعورة المناطق الجبلية صعب على الفراعنة السيطرة عليها عسكريًا، مما دفع إلى استقرار قبائل بدوية فيها بسبب توفر المراعي، وأسمت كل قبيلة المنطقة التي سكنتها باسمها، وهذا يتماشى مع النص التوراتي، خاصة في أسفار القضاة ويشوع وصموئيل. ويؤكد آلت (Alt 1925: 205 – 215) أن هذه القبائل استمرت في الاستقرار في نفس المناطق خلال العصر الحديدي (حوالي 1200 – 596 ق.م)، لكنْ، وبعد أن استقر بها المقام في بعض المرتفعات الجبلية أخذت تهاجم المراكز الحضارية الكنعانية، مثل تل وقاص في سهل الحولة (Aharoni 1979: 191 – 192).

لقيت نظرية التسرب السلمي ترحيبًا من عدد من الباحثين من أمثال تيوفيل ميك (Theophil Meek) الذي قال إن كثيرًا من المدن الكنعانية لم يُدمر خلال دخول

الإسرائيليين بقيادة يشوع، وأكد عدم الأخذ بحرفية النص التوراتي (Meek 1936: 17 – 19). ووافق مارتن نوت (Martin Noth) هذا الرأي، وأقترح أن التسرب السلمي جرى بقيادة أكبر القبائل اليهودية التي وجدت آنذاك شرقي نهر الأردن، ثم دخلت وسكنت تدريجيًا في المرتفعات الجبلية الواقعة غربي النهر (Noth 1948: 51أ71 – 74; 1958: 68 – 53). وأيد هذه الأفكار والمقترحات الألماني مانفريد فايبرت (Manfred Weippert) الذي قال أيضًا إن القبائل اليهودية توحدت بعد دخولها أرض كنعان والاستقرار فيه، لكنه لم ينكر أنها هاجمت المدن الكنعانية رغبة منها في التوسع، فخسرت بعضها وربحت البعض الآخر (Weippert 1971: 5 – 6). وفي نقاشه لهذه المسألة دحض فايبرت، اعتمادًا على نتائج الحفريات والمسوحات الأثرية الحديثة، ما جاء في نظرية نلسون غلوك بأن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة مادبا في الأردن كانت خالية من السكان المستقرين خلال الفترة بين 1900 – 1200 قبل الميلاد، وأنها لم تعمر إلا مع بداية العصر الحديدي من قبل الإسرائيليين (Weippert 1982: 153 – 158).

وملخص نظرية التسرب السلمي أن القبائل الإسرائيلية دخلت المناطق الوعرة والخالية من السكان أول الأمر، وتعايشت مع الكنعانيين بشكل سلمي، لكنْ، ولما استقر لها الأمر وقويت شوكتها، أخذت تهاجم المدن الكنعانية في المناطق السهلية والساحلية. لكنَّ الحال لم يستقم لها مع المدن الكنعانية الساحلية، فلم تستطع السيطرة عليها، لذا بقيت محصورة في مناطق المرتفعات الجبلية.

3. نظرية الثورة الاجتماعية:

صاحب هذه النظرية هو جورج مندنهول (George Mendenhall)الذي عمل أستاذًا في جامعة ميتشغان آن آربر(Michigan Ann Arbor). وتقوم هذه النظرية على علم الاجتماع، حيث درس مندنهول الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتغيرات المجتمعية التي حصلت في الفترة بين نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر

الحديدي (حوالي 1300 – 1200 قبل الميلاد). وانتقد مندنهول نظريتي الاحتلال بالقوة والتسرب السلمي لربطهما بين التاريخ القديم والحديث (Mendenhall 1962: 66). وقال إن لا فرق كبيرًا بين النظريتين، لأنهما تقولان بأن بني إسرائيل جاءوا لأرض كنعان من خارجها، وأن الطابع البدوي القبلي هو الذي ساد بين القبائل الإسرائيلية، وأن الرابط بين هذه القبائل أنها تنحدر من عرق واحد، سلالة إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب، ونسبها هذا جعلها مختلفة عن السكان الكنعانيين، سكان البلاد الأصليين. وعلمًا أنه لم يمانع القول بأن تماسك القبائل الإسرائيلية كان على أساس عرقي، وأنها جاءت من خارج أرض كنعان، إلاّ أنه يرى أنها لم تكن بدوية بسبب طبيعة الحياة البدوية التي تعتمد التنقل، ومن هنا تضعف الرابطة الاجتماعية بينها.

وحول ظهور الاسرائيليين إلى الساحة بأرض كنعان ينفي حدوث أي هجوم شامل على أرض كنعان من قبل الإسرائيليين أدى إلى طرد أصحاب الأرض، وحدوث تغيير ديموغرافي كلّي فيها، ويرى أن ما حدث لم يخرج عن كونه ثورة للفلاحين في الأرياف ضد أوضاعهم المعيشية خلال نهاية العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1200 قبل الميلاد). ومن المعلوم أن المدن الكنعانية كانت خلال هذه المرحلة في صراع دائم فيما بينها، بشهادة رسائل تل العمارنة، مما أدى إلى تراجع الطبقة الاجتماعية الدنيا. أدت هذه الصراعات إلى تدهور الأحوال المعيشية، فتوحدت من بينها مجموعة من القبائل، لكن ليس على أساس عرقي، بل ربط بينها دين واحد جديد، هو عبادة الإله «يهوه». وأدت هذه التطورات إلى ظهور القبائل الإسرائيلية الرافضة لما كان سائدًا من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية لأول مرة في التاريخ (Mendenhall 1962: 73 – 78). دفع هذا الأمر عددًا آخر من الناس للدخول في الدين الجديد، فزادت مع الزمن قوتهم، مما دفعهم لمهاجمة النظام السائد (دولة المدينة)، فهاجموا بعض المدن الكنعانية للتحرر من الظلم الذي حاق بهم (Mendenhall 1962: 79؛ 83 – 84).

وهنا نطرح سؤالًا: إذا كان الرابط الذي جمع هذه القبائل هو الدين وليس العرق، فكيف تتحدث المصادر التاريخية، سواء الرافدية أو الفرعونية، عن وجود عرقية جمعت هذه القبائل؟

يجيب مندنهول على هذا التساؤل بالقول إنه بعد التحرر من النظام السياسي الذي كان قائمًا، ووحدة المصلحة المشتركة التي جمعت هذه القبائل، بدأت تظهر بمرور الوقت العرقية التي ولَّدت بين أفرادها الشعور بالتميز. لكنَّ مندنهول يستدرك بأن الإسرائيليين أتباع الإله «يهوه» تشكلوا من عائلات متعددة ومختلفة، بل إن لهجاتهم مختلفة، لكن الذي جمعهم هو الإله الواحد ورفض النظام السياسي القائم على أن تحكم كل مدينة نفسها بنفسها (Mendenhall 1973: 27 – 29). ويضيف بأن نشوء دولة إسرائيل الموحدة كان نتاجًا لما حدث في بلدان الشرق الأدنى القديم من انهيار للإمبراطوريات في وادي النيل، والرافدين، والأناضول (Mendenhall 1976: 154)، وأن أصل القبائل الاثنتي عشرة هو كنعاني، بدليل أن لغتهم تنحدر من أصل سامي، وهو أصل اللغة الكنعانية، واتباعهم نفس النمط الاقتصادي الذي ساد أرض كنعان.

لقيت نظرية الثورة والتغير الاجتماعي قبولًا من قبل عدد من الباحثين، من أمثال نورمان غوتوالد (Normann Gottwald) ونيلز ليمكه (Niels Lemche)، إذ رأى الأول أن الإسرائيليين الذين جمعتهم ديانة واحدة، «عبادة الإله يهوه» شكلوا تجمعًا قبليًا كبيرًا في نفس الوقت الذي تدمرت فيه الإمبراطوريات الكبرى في بلاد الشرق الأدنى القديم. لكنْ، يضاف إلى هذا التجمع، انضمام جماعات صغيرة من طبقة «العبيد» خرجت من مصر إلى الأراضي الكنعانية في الفترة السابقة للثورة الاجتماعية، وهي التي شجعت الطبقة الدنيا في المجتمع الكنعاني على الثورة (Gottwald 1979: 210 – 214). وقال غوتوالد في بادئ الأمر إنه كان للبدو الرعاة (هم الذين يمارسون الزراعة

إضافة لتربية المواشي ورعيها) دور كبير وأساسي في هذه الثورة الاجتماعية، لكنه عاد وأضاف إليهم الفلاحين الكنعانيين الذين اضطروا، نتيجة لتزايد عددهم، إلى التوسع الجغرافي، مما أدى إلى تداخل علاقاتهم بالمجتمعات الرعوية، مما شجعهم على تشكيل نسيج اجتماعي متساو يطالب بالحكم الذاتي (Gottwald 1983: 6 – 7; 1985: 38).

أما نيلز ليمكه (Niels Lemche)، فاعتمد في مصادر دراسة الثورة الاجتماعية أولًا على ما ورد في النصوص، وعلى ما ورد في العهد القديم، وعلى حدوث الهجرات البشرية مع بداية العصر الحديدي، وخرج بنتيجة مفادها أن أخبار دخول قبائل شبه بدوية أرض كنعان ضعيفة جدًا في نصوص العهد القديم. وأضاف بأنه لا توجد هناك أي دلائل أثرية تدل على دخول عدد كبير من الناس إلى أرض كنعان من مناطق أخرى مع بداية العصر الحديدي (أي بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد)، كما أن المعلومات الواردة في العهد القديم عن هذا الموضوع قد كُتبت في فترة متأخرة جدًا عن فترة الخروج، وكان هذا في منتصف القرن الأول قبل الميلاد (Lemche 1985: 411 – 412). ويعدُّ ليمكه ما ورد من معلومات في العهد القديم أساطير يجب عدم الاعتماد عليها، أو الرجوع إليها، وإنما يجب أن تكون الآثار هي المصدر الأساسي عند كتابة تاريخ الإسرائيليين.

ويعزو ليمكه انهيار المدن الكنعانية في نهاية العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1200 قبل الميلاد) إلى عدة عوامل، هي: الحروب الخارجية والداخلية، وانتشار الأمراض، والتحولات المناخية، والمشاكل الاجتماعية، وأخيرًا استهلاك المصريين للموارد الطبيعية الكنعانية (Lemche 1985: 422 – 423). وبنظرنا، فإن أهم عامل بين هذه العوامل هو وقوع بلاد كنعان تحت السيطرة المصرية طيلة العصر البرونزي

المتأخر (حوالي 1550 – 1200 قبل الميلاد)، ونشوب الصراعات الداخلية بين الوحدات السياسية الصغيرة (كنتونات)، مما أفسح المجال لظهور عناصر محلية منافسة لمجتمع المدينة بالتدخل والانقضاض على السلطة. ويعتقد ليمكه أن هذه العناصر كانت هي «العابيرو» التي سكنت في المناطق الحدودية/ الهامشية بين المدن الكنعانية، أي في المرتفعات الجبلية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وبمرور الزمن استطاعت هذه المجموعات إنشاء مستقرات كبيرة لها، مستغلة الموارد الطبيعية الموجودة في المنطقة التي تسكنها. وحتى تستطيع هذه المستقرات التوسع، كان لا بد لها من إحراق الغابات، واستصلاح الأراضي الناتجة بعد ذلك، ببناء سلاسل حجرية (Terraces) لمنع انجراف التربة، كما حفروا آبارًا لجمع مياه الأمطار. وبنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، انفصلت عن المستقرات الكبيرة مستقرات أصغر مساحة في المناطق المجاورة لها.

خلاصة رأي ليمكه أن الإسرائيليين كانوا موجودين في البلاد أصلًا، ولم يأتوا من خارجها، وبرأيه أن ظهور دولة إسرائيل في كنعان معاصر لظهور الدول الإقليمية الأخرى، مثل العمونيين، والمؤآبيين والأدوميين (الشكل 35)، لكنها وُجدت في ظروف وأسباب مختلفة، أهمها، الثورة الاجتماعية.

ومن الباحثين الذين أدلوا أيضًا بدلوهم في هذا الأمر الأمريكي وليم ديفر (William Dever) الذي أكد ضرورة، أولًا: استخدام الآثار للتعرف على الأعراق والأجناس من خلال استمرارية أو انقطاع استخدام الأدوات والأواني والعمارة، وثانيًا: قراءة الكتابات القديمة التي تدل على اشتراك مجموعة بشرية محددة بقيم وعادات وتقاليد ولغة تميزها عن غيرها من المجموعات المجاورة لها.



شكل 35: خارطة جنوبي بلاد الشام السياسية في العصر الحديدي الثاني
(حوالي 1000 – 586 ق.م.) حسب النص التوراتي

وبناء على هذه المعطيات، يمكن التفريق بين المجتمعات الكنعانية والإسرائيلية في أرض كنعان(Dever 1993: 23 – 24; 1995: 200 – 213) ؛ إذ يرى أن المادة الأثرية تبين الحقيقة الواقعة، بينما تعكس الكتابات الأيدولوجية الفكرية (الديانة) لهذه المجموعات البشرية. وبرأينا فإنه لا يجوز أن تُستخدم المادة الأثرية المكتشفة لتحديد الأجناس أو الأعراق، خاصة في منطقة بلاد الشام، التي لم يسكنها على مدى العصور جنس بشري واحد، بل كانت على الدوام خليطًا من الأجناس والأعراق البشرية. وهو يرى أيضًا أن الإسرائيليين الأوائل هم من الكنعانيين الذين

استوطنوا المناطق الهامشية في المرتفعات الجبلية، وأن الثورة التي قام بها هؤلاء (اللاجئون، العابيرو، الفلاحون، الرعاة) على مجتمع المدينة الكنعاني أساسها توافق وتكامل اقتصادي واجتماعي بين أفرادها من الفلاحين. لكنَّ نظرية استخدام الفلاحين كعنصر أساسي في هذا التغير الاجتماعي وظهور «دولة الأمة» عوضًا عن النظام السياسي السابق «المدينة-الدولة»، وجد من يعارضه، مثل الإسرائيلي إسرائيل فنكلشتاين (Israel Finkelstein) الذي يرى أن العنصر المجتمعي الأساسي في حصول هذا التغيير هو المجتمعات الرعوية، كما سنرى أدناه.

4. نظرية المجتمعات الرعوية في نشوء إسرائيل الفلسطينية:

أجرى الإسرائيلي إسرائيل فنكلشتاين بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية في عام 1967م عددًا من المسوحات والحفريات الأثرية فيها، وأهمها المسح الأثري في منطقة مدينة رام الله. واعتمد في دراساته الميدانية منهجًا مختلفًا عن منهج الباحثين التوراتيين التقليديين. فإذا كان مؤسس المدرسة التوراتية وليم أولبرايت اعتمد الربط بين دراسة الفخار والطبقات في المواقع الأثرية منهجًا لاستخلاص تاريخها وتحديد ماهيتها؛ فإن فنكلشتاين اعتمد التعرف على أنماط السكنى أساسًا في استنباط هذه المعلومات. ووضح هذا الأمر عندما نشر نتائج أعماله الميدانية عام 1988م بعنوان:

The Archaeology of the Israelite Settlements.

اعتمد فنكلشتاين في تفسير ظهور دولة إسرائيل الفلسطينية على وجود المجتمعات الرعوية التي سكنت في مناطق التخوم الفاصلة بين الصحاري والمناطق الصالحة للزراعة. وفسر هذا بالقول إن القبائل الرعوية كانت على تماس متواصل مع مجتمع المدينة ومكملة له من النواحي الاقتصادية والاجتماعية، فاصطبغت هذه العلاقة بطابع سلمي وليس عسكريًا. وللتعرف على طبيعة هذا التعايش كان لا بد

لفنكلشتاين من العودة للمصادر التاريخية، ودراسة المادة الأثرية المكتشفة، وأخيرًا التمييز بين أنماط الاستقرار لمجتمع الرعاة وللمجتمعات المتحضرة.

أما بخصوص المصادر المكتوبة، فمن المعروف أن المصدر المكتوب الوحيد لدراسة المجتمع الإسرائيلي خلال الفترة بين 1200 و1000 قبل الميلاد هو كتاب العهد القديم، إذ غابت المصادر الفرعونية والرافدية والمحلية عن ذكر كنعان والأحداث التاريخية التي جرت فيها خلال هذه الفترة. ويرى فنكلشتاين أن المعلومات الواردة في كتاب العهد القديم لا تفيد كثيرًا من هذه الناحية؛ لأنها كُتبت في فترة متأخرة عن فترة موسى (عليه السلام)، أي عن الزمان الذي حدثت فيه أحداث تاريخ بني إسرائيل؛ لذا رأى أنه لا بد من الاعتماد على دراسة الآثار وطبيعة الاستقرار والسكنى في المواقع الأثرية (Finkelstein 1988: 336 – 337). وأفاد فنكلشتاين أن الآثار المؤرخة للعصر الحديدي الأول لا تختلف كثيرًا في طبيعتها وتقنياتها عن آثار نهاية العصر البرونزي المتأخر، على الرغم من دخول مجموعات بشرية جديدة لأرض كنعان، مثل قبائل شعوب البحر. ويرى أن الاختلافات في أشكال وتقنيات الأدوات والأواني الأثرية تعتمد كثيرًا على العوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، في أكثر الحالات. لكنه يستدرك، ويذكر، بأن المادة الأثرية المكتشفة في المراكز الحضارية الكنعانية تختلف في ماهيتها وأشكالها عن تلك التي تخص الإسرائيليين الرعاة (Finkelstein 1988: 338).

وحتى يصل «فنكلشتاين» إلى مبتغاه في فصل مناطق الإسرائيليين الرعاة عن تلك الكنعانية، كان لا بد له من ربط هذه المستقرات إلى فترات زمنية محددة، أي تأريخ المواقع الأثرية في المناطق التي، برأيه، سكنتها تلك المجتمعات الرعوية. وليستقيم له الأمر بدأ بدراسة المستقرات البشرية بالمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط (حوالي 1800 – 1650 قبل الميلاد)، وهي الفترة التي ظهر فيها سيدنا إبراهيم (عليه السلام) حسب رأي التوراة، مرورًا بالعصر البرونزي المتأخر، وتدرج

في الحديث حول طبيعة الاستقرار والمعيشة حتى نهاية العصر الحديدي الأول (حوالي 1200 – 1000 قبل الميلاد) (Finkelstein 1988: 339 – 340).

استنتج فنكلشتاين أن عدد المستقرات البشرية (المراكز الحضارية) الكنعانية أخذ بالتراجع منذ الفترات الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط، ورفض أن يكون السبب في هذا احتلال الدولة الحديثة الفرعونية للمنطقة، بل اقترح أن يكون السبب في ذلك تغيرًا أصاب النمط المعيشي، خاصة التحول إلى البداوة؛ إذ إن الناس هجرت المراكز الحضارية وتحولت إلى البداوة، نتيجة للاستهلاك المتواصل للموارد الطبيعية، وانتشار الأمراض والأوبئة، والاحتلال العسكري الفرعوني الذي فرض ضرائب باهظة على الناس، ونتيجة أيضًا لانعدام الأمان في تلك الأيام. وعزز قوله هذا باكتشاف آثار لمعابد ومقابر في مناطق منعزلة من جنوبي بلاد الشام، لكنها بُنيت قريبة أو بعيدة عن المراكز الحضارية، وافترض أنها خصت مجتمعات غير مستقرة أو بدوية الطابع كانت على تواصل مع أهل المدن والقرى، وضرب أمثلة مما اكتُشف في تل الدوير في منطقة الخليل وفي منطقة نابلس. وقدم لنا فنكلشتاين مثالًا على هذه المجتمعات من قبائل «الشاسو» البدوية التي سكنت جنوبي بلاد الشام وسيناء خلال نهاية العصر البرونزي المتأخر (Finkelstein 1988: 341 – 345).

ويعتقد فنكلشتاين أن الوضع الأمني في كنعان أصبح أكثر أمانًا عند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وضعفت السيطرة الفرعونية على كنعان، وأصبحت سبل الحياة متوافرة بشكل أفضل، مما فسح المجال أمام المجموعات البشرية للعودة والاستقرار في المراكز الحضارية (Finkelstein 1988: 345 – 346). ونوافق فنكلشتاين على رأيه بتراجع السلطة المصرية على كنعان بعد انتهاء الأسرة التاسعة عشرة، وهذا مما أفسح المجال لجميع الناس في تلك المنطقة، سواء البدو أو الحضر، لالتقاط الأنفاس واستغلال الفراغ السياسي الذي حصل. كذلك يرى فنكلشتاين أن تغيرًا

مناخيًا قد حصل مع نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد أدى إلى عدم توافر المراعي لرعي الحيوانات، مما أجبر المجتمعات الرعوية على الزراعة، وبمرور الزمن تحولوا إلى مزارعين مستقرين.

خلاصة رأي فنكلشتاين، أن الإسرائيليين كانوا في الأساس من جذور كنعانية، ولم يستبعد دخول مجموعة أخرى جاءت من مصر ودخلت من جنوب كنعان وانضمت إلى الأولى. وأن هؤلاء كانوا يعيشون في المناطق المناسبة للرعي المحاددة للمراكز الحضارية، ولكنهم كانوا على تواصل مع بعضهم بعضًا، فأقاموا معها علاقات اقتصادية. لكن هؤلاء الرعاة أخذوا مع نهاية العصر البرونزي في الاستقرار، واحتاجوا لما يقارب من المائتي عام ليؤسسوا ما عُرف باسم «دولة اسرائيل». وهو يرى أنهم توزعوا بادئ الأمر في مناطق نابلس ورام الله، والجليل الأسفل، والنقب، وانتشروا في بقية مناطق فلسطين في مراحل زمنية متأخرة. ونتيجة لزيادة السكان في مستقراتهم الأولى، وحاجتهم لمناطق زراعية أوسع، اصدموا عسكريًا بالمدن والقرى الكنعانية. نتيجة لهذه الصراعات، وللقتال مع شعوب البحر الذين استقروا في الجزء الجنوبي من السهل الساحلي الفلسطيني، اضطرت القبائل الإسرائيلية المتباعدة إلى الاتحاد، وتأسيس الدولة الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد (Finkelstein 1988: 351 – 350). ولقد أكد فنكلشتاين في سنوات لاحقة نظريته هذه التي نشرها في عام 1988م، وأضاف لها شروحات مستفيضة، أو تعديلات بسيطة، كقوله إن التفريق بين المستقرات الحضارية والأخرى التي تخص المجتمعات الرعوية يغدو صعبًا بمرور الزمن (Finkelstein 1992; 1994; 1995; 1996; 1997; 1998; 2007a; 2007b).

ونود أن ننوه هنا إلى أن المدرسة التقليدية التوراتية (المحافظون) برئاسة وليم فوكسويل أولبرايت كانت تبحث عن مواقع وآثار ورد ذكرها في التوراة لمجتمعات خرجت من مصر ودخلت إلى فلسطين عنوة. ومع نكبة فلسطين وتأسيس دولة

الكيان الصهيوني في عام 1948م تابع الآثاريون الصهاينة من أمثال يغال يادين السير على نفس المنهج، لكن مع ظهور جيل جديد من الآثاريين الصهاينة، مثل إسرائيل فنكلشتاين وآشر سيلبرمان (Asher Silbermann)، الذين أكدوا أن الإسرائيليين هم رعاة كنعانيون سكنوا المناطق المجاورة للمراكز الحضارية الكنعانية، صار هؤلاء يبحثون الآن في هذه المناطق عن آثار لهذه المجتمعات. لكنهم، وعلى الرغم من زعمهم أنهم لم يعودوا تابعين للمدرسة التوراتية التقليدية التي أسسها أولبرايت، إلاّ أنهم بنظرنا لم يستطيعوا الخروج من تحت عباءة التوراة، من هنا نجدهم عادوا الآن للتنقيب عن تل المتسلم، وتل وقاص، وبيسان.

5. نظرية المفاهيم والأفكار المتعددة:

وإضافة لهذه النظريات، خرجت الأمريكية آن كلبريو (A. Killebrew) بنظرية جمعت جميع ما سبق من أفكار ومفاهيم، وأطلقت عليها اسم (The Mixed Multitude Theory). وشملت هذه النظرية القصص التوراتية من حيث الخروج من مصر والدخول إلى أرض كنعان، والاجتماع على إله واحد وفكر واحد، وتشابه في المادة الأثرية والإثنولوجيا، وطبيعة الحياة الرعوية التي تقوم على المفهوم القبلي بوجود مجموعات بشرية ترتبط ببعضها بعضًا عن طريق القرابة والنسب، لكنها تسمح لعناصر بشرية أخرى قليلة العدد بالإقامة بينها والانتساب إليها (Killebrew 2005).

وجدنا بعد دراسة هذه النظريات مجتمعة أنها لا تبعد كثيرًا عن بعضها بعضًا، فهي تختلف فقط في القول إن كان الإسرائيليون الأوائل من أبناء المنطقة أم لا؟ لكنها تتفق جميعها في أن طبيعة هؤلاء القوم هي البداوة ورعي الماشية. ويدعم هذا الأمر ما ورد في الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم (سورة القصص)؛ إذ تذكر التوراة أن سيدنا موسى عليه السلام هرب من مصر إلى منطقة «مدين» الواقعة جنوبي بلاد

الشام وتمتد إلى شمال- غربي الجزيرة العربية، خوفًا على نفسه من الفرعون، وورد أيضًا في سورة الأعراف الآية 85 ما يأتي:

«وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». واستقر به المقام عند نبي الله «شعيب» الذي زوجه ابنته المدعوة «العصفورة أو صفورة»، وهي التي نصحت أباها أن يستأجره لأنه «قوي أمين» حسبما ورد في القرآن الكريم: ما أهمية هذه التفاصيل؟

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ [5] (سورة القصص، الآية (26).

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [5](سورة القصص،الآية 27 ما أهمية هذه التفاصيل؟

وبعد أن مكث موسى عددًا من السنين في مدين غالبه الحنين إلى مصر، فقرر العودة إليها مع زوجته وأهله الذين كانوا معه في مدين. ويورد القرآن الكريم ما حدث له في طريق العودة، وعلى النحو الآتي:

إذ ضل الطريق إلى مصر، لكنْ، وبعد أن وصل جبل الطور بسيناء، هداه الله تعالى إلى الطريق الصحيح «إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى [7] (سورة طه، الآية 10) أي: من يدله على الطريق إلى مصر فلما أتى موسى النار من جانب الشجرة المباركة، سمع نداء: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى [8] سورة طه، الآيتان 12-13. ما أهمية هذه التفاصيل؟

فأوحى الله له ما أوحى، وكلّفه أن يحمل الرسالة إلى الطاغي فرعون، وأعطاه الله الآيات، وطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، ليكون له ردءًا، وأثنى موسى على أخيه بين يدي ربه بأنه أفصح منه لسانًا، وأضاف موسى: وَقَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [9] سورة القصص، الآيتين 33-34.

فقال له الله عز وجل: قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ 35.

وبعد أن عاد موسى إلى مصر من «مدين» أخذ معه زوجته إلى هناك. لكنْ، وبعد أن صعب عليه وأهله العيش في مصر قرر الخروج منها برفقة أقاربه، وربما كان هذا وبتقديرنا مع نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (أي في حوالي 1200 قبل الميلاد) ، فقفل عائدًا إلى أنسبائه، أهل زوجته في مدين، في شمال غربي الجزيرة العربية. ونعتقد أن العدد الذي ذكرته التوراة (600 ألف شخص) مبالغ جدًا فيه، وأن العدد لم يتجاوز بعض المئات من الناس:

35 «وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا

36 وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا ا لمصر يين

37 فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت، نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد،

38 وصعد معهم لفيف كثير أيضًا مع غنم وبقر، مواش وافرة جدًا» (الخروج 12: 35-38).

ويؤكد القرآن الكريم أن الذين اتبعوا ديانة موسى هم نفر من قومه، أي عدد قليل، ولا يمكن أن يكون قد وصل عددهم أكثر من نصف مليون شخص كما ورد أعلاه. إذ جاء في سورة يونس الآية 83 ما يأتي:

«فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ».

عاد موسى إلى «مدين» ومعه أقاربه، لكنه رجع بدين جديد موحد، أخذ ينشر تعاليمه بين القبائل البدوية، ومنهم قبيلة «الشاسو» التي ذكرتها المصادر الفرعونية، والتي كانت تسكن جنوبي بلاد الشام وشمال غربي الجزيرة العربية. وكانت هذه الأقوام، بغض النظر عن جنسها أو نسبها، تشكل حلقة وصل بين مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية، وكانت على تواصل فيما بينها من خلال التجارة وغيرها. لكن، اختلفت هذه القبائل عن محيطها بدينها، فهي تتبع دينًا موحدًا، آمنت به اثنتا عشرة قبيلة من القبائل البدوية الموجودة في هذه المنطقة المتوسطة. وتعايشت مع محيطها في الفترة السابقة لتحطيم الإمبراطورية الفرعونية والحثية والكاشية في حوالي 1200 قبل الميلاد. أدى هذا التحول السياسي، وتراجع الاحتلال الفرعوني والحثي عن بلاد الشام، بشكل خاص، إلى ظهور دويلات وثنية متعددة مستقلة، منها الدول الآرامية، والعمونية، والمؤآبية، والأدومية، وشعوب البحر، فشعرت القبائل البدوية التي آمنت بالدين الموسوي الموحَّد أنها في خطر من ظهور هذه الوحدات السياسية، فدعت إلى الوحدة فيما بينها، وبحثت لها عن مستقر آمن. وبما أنها لا تستطيع مواجهة الدول القوية في المنطقة، قررت الذهاب إلى المنطقة الأضعف عسكريًا، أي إلى كنعان بمدنها المتحاربة مع بعضها بعضًا، فتسللت إليها سلمًا، حتى استقام لها الأمر. وبعد أن قويت شوكتها سيطرت على مساحة صغيرة من أرض كنعان، ولمدة قصيرة جدًا (حوالي سبعين عامًا).

فالعامل الديني، وعدم وجود وطن قومي ثابت على مدى الدهور، وضعف دويلات المدن الكنعانية في فلسطين هو الذي أدى إلى احتلال هذه القبائل المحلية اليهودية لأرض كنعان.

في الختام، تشكل أرض كنعان، وهي جزء من البلاد العربية في شرقي آسيا، حلقة وصل بين الأمم التي تسكن آسيا وإفريقيا وأوروبا، وعليه، فهي مدخل ومخرج للبشر عبر العصور، من القديم وحتى الوقت الحاضر؛ فأثَّر وتأثَّر سكانها بثقافات وأديان مختلفة عبر العصور، خاصة إذا ما علمنا أنها المكان الذي آوى الرسالات السماوية الثلاث، اليهودية، والمسيحية، والإسلامية. كذلك تعرضت هذه البلاد خلال العصور القديمة للاحتلال الفرعوني والرافدي والفارسي واليوناني والرومي وما تبعهم، وهي حتى الآن تعاني. وللأسف لم تحظ هذه البلاد خلال العصور السابقة للإسلام بأي نوع من أنواع الوحدة السياسية، بل لم يكن لها عاصمة مركزية واحدة، فكل مدينة شكلت دولة لنفسها، وحاربت ما حولها من مدن، وهذا جعلها لقمة سائغة لأعدائها على الدوام. لكن، وعلى الرغم من هذا، بقيت منارة فكر وإشعاع ديني، فكان للدين دور كبير في حياة الناس ومنهجم الحياتي. وقد رأينا أن الدين الموسوي الموحد كان السبب الأساس الذي جمع القبائل التي اتبعته للبحث عن وطن لها.

يظهر لنا أن مَن آمن برسالة موسى عليه السلام كانت قبائل بدوية سكنت جنوبي بلاد الشام وسيناء، وهؤلاء هم الذين أسمتهم المصادر المصرية «شاسو»، وسكان «مدين». وإذا كانت المجتمعات البدوية متنقلة لا تترك آثارًا معمارية خلفها، إلا إن «الفخار المديَني» عُثر عليه في مواقع في النقب في فلسطين، وفي فينان في الأردن، وفي تيماء في شمال غربي المملكة العربية السعودية، وهو يعود لنهاية العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي الثاني (Kafafi 2014). وهذا يدلل على التواصل الذي كان

موجودًا بين الناس في هذه المناطق خلال تلك المرحلة. وبرأينا، فإن الاحتلال الأجنبي، وهذا ما جرى لبلاد كنعان من احتلال فرعوني خلال العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 – 1200 قبل الميلاد) قد أثر على توزيع الناس وطبيعة حياتهم. ونعتقد أن هذا الأمر، إضافة لتغير الخارطة السياسية في حوالي 1200 قبل الميلاد خاصة سقوط الإمبراطورية الفرعونية، أفسح المجال أمام ظهور وحدات سياسية جديدة جمعت بينها صلة النسب والقرابة، مثل الآراميين، والعمونيين، والمؤآبيين، والأدوميين؛ وجمع البعض الآخر، وهم الإسرائيليون، الدين. لكن، ومع تقلب الأحوال على المجتمع تحول وتبدل حسب الزمان والمكان، فتأثر أولاً بالعناصر الثقافية والدينية الكنعانية، وبعد السبي البابلي بالرافدية.

حملت الحركة الصهيونية العالمية منذ إنشائها التوراة بيد، معلنة حقها في أرض كنعان، وقالت هذا وعد إلهي على العالم أن يساعدها في تنفيذه، لكن، ماذا فعلنا نحن العرب بالمقابل؟ لقد أصبحنا نتشنج عندما نسمع كلمة «يهود»، لكن من ينكر أن أتباع موسى وداود وسليمان هم من أهل هذه الأرض. أليس من الأولى لنا أن نقول أن دين وتراث اليهود الأوائل، وحتى الدولة الإسرائيلية الموحدة التي ظهرت في الفترة بين حوالي 1000 – 923 قبل الميلاد، ودولتي «السامرة» و «يهوذا» هي لنا وليس للصهاينة، وهذه الدويلات قامت على أجزاء وحسب من فلسطين الجغرافية، وليس على كامل ترابها. باعتقادي أن علينا الآن أن لا نخسر موسى وداود وسليمان، فهم أبناؤنا، ولا الديانة اليهودية التي قامت على أرضنا، نحن أحق بها من الصهاينة الذين جاؤوا من روسيا وأوروبا وأمريكا. لقد اتبع صهاينة هذه الأيام مناهج متعددة لتفسير الوعد الإلهي، ولتحقيق مآربهم، لكنَّ العرب، وللأسف، اكتفوا بالرفض والشجب، ولم يسعوا إلى متابعة ما يُكتب حول هذه القضية. إلى متى يا رب...نبقى مقلّدين نردد كالببغاوات ما يقوله الآخرون... لماذا لا نكون مبدعين؟

ولا أعلم لماذا يفرح الناس عندما يقولون دون أساس أن هناك تراثًا حضاريًا كنعانيًا وآخر اسرائيليًا، ويصرون أن الأول أقدم من الثاني، لذا لا حق للصهاينة في فلسطين الحالية. لا يا سادة لا يوجد لا تراث كنعاني ولا إسرائيلي، بل ما هو موجود هو تراث محلي فلسطيني، له تاريخ متصل منذ أقدم العصور وحتى الحاضر، ونشأ فوق الأرض الفلسطينية.

9

الفصل التاسع

أورشليم مدينة داود وسليمان ويهوذا

الفصل التاسع

أورشليم مدينة داود وسليمان ويهوذا

مقدمة:

شهدت نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (حوالي 1200 قبل الميلاد) سقوط الإمبراطوريات الفرعونية الحديثة في وادي النيل، والحثية في الأناضول، والكاشية في وادي الرافدين؛ كذلك حلَّ في الفترة بين حوالي 1250 و1200 قبل الميلاد جفاف على مايسينيا في بلاد اليونان. أدت هذه الأمور مجتمعة الى تغيير شامل في منطقة شرقي البحر المتوسط، سمح بظهور دول محلية في المنطقة، مثل الممالك الآرامية في مناطق الجزيرة السورية وحوضي الفرات والخابور وعلى طول السهل الساحلي الشمالي للبحر المتوسط، وفي أواسط سوريا الطبيعية. وفي الوقت نفسه أخذت آشور تضغط بكل قواها على هذه الممالك، واستطاعت بعد عدة مواجهات عسكرية أن تخضع معظمها لسيطرتها وتأخذ منها الإتاوة.

أما منطقة جنوب غربي بلاد الشام (فلسطين)، فقد شهدت أوسع نزوح جماعي وهجرات، فبعد اندحار السيطرة الفرعونية عنها أخذ سكانها يستقرون في الأراضي الزراعية التي هُجرت سابقًا خوفًا من دفع الضريبة للفراعنة، كما هاجرت إليها قبيلة (البلست)، وهي واحدة من خمس قبائل من شعوب البحر قادمة من مايسينيا. وإضافة لهذا وذاك، يرى كثير من علماء التوراة أن خروج بني إسرائيل من مصر قد حصل في هذه الفترة. من هنا نستطيع القول إن فلسطين كانت معمورة بالسكان قبل النزوح إليها من جماعات وجهات متعددة، وأن كثيرًا من المدن الكنعانية التي أُسست في العصور البرونزية، مثل أريحا، وتل المتسلم، وتل الفارعة الشمالية

استمرت بالوجود على الرغم من دخول جماعات جديدة إليها. وبما أن هذا الكتاب مختص بمدينة القدس، فإننا سنخصص حديثنا في هذا الفصل لما جرى لهذه المدينة خلال نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وحتى نهاية الدولة الموحدة وعاصمتها القدس في القرن الأول من الألف الأول قبل الميلاد (أي من حوالي 1200 - 923 قبل الميلاد).

يعتقد الباحثون التوراتيون أن منطقة الهضاب الوسطى وجبال القدس والخليل في فلسطين كانت قليلة السكان خلال الفترة الانتقالية بين العصور البرونزية والعصور الحديدية، وأن بعضًا من المدن فيها، مثل شكيم، انقطع الاستقرار فيها حتى القرن العاشر قبل الميلاد، وهذا فسح المجال للقبائل العبرية للدخول إليها والاستقرار فيها. وقد أجرى الإسرائيليون بعد احتلال الضفة الغربية للأردن مسوحات أثرية في هذه المنطقة، مثل مسوحات إسرائيل فنكلشتاين، وآدم زرتال (Adam Zertal)، وموشيه كوخافي (Moshe Kochavi)، وذكروا في تقاريرهم أن المنطقة قد شهدت تزايدًا في القرى الصغيرة في هذه المنطقة خلال نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد. علمًا أن الحفريات وتقارير المسوحات الأثرية مجتمعة قد أشارت إلى أن ازدهار المنطقة قد حصل خلال العصر الحديدي الثاني (حوالي 923 - 722 قبل الميلاد). أما قضية إنشاء قرى زراعية واستقرار الناس فيها، فإنه يدل على أن سكان المدن والبلدات الذين اعتمدوا الزراعة أساسًا لاقتصادهم هم من أسسوا هذه القرى الجديدة نتيجة لازدياد عدد السكان فيها، والبحث عن أراض صالحة للزراعة. على أية حال، ففي العصر الحديدي الأول (حوالي 1200 - 1000 قبل الميلاد) تأسس في المنطقة بين القدس والخليل عدد من القرى، لكنها قليلة العدد، وتركزت بالقرب من مصادر المياه الدائمة. وبما أن المصادر الكتابية لم تشر إلى مدينة القدس (أور- سالم) خلال فترة العصر الحديدي الأول، فإن المصدر الكتابي الوحيد الذي يمكننا الرجوع إليه، لكن عدم الاعتماد عليه، هو نص العهد القديم.

القدس مدينة داود

قدم الباحثون التوراتيون عبر العقود المختلفة تفسيرات متعددة للروايات التوراتية، فمنهم من أخذ بصحة ما ورد فيها دون نقاش، وآخرون ذكروا أنه لا يمكن الأخذ بكل ما ورد فيها، بينما رفض طرف ثالث وهم من غير التوراتيين جميع ما جاء فيها.

إن الدراسة الأدبية لما ورد في كتاب العهد القديم، وبشكل خاص، في سفرَي التكوين والخروج نتج عنه تفسيرات ونظريات فاقت عدد كتابها، وبما أننا لسنا واحدًا من هؤلاء، فإننا نسعى في دراستنا هذه إلى اتباع منهج بحثي أكاديمي يعتمد على النصوص والوثائق التاريخية الأصلية، والآثار المكتشفة. كما نود الإشارة هنا إلى أننا لن نقوم هنا بإبداء رأي حول موضوعات كتاب العهد القديم، بقدر ما سنتحدث عما دار خلال السنوات المنصرمة الأخيرة من وجود دلائل وإثباتات كتابية على «بيت داود»، أي المقصود الملك داود وذريته، وهل هو من سلالة يعقوب؟ كذلك فإننا نؤكد أن المقصود من كتابة هذا الفصل هو مناقشة وتفنيد ما نشره الإسرائيليون ومن تبعهم في دراسة بعض النصوص المنقوشة والمكتوبة، وليس ما ورد في الكتب الدينية، وعلى رأسها القرآن الكريم.

ما يهمنا في هذا المقام هو سلالة داود، وتحديد علاقتها بالإسرائيليين، خاصة إذا ما علمنا أن الصهاينة الحاليين يحاولون ربط نسبهم بيعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم. ومن الجدير بالذكر، أن أيًا من هؤلاء لم يُذكر خارج الكتب السماوية. فأما إبراهيم فقد ذُكر في أكثر من آية وأصحاح في العهد القديم، ونورد هنا ما ورد في سفر التكوين (11: 27): «وهذه مواليد تارح. ولد تارح أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطا». وأما في مكان آخر (12: 5-7): «فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطًا ابن أخيه

وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. 6 واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. 7 وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحًا للرب الذي ظهر له».

ويربط كثير من الباحثين بين ذهاب إبراهيم من أرض كنعان إلى مصر وبين قدوم الشعوب الآسيوية إليها، سواء للتجارة أو الاستقرار. ويرى بعضهم أن قائد قافلة الحمير المصورة على جدران أحد قبور «بني حسن» من القرن التاسع عشر قبل الميلاد هو إبراهيم المذكور في التوراة. ونقفز بعد هذا إلى سعي كثير من الباحثين إلى الربط بين قصة سيدنا يوسف وإقامته في مصر، والمكانة المرموقة التي وصل إليها في فترة القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد. ويضيف هؤلاء الباحثون إلى أن الذين خرجوا من مصر مع موسى، ربما في زمن الفرعون المصري رمسيس الثاني، أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، هم من أحفاد يوسف.

ونحن نرى أن التتابع الزمني الوارد في أسفار العهد القديم يتناقض مع نفسه، فلا يمكن أن نقبل بالقول إن الشخص الذي قاد قافلة الحمير هو إبراهيم، إذ يرد اسمه في النصوص المصرية باسم «أبشاي». ثم، حتى إن افترضنا بأن الخروج من مصر حصل بعد أربعمائة عام من قدوم «يوسف» إليها، فهل من المعقول أن لا يختلط، بل يذوب عرق أحفاد يوسف في أصحاب الأرض المصريين. ونود أن نضيف أن عددًا من الأفراد، أو ربما القبائل الآسيوية، وصلوا إلى مصر كأسرى حرب، وهذا ما تؤكده سجلات الحملات العسكرية المصرية على بلاد الشام، خاصة خلال عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (حوالي 1550 - 1200 قبل الميلاد). وللمزيد، يجب أن لا ننكر وجود عبيد آسيويين من أعراق واجناس مختلفة في مصر شكلوا جزءًا من عمال السخرة الذين بنوا مباني ضخمة أيام الفراعنة الأقوياء في مصر، مثل رمسيس

الثاني. ومن الطبيعي أن يهرب بعض هؤلاء العمال السخرة، بغض النظر عن جنسهم، من ظلم الفرعون.

واعتمادًا على النصوص المكتوبة ونتائج الحفريات الأثرية نستطيع الجزم بأن قدوم أفراد أو جماعات من بلاد الشام إلى مصر، أو النزوح منها، سواء للتجارة أو لأسباب أخرى، كان أمرًا سائدًا خلال العصور القديمة، فلا نستبعد أن يكون ما ورد في التوراة حول الخروج من مصر لا يخرج عن كونه جزءًا من التاريخ الشفوي القبلي لمجموعة تنتمي إلى الإسرائيليين الأوائل.

وتسرد إصحاحات العهد القديم قصة الخروج من مصر، وتسهب بها، وقدم عدد كبير من الباحثين تفسيرات للمعلومات الواردة فيها. فيذكر الباحث الأب رونالد دي فو "Roland de Vaux" أن الخروج قد تم عن طريقين منفصلين، هما: الأول مر بحافة الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط، والثاني، وهو الذي اتبعه موسى، فينحرف نحو الجنوب إلى أطراف جزيرة سيناء قبل الاتجاه شمالًا إلى شرقي نهر الأردن، وبعد ذلك الدخول إلى فلسطين. والمجموعة التي سلكت الطريق الثاني رجعت إلى حياتها البدوية المتنقلة، فسارت بشكل بطيء حتى وصلت إلى فلسطين. ويعتمد هذا التفسير، بطبيعة الحال، بشكل كبير على الربط بين الحياة البدوية في الماضي والحاضر. ولكنَّ الدراسات الأثرية التي جرت في جنوبي الأردن حتى الآن لا تدل على وجود آثار لهذه الجماعات المتنقلة. ويعترف دي فو بأنه لا يوجد طريق، بل ومن العبث تتبعه. كذلك لا بد لنا من الاسترشاد بنتائج الدراسات الأنثروبولوجية التي أكدت أن عمر الإنسان خلال الألف الثانية قبل الميلاد من النادر أن يتجاوز الخمسين عامًا، وعليه فلا بد من إعادة النظر في الفترة الحقيقة للتيه في صحراء سيناء (كنيون 1990: 46). وحتى الآن عجز الآثاريون عن التعرف على الموقع الذي بني فيه تابوت العهد تخليدًا لذكرى عبورهم النهر والمسمى «جلجال».

لقد لعب الدين دورًا أساسيًا في الفكر الصهيوني، وهو الأساس الذي تقوم عليه دولة إسرائيل العنصرية، خاصة إذا ما علمنا أن هذا الأساس يقوم على تاريخ توراتي مزور. وكما نعلم فإن الدارس للنصوص التوراتية يستنبط بأن دين موسى ضرب من العبادة الربوبية (رب والدي، والدك، والده)، وتقوم على عبادة الإله «يهوه». وهذا الإله هو الذي وعدهم بدخول أرض كنعان، وبناء عليه، يرى القارئ المتفحص بأن هناك رباطًا بين سفر التكوين وما تبعه من أسفار، خاصة سفري الخروج ويوشع. وهذا الدين الذي جاء به القادمون الجدد (البدو الرحل) يختلف كليًا عن دين سكان بلاد كنعان الأصليين المستقرين الذي يقوم على تعدد الآلهة. ومن هنا نستطيع القول أن معرفة دين الإسرائيليين يعتمد على ما ذكرته النصوص التوراتية، بينما نستمد معلوماتنا عن دين سكان المدن والقرى الكنعانية من البقايا المادية المكتشفة في الحفريات الأثرية، مثل أبنية المعابد التي اكتُشفت في عدد من المواقع في فلسطين، مثل تل وقاص، وتل الدوير، وتل المتسلم، وبلاطة، وبيسان. ومن هنا نرى تناقضًا أساسيًا بين بيت الإله عند الكنعانيين وبين القبائل الإسرائيلية التي تحولت عن عبادة الإله «إيل» إلى عبادة الإله «يهوه» حيث كان مكانه خيمة، ولم يستقر في مكان، حسب الرأي التوراتي، إلا بعد أن بنى سليمان معبده في القرن العاشر قبل الميلاد. كما يجب الإشارة إلى أن الديانة الكنعانية كانت متأثرة إلى حد كبير بديانات الأمم المجاورة في وادي الرافدين ومصر، حيث عُثر في معابد بيسان، على سبيل المثال، على دمى تخص الإلهين حتحور وحورس.

وحسب روايات كتاب العهد القديم، وكما ذكرنا أعلاه، استقرت القبائل الإسرائيلية في المدن والقرى الكنعانية في فلسطين بعد دخولها عنوة، أي عن طريق الحرب، لكنَّ الحفريات الأثرية التي جرت حتى الآن لا تؤيد هذا الادعاء. ولا يوافق علماء التوراة على هذا الرأي، وإنما يقولون إن القبائل الإسرائيلية استقرت في مواقع فلسطينية مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وذلك بأن نسبوا أنواعًا من

المخلفات الأثرية للقبائل الإسرائيلية، مثل جرار التخزين ذوات القبة (Colered–rim Jars)، والبيوت ذوات الأربع غرف المرفوعة سقوفها على أعمدة (Pillared–Houses or Four Rooms Houses).

تبدأ القصة التوراتية عندما قاد شاؤول مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد ولفترة قصيرة قبائل الإسرائيليين في مواجهتهم مع سكان فلسطين انتهت بهزيمتهم من قبل البلستينيين في معركة جلبوع. وتولى الحكم من بعده داود الذي لا ينتسب ليعقوب بحسبما تقول التوراة. كما أن سمعة داود السيئة، والذي كان جنديًا مرتزقًا في صفوف البلستينيين، سبقته بين القبائل الإسرائيلية. ونستطيع القول إن النص التوراتي الذي يصف داود بأنه انضم لصفوف البلست، وحاول الانطلاق من هناك في هجمات على مَن جاوره، إنما يبين لنا حلم هذا الشخص في السيطرة على بقعة واسعة يبني فيها دولة له. ويذكر بعض الآثاريين ممَن نقبوا في منطقة بئر السبع، مثل «خربة المشاش» أن عددًا من المواقع شهد تدميرًا في حوالي 1000 قبل الميلاد، ويربطون بين هذا التدمير ونشاطات داود في المنطقة (Fritz and Kempinski 1983: 230). لكنَّ آخرين يرون أن التدمير ربما نتج عن تغيرات مناخية تسببت في قحط، دفع الناس لهجرة المنطقة وتدمير المواقع فيها، ومنها «خربة المشاش». ولا بد من الإشارة أيضًا إلى أنه لا يوجد أي نص تاريخي خارج النص التوراتي (صموئيل الثاني 2: 1–4) يقول بتتويج داود ملكًا على مدينة حبرون «الخليل» وما حولها، أي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة بيت لحم.

من هو الملك داود؟

لا تشتمل النصوص التوراتية على معلومات كثيرة عن نسب الملك داود، لكنها تذكر أنه ابن لشخص يدعى «يسَي» من بيت لحم (صموئيل الأول: 16: 1). وتذكر التوراة

أن «يسَي» هذا من أصل مؤآبي، بدلالة أن داود طلب حماية ملك مؤآب لوالديه خلال ثورته على الملك شاؤول (صموئيل الأول: 22: 3-4). لكنَّ بعض الباحثين (Ahlstrom 1980: 285 - 287; 1993: 455) يخالفون هذا الرأي، ويرون أن بيت لحم قريبة جدًا من القدس، وهذا يجعلها تابعة لليبوسيين سكان القدس، وبما أن داود من مواليد منطقة بيت لحم فيكون نسبه «يبوسيًا». ولذا، فهم لا يعدونه يهوديًا ولا حتى إسرائيليًا، بل شاب كنعاني سعى إلى تحسين معيشته، فانضم إلى جيش شاؤول، لكنه عاد فانقلب على قائده (Howard 1992: 41; Ahlström 1993: 456). ويضيفون أن سكان المناطق المجاورة لبيت لحم لم يساندوا داود في أثناء تمرده على شاؤول وتجواله مع أفراد عصابته في منطقة بيت لحم، فانتقل لخدمة البلستينيين. وتؤكد نصوص العهد القديم (صموئيل الأول 27: 1-4) هروب داود وستمائة من رجاله من وجه شاؤول إلى ملك مدينة جت البلستي الذي أعطاه مدينة صقلغ، فاتخذها منطلقًا لهجماته على المناطق المجاورة (Howard 1992:42 - 43; Ahlström 1993: 458). ويرى بعض الباحثين أن موقع صقلغ هذا هو إما تل الخويلفة الحالي، والذي يبعد حوالي 48كم إلى الشمال الشرقي من مدينة بئر السبع (Seger 1983: 15)، أو تل الشريعة الذي يبعد نفس المسافة عن مدينة بئر السبع، لكنْ إلى الشمال الغربي (Aharoni 1968: 291; 443).

صوَّرت التوراة داود بطلًا بعد قتله لجوليات زعيم البلستينيين، مما إدى إلى علو كلمة الإسرائيليين على البلست. وأقام مع عائلته وأتباعه بجوار حبرون «الخليل» (صموئيل الثاني 2: 1-4). ومن هناك جرد حملات على أتباع الملك شاؤول (صموئيل الثاني 3: 1-5)، وكانت الغلبة في النهاية لداود وأتباعه. وأدى ذيوع شهرة الملك داود كمحارب قوي إلى انتخابه ملكًا على القبائل الإسرائيلية كلها. وكما ذكرنا أعلاه، فإن القبائل الإسرائيلية أيقنت أنه لا يمكن لها مواجهة الأخطار المحيطة بها، سواء من البلستينيين في فلسطين أو الممالك الأخرى في المناطق المحيطة بفلسطين، إلا بالاتحاد

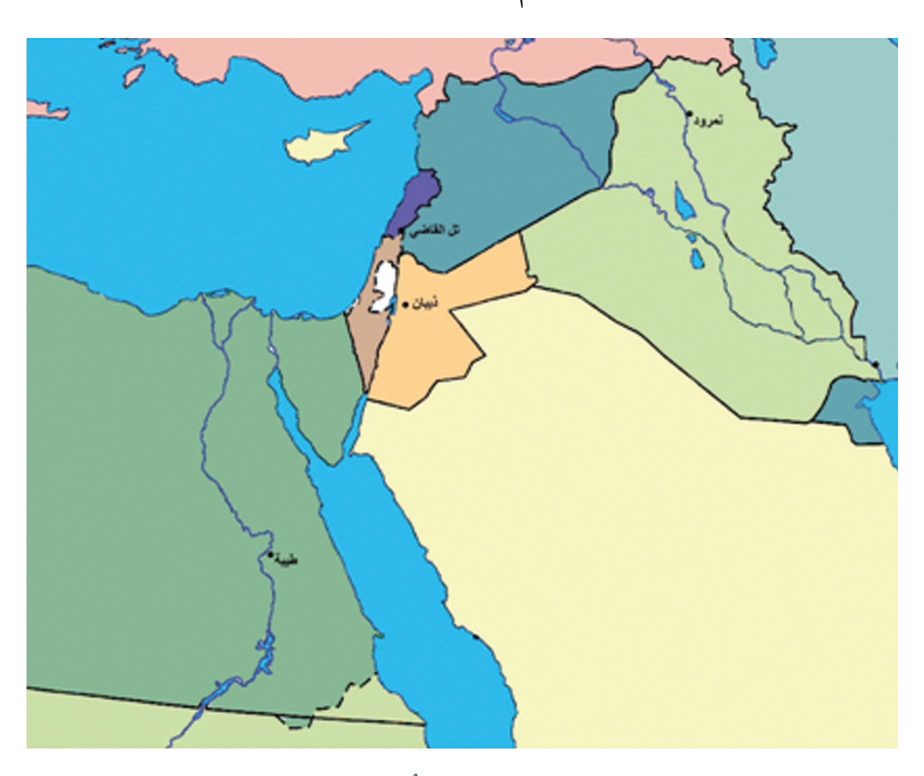
ووجود سلطة مركزية تحكمها. ومن المفترض أن الملك داود كان قد اختار حبرون «الخليل» عاصمة له، لكنه أيقن أن الملك لن يستتب له إلا بعد القضاء على اليبوسيين في أور-سالم (القدس)، وهذا ما جرى، حسب النص التوراتي. وبعد استيلاء داود على أور-سالم اتخذها مقرًا للحكم في الدولة الموحدة، ومركزًا لعبادة الإله «يهوه»، إله جميع اليهود. لكنْ لا يوجد أي نص تاريخي، حتى الآن، يذكر بأنها كانت عاصمة لمملكة إسرائيل، لا في هذه الفترة ولا حتى ما قبل السبي البابلي وهذا مما يؤكد على أن أهميتها كانت دينية أكثر من كونها عاصمة سياسية.

وبعد أن استقر الحكم لداود شن حروبًا مع الممالك المجاورة وضدها. لكنه جعل أور-سالم عاصمة لملكه، وبهذا نقلنا من المدينة اليبوسية البسيطة إلى مدينة أورشليم الإسرائيلية.

وبما أن جميع المعلومات المتعلقة بداود مأخوذة أساسًا من كتاب العهد القديم، المشكوك في أصالته، يبحث الإسرائيليون الصهاينة الآن عن إثباتات كتابية تاريخية وأثرية تثبت صحة هذه المعلومات. فبعد أن تمكنت إسرائيل الصهيونية، وبواسطة الحرب، من احتلال أرض فلسطين من البحر إلى النهر، تحاول الآن إيجاد هوية ثقافية وعرقية لها، حتى تبرر لنفسها أمام العالم أسباب قيامها، فتنسب لنفسها تراث أهل فلسطين الثقافي وبمكوناته المتعددة، خاصة الآثار المنسوبة للعصر الحديدي (حوالي 1200 - 539 قبل الميلاد). كما أنها تبحث الآن عن نسب ينسبها إلى أهل بلاد فلسطين الأوائل، ووجدت ضالتها في الكتابات القديمة، حتى ولو كانت، كما يعتقد بعض الباحثين، مزورة. فقد نشر باحثون إسرائيليون وأجانب نصوصًا منقوشة على حجارة، ذكروا أنهم عثروا عليها في مصر وفلسطين والعراق، لكنَّ أهمها كان مسلة منقوشة بالخط الآرامي عُثر عليها في تل القاضي «تل دان» في فلسطين (الشكل 36)، كتبها ملك آرامي انتصر على الإسرائيليين، وتذكر فيما تذكر اسم «بيت داود» ، ورأوا

أن هذا يثبت وجود ملوك من نسل الملك داود الذي يعدونه مؤسس مملكة إسرائيل الموحدة (حوالي 1000 – 923 قبل الميلاد). وحتى نضع الأمر في نصابه الصحيح، ونناقش الأمر بطريقة علمية وفي تجرد رأينا أنه لا بد من دراسة ومناقشة هذا النص ونصوص أخرى يعدها الإسرائيليون مصادر مهمة عند الحديث عن نسبة الإسرائيليين إلى بيت داود، وهي:

1. **مسلة الفرعون المصري مرنبتاح.**
2. **نقش تل القاضي (المعروف في المصادر الأجنبية باسم نقش دان).**
3. **نقش الملك المؤآبي ميشع.**
4. **المسلة الآشورية المعروفة باسم «المسلة السوداء Black Obelisk».**



شكل 36: خارطة تبين المواقع التي عُثر فيها على مسلة مرنبتاح، ونقش تل القاضي، ونقش ميشع، والمسلة السوداء

ونقدم أدناه دراسة لكل مصدر من هذه المصادر الأربعة، مرتبة حسب من الأقدم فالأحدث:

1. مسلة الفرعون المصري مرنبتاح (الشكل 37):

من المعروف أن مصر ارتبطت بفلسطين على مدى الدهور القديمة والحديثة بعلاقات قوية، خاصة في النواحي التجارية، حيث يعد موقع فلسطين الجغرافي حلقة وصل وربط على مدى العصور بين مصر وآسيا. لذا، خضعت فلسطين ولفترات زمنية لحكم الفراعنة، وشكلت في العصر البرونزي المتأخر (حوالي 1550 - 1200 قبل الميلاد) جزءًا من المملكة الحديثة في مصر. من هنا ذُكر كثير من أسماء الشعوب والأماكن في فلسطين في الوثائق المصرية من هذه الفترة، ولا يوجد إلا النزر اليسير من المصادر المحلية، المؤرخة للفترة الواقعة بين حوالي 1200 - 923 قبل الميلاد، والتي تخلو من الإشارة لإسرائيل، ويهوذا، وحتى أور-سالم/ أورشليم (Ahlström 1993: 46) . ويعدُّ الباحثون التوراتيون الاسم «إسرائيل» الوارد في مسلة مرنبتاح (1213 - 1204 قبل الميلاد) التي تخلد انتصاره على القبائل الليبية، والمنحوتة من حجر الجرانيت، وعُثر عليها في مدينة طيبة عام 1896م (شكل 37)، أقدم إشارة لإسرائيل شعبًا، وليس أرضًا (Wilson 1969: 378).

اكتشف هذه المسلة الآثاري الإنجليزي فلندرز بتري (Flinders Petrie) عام 1896م، وهي معروضة الآن في المتحف المصري في القاهرة، ويُذكر أنه عُثر على جزء آخر منها بمدينة الكرنك (Redmount 1999: 97). ويبلغ ارتفاعها 3.18م وعرضها 1.63م، وتؤرخ للسنة الخامسة من حكم مرنبتاح (أي حوالي 2009/ 2008 قبل الميلاد).

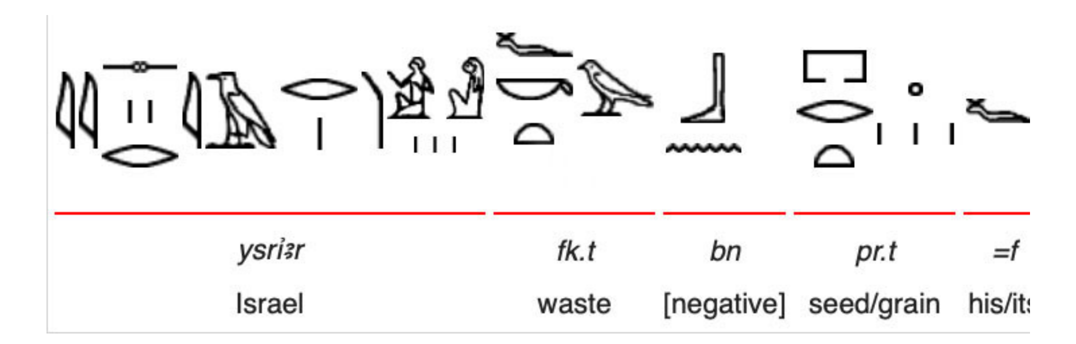


شكل 37: مسلة مرنبتاح (انظر Isserlin 2001: Fig. 34)

وقد قرأها الباحث الألماني فيلهلم شبيغلبيرغ (Wilhelm Spiegelberg) وترجم نصها، وذكر أن ما ورد فيها يخلد انتصار الفرعون المصري على الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر، وأضاف بأن السطرين الأخيرين يشيران إلى حملة قام بها الفرعون على بلاد كنعان وانتصر على عدد من مدنها، وهي: عسقلان، وتل الجزر، ويانوعام، (Spiegelberg 1896). وذكر شبيغلبيرغ أنه حار في قراءة الاسم "I.si.ra.ar?" حتى اقترح عليه فلندرز بيتري قراءته «إسرائيل».

ويرى بعض الباحثين أنه من الضروري مراجعة نتائج دراسة شبيغلبيرغ، لأن أخبار الحملة على بلاد كنعان نُقشت على شكل حاشية في آخر النص البالغ عدد أسطره 28 سطرًا، وليست ضمنه، مما جعل بعض الباحثين يشككون بأصالة المعلومات ما ورد

في السطرين الأخيرين، أي بحصول حملة عسكرية مصرية على كنعان في ذلك الوقت، ورأوا أن هذه المعلومة أُضيفت في وقت لاحق على النص الأصلي (Lemche 1998: 36 – 37). كما أن غوستا آلشتروم (Gösta Ahlström) (Ahlström 1993: 45) فضل أن تكون الأسماء المذكورة في الحاشية (عسقلان، وتل الجزر، ويوناعم، وإسرائيل، وكنعان، وحورو) أسماء أماكن وليس شعوبًا، ووافقه في هذا نيلس بيتر ليمكه (Lemche 1998: 37)، واقترحا أن يكون الاسم هو «يزراعيل»، أي سهل مرج ابن عامر (الجزء الشمالي من المرتفعات الجبلية الوسطى). وننوه هنا إلى أن الحفريات الأثرية التي جرت في المواقع الأثرية المذكورة في النص لم تدل على وجود تدمير حدث في زمن الفرعون المصري مرنبتاح، عدا ما ذكره وليم ديفر أن الطبقة XIV في تل الجزر دُمرت على يد هذا الفرعون (Dever 1996: 398).



شكل 38: الاسم «إسرائيل» كما كُتب بالهيروغليفية على مسلة مرنبتاح (عن ويكيبيديا)

وكي لا نعرض وجهًا واحدًا لقطعة النقد، نورد أدناه آراء أخرى في كلمة «إسرائيل/ يزراعيل» الواردة في النص (الشكل 38). فمايكل هاسيل (Michael Hasel)، مثلًا (Hasel 1994: 52 – 54) يرى أن كلمة حبوب pr.t الواردة في النص والمتعلقة بالكلمة «إسرائيل/ يزراعيل» دالة على الشعب وليس الأرض؛ ويقترح ترجمة الجملة التي تذكر «إسرائيل» على النحو الآتي: «دمرتُ الإسرائيليين ومخازن حبوبهم». وهذا

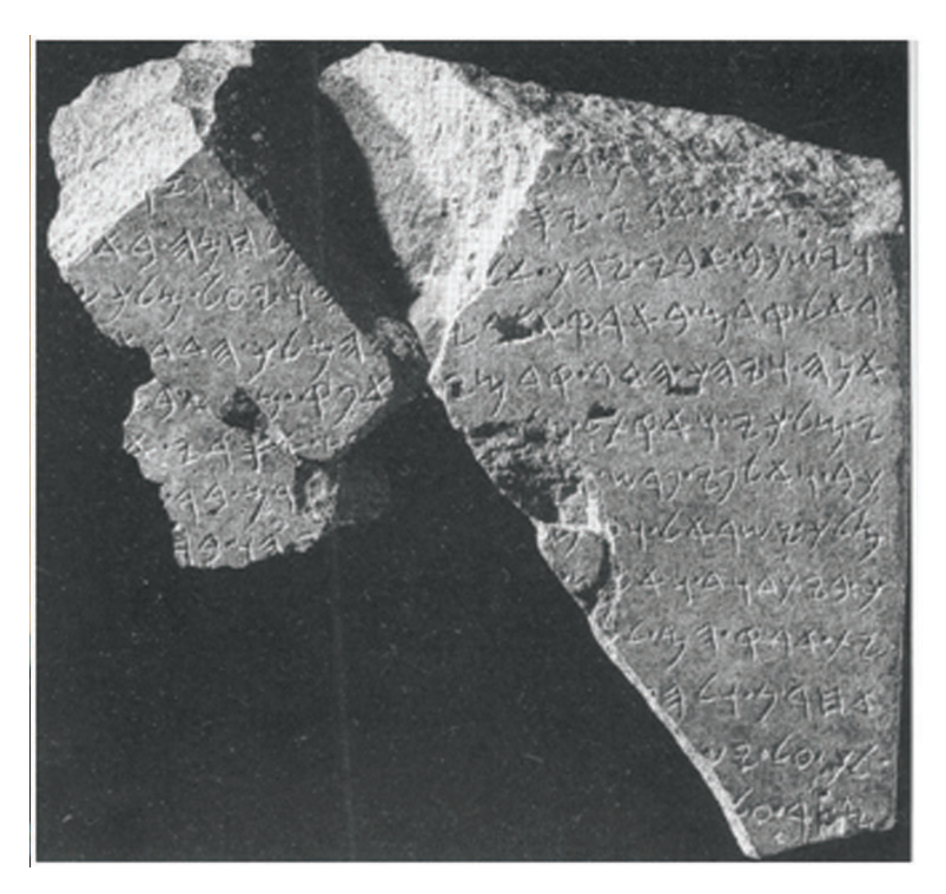
يعني أنهم لن يستطيعوا البذار في السنة القادمة، لذا ستكون قحطًا عليهم. وهو يرى أن هؤلاء شكلوا قبيلة رعوية، عاشت في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ومارست الزراعة، لكنْ دون ارتباط بأي أرض. ويعتقد آخرون (Redford 1992) أن هؤلاء هم قبائل الشاسو البدوية التي ذُكرت سابقًا في السجلات المصرية. وينكر علماء آخرون هذا الربط بين كلمة «إسرائيل» الواردة في النص وقبائل الشاسو البدوية التي عاشت في جنوبي بلاد الشام، ويزعمون أن الكلمة تشير إلى مجموعة بشرية أقامت في المرتفعات الجبلية الوسطى في بلاد كنعان نهاية العصر البرونزي المتأخر، أي في نفس المنطقة التي قامت فيها مملكة إسرائيل في مرحلة لاحقة (Steger 2001).

ومن الملاحظ، وبناء على التفسيرات المنشورة لكلمة «إسرائيل/ يزراعيل» الواردة في نص مسلة مرنبتاح، أن العلماء يشككون في أصالتها، ولم يتفقوا حتى الآن على تفسير موحد لها.

2. نقش تل القاضي (الشكل 39):

يقع تل القاضي في أسفل المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ، في منطقة تربط جبال الجولان/ سوريا ومزارع شبعا/ لبنان وشمالي سهل الحولة في فلسطين (شكل 39). بدأت بعثة أثرية إسرائيلية أعمال التنقيب فيه عام 1966م، بإشراف أفراهام بيران (A.Biran) (Biran 1994). ومن أهم ما اكتُشف في الموقع ثلاث كسر حجرية، تمثل أجزاء من مسلة مصنوعة من الحجر البازلتي وجدت مكسّرة، وتم إعادة استخدام الكسرة الكبيرة منها في بناء الوجه الخارجي لأحد جدران المدينة بالقرب من البوابة الجنوبية، المؤرخ لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد. ويبلغ ارتفاع كسرة الحجر هذه 32 سم وأقصى عرض لها 22 سم (شكل 39). وعُثر على الكسرة الكبيرة في موسم عام 1993 وعلى الكسرتين الصغيرتين عام 1994 (Biran and Naveh 1993; 1995).

ولا يزال الجدل قائمًا بين الباحثين فيما إن كانت هذه الكسر الثلاث من مسلة حجرية واحدة. ويعتقد بعضهم أنها في الأصل نقشان (Lemche 1998:39). والنص المنقوش على المسلة بالخط الآرامي، يتكون من 13 سطرًا منقوشة بآلة معدنية حادة الرأس، ويفصل بين كل كلمة وأخرى نقطة. ويعتقد المنقبون أن المسلة تنسب لأحد ملوك مملكة دمشق الآرامية، وربما يكون هو الملك «حزائيل» أو أحد أبنائه، الذي حارب تحالف إسرائيل وبيت داود (يهوذا) خلال القرن التاسع قبل الميلاد وانتصر عليهما. وجاءت أهمية النقش في أنه يذكر «بيت داود»، ولهذا عدَه الآثاريون التوراتيون أول إشارة إلى داود ونسله من بعده.



شكل 39: نقش تل القاضي (دان) (عن: Isserlin 2001: Fig. 36)

بعد الكشف عن هذه المسلة، ودراستها، ذكر المنقبون أنها تعود إما للقرن التاسع، أو الثامن قبل الميلاد، وأنها وُجدت تحت الردم الذي نتج عن الهجوم الآشوري للموقع في عام 733/ 732 قبل الميلاد، وربما كسَرها سكان الموقع، واستخدموا كسرها في بناء أحد الأبنية. لكنَّ باحثين آخرين (Athas 2003) اقترحوا أنها تعود لبداية القرن الثامن قبل الميلاد، وتخص الملك الآرامي بن- هدد بن حزائيل. وعلى الرغم من محاولة بيران ورفاقه إعادة النقش لمنتصف القرن التاسع قبل الميلاد، إلا أن هناك باحثون يشككون في تاريخ النقش، بل إن بعضهم يظن أنه مزور (Lemche 1998: 41. 181). ويرى مختصون بدراسة الكتابات القديمة أن شكل الخط، واللغة، يخصان الآرامية المبكرة، أي القرن التاسع قبل الميلاد. بل ويضيف ليمكه (Lemche 1998:39) أن الذي بين أيدينا هم كسر من مسلتين تضمان نقشين كتابيين وجدا بعيدين مسافة 8 مترات عن بعضهما بعضًا، بدليل أن الأسطر في الكسرتين الكبيرتين لا يتطابقان، كما أن طريقة الكتابة فيهما مختلفة، وربما كُتبتا في نفس الوقت. وهناك أمر آخر يعزز التشكيك في أصالة مسلة تل القاضي، وهو أنه عُثر عليها في مكان غير مكانها الأصلي، أي أنها منقولة من المكان الذي نصبها فيه الملك الآرامي. كما تجب الإضافة أن الكتابات المعاصرة لم تشر إلى مقتل ملك يهوذا آحازيا على يد ملك دمشق الآرامي. ويمكننا الإشارة إلى ما ذكره ليمكه بأن محاولة علماء الآثار الإسرائيليين تأريخ نقش تل القاضي في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد الغاية منه أن يكون معاصرًا لنقش الملك الموآبي ميشع الذي ذكر إسرائيل، وأن يكون أقدم من النقوش الآرامية الأُخرى التي شاعت خلال نهاية القرن التاسع والقرن الثامن قبل الميلاد. واختلف العلماء في قراءة النقش، لكننا نعتمد أدناه الترجمة التي اقترحها ليمكه للنقش الموجود على الكسرة الكبيرة من المسلة الذي يذكر «بيت داود» (Lemche 1998: 39 – 40)، وهي على النحو الآتي:

السطر الأول : [.......]

السطر الثاني: [ ].. أبي..[

السطر الثالث: ومات أبي. وذهب إلى [إس

السطر الرابع: رائيل دخلت أرض أبي [ ]

السطر الخامس: أنا، وذهب هدد أمامي [ ]

السطر السادس: ... ملكي وأنا قتلنا .. [راكبي

السطر السابع: عربات وآلاف الخيالة

السطر الثامن: ملك إسرائيل، وقتلت [

السطر التاسع: بيت داود. ووضعت [

السطر العاشر: أصبحت بلادهم [

السطر الحادي عشر: وآخرون و ... [

السطر الثاني عشر:....على ...[

السطر الثالث عشر:حصار على [

على أية حال، فإن الدارس يجد أن النقش يذكر انتصار الملك الآرامي على دولتين الأولى إسرائيل (السطر الثامن من النقش)، والثانية بيت- داود (السطر التاسع)، أي أنه كان اتحادًا بينهما ضد عدو واحد. ومثل هذا الأمر، إن صح، فإنه يملأ فجوة في المصادر التاريخية، وهذا ما تسعى إليه إسرائيل في الوقت الحاضر. ونشير هنا إلى أن الكاتب ذكر في الحالة الأولى ملك إسرائيل، لكنه في الحالة الثانية لم يشر إلى ملك بيت - داود، وإنما إلى بيت - داود. وهذا ما أشار إليه أكسل كناوف سابقًا (Knauf 1994).

خضع هذا النقش لكثير من الدراسات، وزاد اهتمام العلماء به، لأنه، كما ذكرنا أعلاه، يذكر اسم «إسرائيل» و «بيت داود»، وهذه تعد أقدم إشارة نصية خارج كتابات العهد القديم (Rainey 1994; Davies 1994; Rendsburg 1995; Lemche 1998). ويرى فيليب ديفيس (Philip Davies) أن «بيت داود» تتكون من ستة أحرف وكلمتين، فالكلمة الأولى «بيت» تحمل عدة معان، مثل «بيت، أي مكان الإقامة» ، كما نقول «بيت لحم» «أي بيت الخبز»، وهذا يعني أن المقطعين «بيت» و «لحم» هما كلمة واحدة، وربما ينسحب هذا الأمر على «بيت داود». ويضيف أن كلمة «بيت لحم» يمكن أن تُفهم على أنها بيت الإله «لحمو»، والمقصود بكلمة «بيت» هنا مكان عبادة، أو معبد. وعلى أية حال، فإن ديفس يفضل أن تُحمل «بيت داود» عنها اسم لمكان وليس أنها تقصد داود وذريته (Davies Ph. 1994). وادعى بعض الباحثين (Athas 2003) أن المقصود «ببيت داود» الواردة في نقش تل القاضي هو القدس، بينما رأى آخرون أن الاسم «بيت-داود» المذكور في نقش تل القاضي لا يخرج عن كونه يشير إلى موقع يقع في المنطقة المحيطة بتل القاضي (Lemche 1998: 43).

3. نقش ميشع (الشكل 40):

تعد مسلة الملك المؤآبي ميشع التي عُثر عليها في بلدة ذيبان عام 1868م، الوثيقة التاريخية الثالثة التي تذكر «اسرائيل»، سواء باسم «ملك إسرائيل» أو كوحدة سياسية. والمسلة حجر بازلتي، ارتفاعه 1.24م، ويبلغ أقصى عرض له 71سم، وهو مستدير الشكل في طرفه العلوي (شكل). ويؤرخ النقش في زمن الملك المؤابي «ميشع» في حوالي 840 قبل الميلاد. عثر المبشر الألماني فردريك أوغسطس كلاين (Frederick Augustus Klein) على هذه المسلة لدى أحد سكان بلدة ذيبان عام 1868م، وقام بعدها قنصل فرنسا في القدس شارل سايمون كليرمونت-غانو "Charles Simon Clermont-Ganneu" في عام 1868م بعمل طبعة للنقش موجودة الآن في متحف اللوفر، حيث تُعرض النسخة الأصلية للنقش.

وأقام الملك ميشع هذا النصب في عاصمته ذيبان تخليدًا لانتصاره على ملك اسرائيل «آحاب بن عَمري» (طوقان 1970). وللنقش أهمية كبيرة عند الدارسين التوراتيين لعدة أسباب، منها أنه يذكر الملك «عَمري ملك إسرائيل» (الأسطر 4-5،10، 18) وابنه «آحاب»، وكذلك اسم الإلهين اللذين عبدهما االإسرائيليون «إيل» (السطر 12) و «يهوه» (السطر 18)، ويعد أقدم وثيقة تاريخية تذكر إسرائيل كوحدة سياسية (بيت عَمري في المصادر الأخرى، خاصة الآشورية) (Dearman 1989; Lemche 1998: 44). وإضافة لهذا، ذكر الفرنسي أندريه لومير أنه استطاع قراءة الاسم «بيت داود» في النقش (Lemaire 1994: 36).



شكل 40: نقش ميشع (عن Dearman 1994)

ومـن هنـا نـرى أن نقـش ميشـع يشـهد بـأن إسـرائيل كانـت خـلال القـرن التاسـع قبـل الميـلاد مملكـة حكمتهـا أسـرة تسـمى «بيـت عمـري»، وهـذا مـا أكدتـه المصـادر الآشـورية. والأهـم مـن هـذا وذاك مـا ورد في السـطر رقـم 12 مـن النقـش، والـذي يقـول « هــ ق ر. ر ي ت. ل ك م ش. و ل م ا ب. و ا ش ب. م ش م. ا ت. ا ر ا ل. د و د هـ. و ا س» وقـدم فـواز طوقـان (1970: 39–40) ترجمـة لهـذا السـطر علـى النحـو الآتي «المدينـة. ر ي ت. لكمـوش. ولمـؤاب/ وأرجعـت (ورددت). مـن هنالـك، أرأل (؟). الاههـا (أي الـه المدينـة). وأس..». وترجـم كثيـر مـن الباحثيـن كلمـة ارال علـى أنهـا «موقـد المذبـح» حيـث وردت لفظـة تشـابهها في كتـاب العهـد القديـم (حزقيـال 43: 15–16). ومـن المعـروف أن الجـذر «ا ر ر» في العبريـة لـه صلـة بالإيقـاد والنـار، وأمـا «ال»، فهـي مـن اسـم الإلـه السـامي «إيـل»، وبنـاء عليه يصبـح المعنـى «موقـد إيـل». أمـا كلمـة «د و د هـ» فذكـر كثيـر مـن الباحثيـن (طوقـان 1970: 40) أن معناهـا الشـائع في اللغـات السـامية هـو «العـم»، وتعنـي في العبريـة «المحبـوب». بينمـا يـرى ليمكـه أن «د و د ى» ربمـا كانـت عنوانًـا لشـيء، ربمـا خـص المعبـد في «عطـروت»، أو كانـت صفـة معناهـا «محبوبـة»، أو ربمـا اسـمًا لإلـه مؤابـي يدعـى «داودو» (Lemche 1998: 45 – 46).

وأعـاد الفرنسـي أندريـه لومير في عـام 1994م قـراءة نـص النقـش مـن خـلال الطبعـة الأصليـة التـي عملهـا كليرمونـت - غانـو في عـام 1868م ، وذكـر أنـه تعـرف علـى شـبه الجملـه «بيـت داود» في السـطر الحـادي والثلاثيـن (Lemaire 1994: 30 – 37). ولكـي يكـون هـذا البنـاء اللغـوي صحيحـاً توجـب علـى لوميـر أن يكمـل الجـزء المفقـود مـن هـذا السـطر، فأضـاف الحـرف «د» وأحرفًـا أخـرى، فاختلـف المعنـى كليًـا عمـا نشـره غيـره مـن الباحثيـن، مـن أمثـال فـواز طوقـان. فبينمـا ترجـم

لومير هذا السطر على النحو الآتي: «وحورنن سكنها بيت [د]اود «As for Horonen, there lived in it the house of [D]avid» «וחורנן. ישב. בה. בת[ד]וד»، نجد أن فواز طوقان يتحرج من إعادة تركيب هذا الجزء المفقود من النص، لأنه يعتقد أن هذا الفعل يعتمد على الحدس لا على الحقيقة، ونحن نؤيده في هذا. كما لم يوافق علماء آخرون على ما نشره لومير من استنتاج ذاتي لكلمة «داود» (Margalit 1995: 275; Bordreuil: 2001: 162 – 163 pp. 158 – 167 pp. 158 – 167).

4. المسلة السوداء (الشكل 41):

من الملاحظ أن المصادر والوثائق التاريخية التي عُثر عليها في بلاد الرافدين، سواء الآشورية أو البابلية لم تذكر، في الغالب، دولة إسرائيل باسم «مملكة إسرائيل»، وعندما تذكر يُهوذا فإنها تأتي على شكل «مملكة يهوذا» وليس «بيت داود». ونعتت الكتابات الآشورية إسرائيل باسم «بيت عَمري» أو السامرة. وهناك نص واحد من زمن الملك الآشوري شلمنصر الثالث (حوالي 858-823 قبل الميلاد) يصف فيه انتصاره على تحالف ملوك سوريا وفلسطين ضده، ويذكر من بينهم الملك آحاب ملك إسرائيل، الذي ساهم بألفي عربة قتال وعشرة آلاف مقاتل راجل (Pritchard 1969: 278 – 279) . كما تذكر «المسلة السوداء Black Obelisk» المؤرخة لسنة 830 ق.م، والتي عُثر عليها في نمرود بشمالي العراق، اسم الملك «يهو بن عَمري» من بين دافعي الجزية للملك شلمنصر الثالث (Pritchard 1969: 280 – 281). ويظهر من هذا الأمر، انهيار تحالف الممالك الشامية في وجه القوة الآشورية بعد موت الملك آحاب.



شكل 41: مسلة الملك الآشوري المسماة «المسلة السوداء» التي تظهر انتصار شلمنصر الثالث على عدد من الملوك ومنهم ملك إسرائيل «يهو» (عن Isserlin 2001: Fig. 23)

عُثر على المسلة السوداء (شكل 41) في موقع نمرود (اسمها القديم كالخو) إحدى عواصم الآشوريين في عام 1846م، وهي منحوتة من حجر جيري أسود اللون، أقامها الملك الآشوري شلمناصر الثالث (حكم من 858 وحتى 824 قبل الميلاد)، وهي تشبه المسلات المصرية في شكلها. والنسخة الأصلية معروضة الآن في المتحف البريطاني في لندن. وتخلد هذه المسلة انتصارات هذا الملك على اعدائه، وتتجلى أهميتها في أنها تمثل أقدم تصوير لشخص إسرائيلي. ويمثل أحد الأشرطة المنحوتة

على المسلة ملك مملكة بيت عَمري، الإسرائيلي «يهو» وقد أحضر الجزية للملك الآشوري وسجد تحت قدميه (شكل 42).

بعد هذا، ذكر الملك الآشوري أدد- نيراري الثالث (810-783 قبل الميلاد) في حولياته اسم «بيت عَمري» بصفته جزءًا من مملكته التي ضمت ممالك صور وصيدا وإدوم وفلسطين (Miller and Hayes 1986: 299). كما توالى ذكر السامرة وبيت عَمري في سجلات تيجلات بلاصر الثالث (744-727 ق.م.). وفي فترة حكم سرجون الثاني (721-705 ق.م.) أُطلق اسم السامرة على المملكة الشمالية، كما نجد أنه يفرق بين مملكة السامرة وبيت عَمري (Pritchard 1969: 284 - 285). من هنا نتبين أن الآشوريين لم يسموا المملكة الشمالية باسم «إسرائيل» على الإطلاق، وإنما أرض «بيت عَمري» وعاصمتها «السامرة» (Lemche 1998:53). ولا بد لنا من التنويه هنا إلى أن هذا يختلف عما ورد في مسلة الملك الموابي ميشع، الذي أسمى مملكة آحاب بن عمري باسم «إسرائيل».



شكل 42: المشهد المصور على المسلة السوداء ويظهر الملك ياهو بن عمري يسجد تحت قدمي الملك الآشوري شلمناصر الثالث (عن Wikipdia).

وأما فيما يتعلق بمملكة يهوذا في السجلات الرسمية الآشورية، فورد اسمها «يهوذا» وجاءت أسماء ملوكها بين أسماء الممالك والملوك الآخرين في سوريا وكليكيا وفينيقيا وفلسطين والأردن، ونضرب مثالًا على هذا من زمن الملك الآشوري سنحاريب الذي حاصر القدس عام 701 قبل الميلاد، ووصف محاصرته للملك حزقيا في عاصمته أور- ساليمو «Ur–salimmu» «كعصفور في قفصه» (Pritchard 1969: 282). وتوالى ذكر مملكة يهوذا في المصادر الآشورية على أنها دافعة للجزية، وعومل ملوكها معاملة ملوك الدول الأخرى المجاورة. وخلال حكم الدولة البابلية الحديثة «الكلدية»، ذكر الملك نبوخذنصر في سجلاته أنه حاصر مدينة «يهوذا» وتغلب عليها، ونهبها ونصَّب عليها ملكًا مواليًا له (Pritchard 1969: 564).

ومن هنا نستطيع القول إن الآشوريين لم يولوا مملكة يهوذا أي اهتمام قبل حكم الملك تيجلات بيلاصر الثالث، ربما لضعفها وعدم قدرتها على مجاراة الأحداث في المنطقة، على عكس السامرة. ولعلنا نستنتج بأن الوثائق والكتابات الآشورية والبابلية الحديثة لا تساعد كثيرًا في دراسة أحوال دولتَي إسرائيل ويهوذا؛ إن هذه الوثائق، للأسف، لم تذكر على الإطلاق التركيبة السكانية والأعراق التي شكلت هاتين الدولتين، ومن هنا لا توجد في هذه السجلات أية إشارة لما يُعرف باسم «بيت داود».

مملكة إسرائيل:

سيكون حديثنا عن مملكة إسرائيل مختصرًا، لكنه سينصب على عدة موضوعات، هي: فترة القضاة، تشكيل نواة الدولة أيام شاؤول، احتلال داود للقدس وتشكيل المملكة الموحدة، سليمان ونهاية الدولة، وأخيرًا أين هي آثار المملكة الموحدة في القدس؟ ولدراسة هذه الموضوعات نستقي معلوماتنا من النصوص

التوراتية فقط، لأن احتلال بني إسرائيل لفلسطين لم يُذكر في أي نص تاريخي خارج الكتب الدينية. وتبدأ القصة التوراتية بأن الرب وعد بني إسرائيل بإعطائهم أرض فلسطين، وجاءت القصة التوراتية على النحو الآتي (يشوع 1: 1- 6):

«1. وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلًا. 2 موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن، أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي لبني إسرائيل. 3 كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته، كما كلمت موسى .4 من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. 5 لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك. كما كنت مع موسى أكون معك. لا أهملك ولا أتركك. 6 تشدد وتشجع. لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التي حلفت لآبائهم أن أعطيهم».

ويصف سفر يشوع كيفية دخول بني إسرائيل إلى فلسطين عن طريق أريحا (يشوع 6)، وكيف أحرقوا المدينة على من فيها عدا الزانية التي ساعدت الجاسوسين الإسرائيليين. ويذكر الإصحاح التاسع من نفس السفر أن اليبوسيين كانوا أعضاء في حلف وقف في وجه الإسرائيليين. وتضيف التوراة أن ملك أورشليم أدوني صادق دعا عددًا من ملوك البلاد الأموريين لمحاربة مدينة «جبعون»، لأنها صالحت يشوع ملك إسرائيل.

إذ تذكر التوراة أنه وبعد دخول العبرانيين لفلسطين توزعت القبائل الأرض فيما بينها، لكنْ، وبعد مرور فترة من الزمان، أجمعت هذه القبائل على ضرورة الاتحاد واختارت شاؤول ملكًا عليها. ويظهر من النصوص التوراتية أن سكان فلسطين لم يستسلموا للإسرائيليين، بل كانوا على صراع دائم فيما بينهم. ومن الجدير بالذكر،

أن هـذه القبائـل الإسـرائيلية لـم تشـكل كيانـًا سياسـيًا موحـدًا، و إنمـا عاشـت جماعـات منعزلـة عـن بعضهـا بعضًـا يرأسـها قضـاة. وامتـد عصـر القضـاة هـؤلاء بيـن حوالـي 1200 إلـى 1000 قبـل الميـلاد. لكنهـا تنـادت مـع نهايـة القـرن الحـادي عشـر قبـل الميـلاد (يقـدر التاريـخ بحوالـي 1030 قبـل الميـلاد (السـواح 2001: 42) قبـل الميـلاد، أي بعـد مـرور حوالـي القرنيـن في أرض فلسـطين إلـى الاتحـاد تحـت لـواء ملـك واحـد. ونعتقـد أن السـبب في هـذه الوحـدة، هـو شـعور هـذه القبائـل بخطـر الممالـك المحيطـة، خاصـة الآراميـة، والعمونيـة، والمؤابيـة، والتـي أصبحـت قوتهـا تهـدد كل مـا حولهـا مـن دويـلات أخـرى. وتمـت المنـاداة بالملك شـاؤول حاكمًـا على هـذا الاتحـاد. وخـاض هـذا الملـك المنتخـب معـارك ضـد الفلسـتينيين، وقُتـل في واحـدة منهـا مـع ثلاثـة مـن أولاده (صموئيـل الأول:31: 1-5). وتولـى الحكـم مـن بعـده الملـك داود، والـذي تبـدأ معـه قصـة القـدس التوراتيـة. لكـن مـن هـو الملـك داود؟

مدينة داود في التوراة (الشكل 43):

أثبتـت الحفريـات الأثريـة التـي جـرت في مدينـة القـدس والمناطـق المحيطـة بهـا أن النـاس نزلـوا في المـكان آلافًـا مـن السـنين قبـل قيـام دولـة اسـرائيل الموحـدة. وتُذكـر المدينـة في النصـوص الفرعونيـة القديمـة المؤرخـة للقرنيـن التاسـع عشـر والثامـن عشـر (نصـوص اللعـن)، والرابـع عشـر قبـل الميـلاد (رسـائل تـل العمارنـة) (كفـافي 2005). وتذكـر التـوراة أن الملـك داود أخـذ المدينـة عنـوة مـن سـكانها الأصلييـن، اليبوسـيين، وعلـى النحـو الـذي ذكرنـاه في الفصـل الخامـس مـن هـذا الكتـاب.

وفي كلا الحالتيـن المذكورتيـن أعـلاه، يذكـر النـص أن الملـك داود احتـل المدينـة من أصحابهـا اليبوسـيين، بعدهـا، في بدايـة حكمـه، أقـام جـدارًا مكونًـا مـن عـدة مصاطـب (ميلـو) بُنيـت فـوق بعضهـا بعضًـا علـى شـكل مـدرج، وبنـى لـه فوقهـا حصنًـا سـماه «مدينـة داود».



شكل 43: هذه مدينة داود التي يتخيلها الإسرائيليون ولم يُعثر على أية آثار تثبت تخيلهمش

وتضيف النصوص التوراتية، أن داود بنى في أواخر حكمه قصرًا بمساعدة حيرام ملك صور الفينيقي، فيذكر النص: «وأرسَلَ حِيرامُ مَلِكُ صورَ وفدًا إلى داوُد وأخشابَ أرزٍ ونَجارينَ ونحّاتينَ، فبَنَوا لَه قصرًا» (صموئيل الثاني 5: 11). ويؤكد بنيامين مازار أن هذا القصر بني من خشب الأرز بواسطة البنَائين الفينيقين وفوق هذا المدرج (الميلو)، وأن داود وسع حدود عاصمته باتجاه المنطقة المقام فوقها الحرم الشريف الآن (Mazar B. 1993: 700). لكنَّ كاثلين كنيون (1974) التي نقبت عن الموقع قالت إن هذا المدرج بني في فترة أقدم، وأكدت هذا الإنجليزية الأخرى كي براغ (Prag 2007).

بعد وفاة داود تولى الحكم من بعده ابنه سليمان، كما نعلم. وتذكر نصوص التوراة أنه أكمل بناء السور الذي بدأه والده، وقوى بناء المدرج (الميلو)، وبنى فوقه وفوق المنطقة المجاورة له عمائر ضخمة. وتقول أسفار التوراة بهذا الصدد: «وسبَبُ ذلِكَ أنَّ سُليمانَ كانَ يَبني مَلو ويُرَمِّمُ سُورَ مدينةِ داوُدَ أبيهِ» (الملوك الأول 11: 27).

لكن، ماذا حل بسكان القدس اليبوسيين؟ فكما ذكرنا آنفًا، تؤكد التوراة في أكثر من موضع أن الإسرائيليين لم يتمكنوا من طردهم، وأقاموا مع قبيلة بنيامين اليهودية في المدينة. ومن الأمثلة على هذه النصوص التوراتية، نورد ما يأتي:

«وأمَّا اليَبوسيُّونَ سُكَّانُ أورُشليمَ، فلم يقدِرْ بَنو يَهوذا على طَردِهِم. فأقامَ اليَبوسيُّونَ معَ بَني يَهوذا في أورُشليمَ إلى هذا اليومِ» (يشوع 15: 63).

«أمَّا اليَبوسيُّونَ المُقيمونَ في أورُشليمَ فلم يَطرُدْهُم بَنو بنيامينَ، فأقاموا معَ بَني بنيامينَ في أورُشليمَ إلى هذا اليومِ» (القضاة 1: 21).

هذا ما تقوله الأسفار التوراتية التي كتبها اليهود بعد عودتهم من المنفى في القرن الخامس قبل الميلاد. وعلى هذا الأساس لا يمكن التأكد من صحة المعلومات الواردة فيها.

على أية حال، يذكر النص التوراتي (الفصل الخامس من هذا الكتاب) أن الملك داود احتل المدينة من أصحابها اليبوسيين عنوة، وبنى بعدها، أي في بداية حكمه، جدارًا مكونًا من عدة مصاطب (ميلو) بُنيت فوق بعضها بعضًا على شكل مدرج، وبنى فوقها حصنًا أسماه «مدينة داود».

وكما ذكرنا أعلاه فقد ذكرت النصوص التوراتية فإن داود بنى في أواخر حكمه قصراً بمساعدة ملك صور الفينيقي أحيرام (صموئيل الثاني 5:11)، لكن شيئًا من بقايا هذا البناء الضخم لم يعثر عليها.

القدس مدينة الملك سليمان (حوالي 963 – 923 قبل الميلاد):

بعد وفاة الملك داود، تولى الحكم من بعده ابنه سليمان. وكان أول عمل قام به هو قتل أخيه «أدونيا» الذي نازعه الملك (الملوك الأول 2: 24 – 25). وتذكر التوراة أنه بعد أن وطد حكمه تزوج من ابنة فرعون مصر، وأشاد المباني الخاصة والعامة الضخمة. ويخبرنا سفر الملوك الأول عن مشاريع تجارية ونشاط واسع في استخراج المعادن والمستوى العالي من الترف الذي وصل إليه الناس في مملكة سليمان، وكان يحاول التشبه بما كان يجري في البلاطين الفرعوني والآشوري. ويرد النص في سفر الملوك الأول (3: 1–3) على النحو الآتي:

« 1 وصاهرَ سُليمانُ فِرعَونَ مَلِكَ مِصْرَ وتزَوَّج اَبنَتَهُ، وجاءَ بها إلى مدينةِ داوُدَ إلى أنْ أكمَلَ بِناءَ قصرِهِ وهَيكلِ الرّبِّ وسُورِ أورُشليمَ المُحيطِ بِها. 2 وكانَ الشَّعبُ يُقَدِّمونَ ذبائِحَهُم على رُؤوسِ التِّلالِ، لأنَّهُ لم يكُن هَيكلٌ لاَسم الرّبِّ إلى تِلكَ الأيّامِ. 3 وأحبَ سُليمانُ الرّبَّ وتَبِعَ فرائِضَ داوُدَ أبيهِ، غَيرَ أنَّهُ كانَ يُقَدِّمُ الذَّبائحَ ويَحرُقُ البَخورَ على رُؤوسِ التِّلال».

وتذكر التوراة أن سليمان كان محبًا للعمران، فبنى قصرًا له في القدس، واستخدم في بنائه خشب شجر الأرز من لبنان، وقصورًا ومباني أخرى له ولأهله في أماكن أخرى، وحصَّن المدن، وبنى مدنًا أخرى، كما أنه بنى بيتًا للرب في القدس (الملوك الأول7: 1–51) . وتصور التوراة مملكة إسرائيل في عهده مزدهرة وغنية. ومما تأخذه التوراة على الملك سليمان أنه تأثر بديانة الأقوام المجاورة، فمارس طقوس الخصوبة الكنعانية، وذبح وأوقد على رؤوس المرتفعات على عادة الكنعانيين. كما أنه تزوج من نساء من غير بنات جلدته كما ورد في سفر الملوك الأول 11: 1 – 4 ما يأتي:

« 1وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات 2 من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة 3 وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه.»

لكن، أين هذه الآثار في القدس؟ من المعلوم أن كثيرًا من البعثات الأثرية أجرت حفريات أثرية في القدس، ولم تعثر على أي من هذه المخلفات الضخمة من زمن الملك سليمان. وعليه، فقد أنكر كثير من الآثاريين، ومنهم بعض الإسرائيليين، وجود مملكة إسرائيلية بالقوة والضخامة التي وصفتها النصوص التوراتية (Thompson 1999; Whitelam 2001). كذلك لم نجد في الوثائق التاريخية المكتوبة، سواء في ذلك العصر أو بعده، معلومات تدعم هذه الإدعاءآت. ويذكر سفر الملوك الأول 11: 4-8 أنه بنى أماكن مرتفعة بالقرب من أورشليم لعبادة آلهة صيدا ومؤآب وعمون، على النحو الآتي:

«وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه، كقلب داود ابيه 5 فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين 6 وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه 7 حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين على الجبل الذي تجاه اورشليم. رجس بني عمون 8 وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن.»

وتذكر النصوص التوراتية أن سليمان ورث عن أبيه الملك داود مملكة واسعة، كانت مساحتها أكبر بكثير من تلك التي تركها بعد موته. إذ أنه وفي أواخر حكمه حرر

الملك الآرامي رصين مملكته من حكم مملكة إسرائيل، كما أن الأمير الأدومي هدد، والذي كان الملك داود قد طرده من بلاده عاد ليزعج الملك سليمان (حتي 1982: 207). كما كان يشغِّل العمال في الأشغال العامة على نظام السُخرة. كل هذه الأمور، إضافة إلى نفقاته المالية الكبيرة ساعدت على انقسام المملكة الموحدة من بعده، والتي استمرت لحوالي سبعين عامًا، إلى مملكتين: إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال، ويهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم.

أورشليم مدينة يهوذا الرئيسية:

ذكرنا أعلاه، أن بعض الباحثين يعتقدون أن المنطقة الجبلية الممتدة بين مدينتي القدس والخليل كانت فقيرة بسكانها المستقرين المزارعين خلال العصر الحديدي الأول بسبب الجفاف، وكانت مكانًا تجول فيه القبائل الرعوية. لكنَّ الحال تغير في العصر الحديدي الثاني، خاصة في بدايته، إذ ارتفع عدد القرى الزراعية وعدد السكان فيها (Finkelstein and Silberman 2001: 158 – 159)، بعد أن زرع الناس أشجار الزيتون.

وتزايد الطلب في هذه الفترة على زيت الزيتون، فراحت مدن منطقة السفلة، وعلى رأسها مدينة تل الدوير (لخش) تتوسع باتجاه جبال القدس والخليل، وربما ساعد هذا أيضًا في تأسيس القرى في هذه المنطقة الجبلية. وعلى الرغم من هذا الازدياد في عدد السكان والقرى الزراعية، إلا أن الدلائل الأثرية والوثائق المكتوبة لا تشير إلى قيام سلطة مركزية في هذه المنطقة (السواح 2003: 175).

شهد القرن التاسع قبل الميلاد صعود وازدهار عدد من الممالك في بلاد الشام، مثل مملكة دمشق الآرامية، ومملكة بيت عمري في السامرة، وممالك عمون ومؤاب وأدوم شرقي نهر الأردن. كذلك هيَّأ سكان مناطق جبال القدس والخليل

المنحـدرات الجبليـة للزراعـة بعمـل مصاطـب تصلـح الزراعـة فيهـا، فـزادت منتوجاتهـم الزراعيـة، وصدروهـا للمـدن المجـاورة، مثـل القـدس والخليـل وتـل الدويـر (Thompson 1999: 163). ويـرى بعـض الباحثيـن (السـواح 2001: 175) أن أورشـليم استطاعت في حوالي سنة 750 قبل الميلاد السيطرة على المنطقة جميعها، بما في ذلك مدينة الخليل (حبرون)، وأن تحـول أمراءهـا إلـى ملـوك، وظهـر اسـم مملكـة يهـوذا لأول مـرة في الوثائـق الآشـورية.

علـى أيـة حـال، فإننـا نـرى أن هـذا البنـاء التاريخـي لتأسـيس دولـة عاصمتهـا أورشليم جملة اعتمد بشكل كبير على الدلائل الأثرية الناتجة عن المسوحات الأثرية الإسرائيلية التي أجرتها البعثات الإسرائيلية في مناطق القدس والخليل بعد احتلالها في عـام 1967م؛ أي أنهـم بحثـوا واسـتنتجوا وقـرروا، وتركـوا للباحثيـن الآخريـن أن يوافقـوا علـى مـا توصلـوا لـه مـن آراء.

تذكـر التـوراة أن ممثلـي القبائـل الاثنتـي عشـرة الإسـرائيلية اجتمعـوا في شـكيم بعد وفاة الملك سليمان في حوالي 923 قبل الميلاد، ونصبوا ابنه رحبعام ملكًا على المملكـة الموحـدة. وناقشـوا في هـذا الاجتمـاع موضـوع تخفيـف الضرائـب التـي فرضهـا والـده عليهـم، وإن كان رحبعـام مستعدًا للاستجابة لطلبهـم. لكـنَّ ابـن السادسـة عشـرة سـنة مـن العمـر أجابهـم: «أبـي أدّبكـم بالسـياط وأنـا أؤدبكـم بالعقـارب، ويذكـر النـص التـوراتي الحادثـة علـى النحـو أدنـاه:

«1 وذهـب رحبعـام إلـى شـكيم، لأنـه جـاء إلـى شـكيم جميـع إسـرائيل ليمِّلكـوه 2 ولمـا سـمع يربعـام بـن نبـاط وهـو بعـد في مصـر؛ لأنـه هـرب مـن وجـه سـليمان الملـك وأقـام يربعـام في مصـر 3 وأرسـلوا فدعـوه. أتـى يربعـام وكـل جماعـة إسـرائيل وكلمـوا رحبعـام قائليـن 4 إن أبـاك قسـى نيرنـا، وأمـا أنـت فخفـف الآن مـن عبوديـة إبيـك

القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك 5 فقال لهم اذهبوا إلى ثلاثة أيام أيضًا ثم ارجعوا إلي. فذهب الشعب 6 فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حي قائلًا: كيف تشيرون أن أرد جوابًا إلى هذا الشعب؟ 7 فكلموه قائلين: إن صرت اليوم عبدًا لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلامًا حسنًا يكونون لك عبيدًا كل الأيام 8 فترك مشورة الشيوخ التي أشاروا بها عليه، واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ووقفوا أمامه 9 وقال لهم: بماذا تشيرون أنتم فنرد جوابًا على هذا الشعب الذين كلموني قائلين خفف من النير الذي جعله علينا أبوك10 ؟ فكلمه الأحداث الذين نشأوا معه قائلين: هكذا تقول لهذا الشعب الذين كلموك قائلين إن أباك ثقل نيرنا، وأما أنت فخفف من نيرنا، هكذا تقول لهم إن خنصري أغلظ من متنَي أبي 11 والآن أبي حمَّلكم نيرًا ثقيلًا وأنا أزيد على نيركم. أبي أدبكم بالسياط، وأنا أؤدبكم بالعقارب» (الملوك 12: 11)».

ولمَّا رفض رحبعام الاستجابة لطلب القبائل بتخفيض الضرائب، رفضت عشر قبائل الاعتراف به ملكًا عليها وانفصلت عنه، وانتخبت يربعام بن نباط من قبيلة أفرايم، والي سليمان، ملكًا، وأسست مملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم أولًا، ثم ترصة (تل الفارعة الشمالي؟)، ومن بعدها السامرة. كما شكلت قبيلتا يهوذا وبنيامين مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. واشتد التنافس والعداء بين الدولتين حتى أن يربعام ملك إسرائيل بنى لشعبه معبدًا للعجل المقدس كي يمنعهم من زيارة أورشليم (السواح 2001: 176). ومن الأحداث المهمة التي حدثت في السنوات الأولى لحكم رحبعام على يهوذا هو هجوم الفراعنة بقيادة شيشنق في حوالي عام 920 قبل الميلاد عليها، علمًا أن اسم أورشليم لم يُذكر في قائمة المدن التي هاجمها هذا الفرعون (حتي 1982: 215).

ما ورد أعلاه من معلومات يعتمد اعتمادًا كليًا على النص التوراتي، لكنْ، ماذا تقول نتائج المسوحات والحفريات الأثرية التي جرت في القدس الحالية عن أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد؟

ابتداء، يمكن القول بأن هناك اختلاف كبير بين النصوص التوراتية ونتائج الحفريات والمسوحات الأثرية. وكما نوهنا في أكثر من مقام في هذا الكتاب، فقد أجرت الإنجليزية كاثلين كنيون حفريات منتظمة في منطقة المنحدر المطل على نبع ستنا مريم (Gihon) في الفترة الواقعة بين عامي 1961 – 1967م بحثًا عن القدس اليبوسية وأورشليم عاصمة المملكة الموحدة ومن بعدها يهوذا (Kenyon 1974: 76 - 97). وتذكر كنيون أنها عثرت على بقايا جدار يعود إلى العصر البرونزي المتوسط الثاني (أي حوالي 1800 قبل الميلاد)، علمًا أن أورشاليم ذُكرت في نصوص اللعن المصرية من هذه الفترة (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب). وتضيف كنيون أنها أسمت البقايا الأثرية المكتشفة في الموقع، وخاصة في أعلى المنطقة الشرقية المشرفة على عين ستي مريم (سلوان/ جيحون)، وتعود للعصرين البرونزي المتوسط والمتأخر اسم «الفترة اليبوسية». وعثرت كذلك على بناء حجري ضخم في المربعات A I–III and XXIII، وأرختها للعصر البرونزي المتأخر (Kenyon 1974: 94 – 95; Pls. 27أ 28). لكنَّ كثيرًا من الآثاريين يرون أن الآثار المكتشفة في القدس والمؤرخة للعصر البرونزي المتأخر فقيرة جدًا، ولا تؤهلها لأن تُعد مدينة أو بلدة (Steiner 2001: 40). لكننا نرى أن أورشليم كانت لها أهمية كغيرها من المدن الكنعانية خلال العصر البرونزي المتأخر بدلالة أن حاكمها عبد- حبّا / خيبا أرسل في الفترة المؤرخة لبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد رسالة من ضمن رسائل تل العمارنة إلى الفرعون المصري أخناتون يطلب العون والمساعدة، التي لم تصل (Kenyon 1974: 97).

وبقي تساؤل عمن بنى المصطبة المطلة على نبع ستنا مريم (سلوان)، وتعتقد مارغريت شتاينر (Steiner 2001: 41) أن الفراعنة بنوا قلعة فوق المصطبة لحماية الطريق التجاري الذاهب إلى بيسان ومؤاب وأسكنوا فيها اليبوسيين، وبعد انسحابهم من بلاد الشام تركوهم فيها.

كما كشفت حفريات كنيون في القدس عن بقايا معمارية تعود للعصر الحديدي الثاني (القرنان 10 - 9 قبل الميلاد) تكونت من مبنى حجري بني على شكل مدرج، وجدار مزدوج (Casemate Wall) وبقايا معمارية أخرى مبعثرة (Steiner 2001: 42). وبني المدرج الحجري تحت بيوت أُرخت للقرنين السابع والسادس قبل الميلاد. وتُعد فترة القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد الفترة الذهبية لهذه المدينة من وجهة نظر التوراة، لكنَّ ما اكتُشف من عمائر ولقى أثرية لا يتطابق مع وصف التوراة للمباني التي تركها داود وسليمان. لكنْ، يمكننا وصفها أنها كانت مرحلة هدوء واستقرار في المنطقة، فلم يكن هناك هجمات فرعونية (عدا حملة شيشنق) ولا آشورية خلال هذه الفترة. وأفادت الحفريات الإسرائيلية في منطقة الظهورة المطلة على وادي سلوان، والملاصقة لجنوبي الحرم الشريف، بأن أقدم المباني التي اكتُشفت في هذه المنطقة يعود للقرن التاسع قبل الميلاد (Mazar E. and Mazar B. 1989).

وشهدت أورشليم خلال الفترة بين القرنين التاسع والسادس قبل الميلاد تطورات كبيرة، سواء من حيث كبر مساحتها أو اقتصادها. فمثلًا، وعند نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، بُنيت مبان شرقي وغربي الحرم الشريف (Avigad 1983:55). وبلغت المدينة أوج ازدهارها في القرن السابع قبل الميلاد، بدلالة العثور على مبان عامة وخاصة فيها. إذ عثر المنقب الإسرائيلي شيلو على مبنى كبير تبلغ أبعاده 13x12 مترًا مبني من الحجارة المشذبة وعده مبنى عامًا (Shiloh 1984: 14).

وقـدَّرت الباحثـة الهولنديـة مارغريـت شـتاينر (M. Steiner) مسـاحة أورشـليم خـلال القـرن العاشـر وبدايـة التاسـع بحوالـي 120 دونمًـا، وأنهـا ارتفعـت في الفـترات اللاحقـة لتبلغ 500 دونـم، وأن عـدد سكانها تـراوح بيـن 6000 و10000 آلاف نسـمة بعـد القرن التاسع قبل الميلاد. كما ونقلت عن نتائج حفريات كنيون وشيلو معلومات عن المهـن التي مارسـها سـكان أورشـليم في تلك الفـترة، مثـل الحـدادة، والنسيج، والتجـارة، خاصـة تجـارة الحبـوب والزيتـون. كمـا وتؤكـد أن أورشـليم كانـت البلـدة الرئيسـية في كل منطقـة يهـوذا خاصـة في القـرن السـابع قبـل الميـلاد (Steiner 2001: 109 – 111).

أمـا حـكام يهـوذا، مـن بعـد حكـم رحبعـام بـن سـليمان وحتـى السـبي البابلـي فبلـغ عددهـم 19 حاكمًـا، ويـرى فـراس السـواح (2001: 176 – 177) أن الذيـن سـبقوا الملـك آحـاز (735 قبـل الميـلاد) كانـوا مـن الأمـراء المحليين، وأن أول ذكـر في المصـادر الآشـورية المكتوبـة لملـك مـن ملـوك يهـوذا كان لآحـاز. ووقـف هـذا الملـك مـع آشـور في حملتهـا ضـد مملكـة دمشـق الآراميـة، وتؤكـد هـذا المعلومـاتُ الـواردة في سـفر الملـوك الثـاني 16: 7 – 9، وهـي النحـو الآتي:

«7 وأرسـل آحـاز رسـلًا إلـى تغلـث فلاسـر، ملـك آشـور قائـلًا: أنـا عبـدك وابنـك. اصعـد وخلصنـي مـن يـد ملـك آرام ومـن يـد ملـك إسـرائيل القائميـن علـي 8 فأخـذ آحـاز الفضـة والذهـب الموجـودة في بيـت الـرب وفي خزائـن بيـت الملـك وأرسـلها إلـى ملـك آشـور هديـة 9 فسـمع لـه ملـك آشـور، وصعـد ملـك آشـور إلـى دمشـق، وأخذهـا وسـباها إلـى قيـر، وقتـل رصيـن».

اسـتلم حكـم يهـوذا بعـد وفـاة الملـك آحـاز ابنـه حزقيـا (حوالـي 729 - 686 وفي مـكان آخـر 721 – 693 قبـل الميـلاد)، وأسـهب سـفرا الملـوك الثـاني وأخبـار الأيـام الثـاني في الحديـث عـن هـذا الملـك، خاصـة أنـه وقـف موقـف التحـدي مـن آشـور بتحريـض مـن فرعـون مصـر، فشـن ملـكا آشـور سـرجون الثـاني وخلفـه سـنحاريب بحمـلات عسـكرية علـى

المنطقة، بلغت ذروتها في حصار أورشليم عام 701 قبل الميلاد. من المعلوم أن ملك آشور سرجون الثاني هو من أنهى مملكة إسرائيل (السامرة) في عام 722 قبل الميلاد، لكنه لم يتعرض ليهوذا حينها بأي أذى، بل أبقى على استقلالها. بقي حزقيا مناكفًا لآشور بدعم من مصر وبابل، فتعرضت أورشليم ومحيطها إلى غزوات آشورية في زمن الملك سنحاريب، لكنها لم تسقط، وإنما قبل حزقيا بدفع الجزية. أدت الحملات العسكرية الآشورية وتولي حكام ضعاف بعد حزقيا الحكم في يهوذا إلى تراجع وضعف مملكة يهوذا. فتراجعت أورشليم من عاصمة إقليمية في عهدي الملكين آحاز وابنه حزقيا إلى بلدة متواضعة بعدهما. وتؤكد الدلائل الأثرية المكتشفة في أورشليم أهميتها في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وضخامة المنجزات التي قام بها هذين الملكين (Kenyon 1974: 129 – 143)، فمن الأعمال العمرانية المهمة التي قام بها حزقيا هو حفر قناة للمياه بطول 560 مترًا تربط بين عين سلوان وبركة تجميع مياه خارج أسوار المدينة، اسمها الحالي «بركة سلوان» (Kenyon 1974: 154, Fig. 27) ، علمًا أن يهوذا بقيت في بداية القرن السابع قبل الميلاد خاضعة لآشور وتدفع لها الجزية.

بعد سقوط نينوى عاصمة آشور سنة 612 قبل الميلاد على يد التحالف البابلي الميدي، حاولت مصر أن تبسط نفوذها مرة أخرى على جنوبي بلاد الشام. ولتحقيق هذا الهدف تقدم الفرعون المصري نيكاو/ نيخو في حوالي 608 قبل الميلاد على رأس حملة عسكرية مصرية باتجاه فلسطين، فلاقاه يوشيا ملك يهوذا، وكان تابعًا لمملكة بابل الجديدة، في تل المتسلم (مجدو) في سهل مرج إبن عامر، وقُتل في هذه المعركة.

تبع يوشيا في الحكم ابنه يهوياقيم/ الياقيم (608 - 597 قبل الميلاد)، وحارت يهوذا في الولاء بين القوتين البابلية الجديدة والفرعونية. لكنَّ هذا الأمر حُسم بعد أن التقى نيكاو مع الجيش البابلي الجديد بقيادة نبوخذنصر في معركة كركميش عام 605 قبل الميلاد، وهُزم هزيمة نكراء، وبهذا سادت بابل على شرقي المتوسط، وانتهى

الصراع مع مصر عليها. ودخل نبوخذنصر في عام 597 قبل الميلاد أورشليم واستسلم له يهوياقيم، لكنَّ هذا الأخير مات دون معرفة الأسباب، واستلم ابنه يهوياقين الحكم من بعده، ولمدة قصيرة جدًا. وعاد نبوخذنصر ليحاصر أورشليم فاستسلمت له مرة أخرى، وسُبي الملك وعدد من أهله وبعض من جنوده وصنَّاعه إلى بابل، كما عُين صدقيا (597 – 586 قبل الميلاد) ملكًا على يهوذا. لكنَّ هذا الأخير تمرد على البابليين، فجرد نبوخذنصر حملة عسكرية كبيرة حاصرت أورشليم ودخلتها، وسُبي جزء كبير من أهلها إلى بابل. وبهذا انتهت مملكة يهوذا إلى الأبد.

ختامًا، ومن خلال ما قدمنا أعلاه، يحاول بعض الباحثين التوراتيين إيجاد شجرة عائلة، أو نسب للملك داود، ترتبط بسلالة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم. ولما لم تتوافر لهم معلومات عن هذا الملك خارج نصوص كتاب العهد القديم، نجد أنهم يحاولون التشبث بأية إشارة من الممكن أن تشير إلى بيت داود. وهذا ما ثبت من محاولة العالم الفرنسي أندريه لومير الذي استكمل حروفًا ناقصة في نقش ميشع وأضاف أحرفًا ليستكمل كلمة هي «داود». وبناء عليه، نرى أنه لا بد للباحثين العرب من أن يعيدوا قراءة هذه النقوش، وأن يفسروها من وجهة نظر علمية محايدة.

من الملاحظ أن ثلاثًا من هذه الوثائق التاريخية كُتبت في فترة متأخرة عن حكم داود وابنه سليمان، أما فيما بمسلة الفرعون المصري مرنبتاح والمؤرخة لنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فيذكر بعض العلماء أن كلمة «إسرائيل» الواردة في السطرين الأخيرين قد أُضيفت في فترة لاحقة للنص الأصلي. وبناء على ما تقدم، لا زلنا نرى أن الحديث عن داود وبيته هو حلم لم يتحقق للباحثين التوراتيين الصهاينة، كما ونود الإضافة بأن أهمية أورشليم الدينية فاقت أهميتها السياسية على مدى العصور، وأن المصادر التاريخية المكتوبة سواء الرافدية أو الفرعونية لم تذكر بأن أورشليم كانت عاصمة سياسية على الإطلاق.

الفصل العاشر

10

أورشليم بعد السبي البابلي والسيطرة الفارسية

الفصل العاشر

أورشليم بعد السبي البابلي والسيطرة الفارسية

يتبادر لمتابع تاريخ أورشليم بعد السبي البابلي في عام 586 قبل الميلاد أن المدينة قد أصبحت خرابًا يبابًا، وخالية من سكان. غير أن هذا غير صحيح، إذ يذكر سفر نحميا 8: 1 - 3 ما يأتي:

«1كلام نحميا بن حكليا. حدث في شهر كسلو في السنة العشرين بينما كنت في شوشن القصر 2 أنه جاء حناني، واحد من أخوتي، هو ورجال من يهوذا، فسألتهم عن اليهود الذين نجوا الذين بقوا من السبي وعن أورشليم 3 فقالوا لي إن الباقين الذين بقوا من السبي هناك في البلاد هم في شر عظيم وعار. وسور أورشليم منهدم وأبوابها محروقة بالنار.»

هذا الكلام يفيد بأن أورشليم لم تفرغ تمامًا من سكانها اليهود، وأن الذين سُبوا من أهلها هم الملك وأهله وحاشيته والكهنة والصنَّاع، ويذكرهم النص التوراتي في سفر الملوك الثاني 24: 14–16 على النحو الآتي: « 14وسبى كل أورشليم، وكل الرؤساء، وجميع جبابرة الباس، عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض 15 وسُبي يهوياقين إلى بابل، وأم الملك، ونساء الملك، وخصيانه، وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل 16 وجميع اصحاب الباس، سبعة آلاف، والصنَّاع، والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل». ونجد في موضع آخر من سفر الملوك الثاني 25: 12، وجاء في الحديث عن حملة سابقة للكلدانيين في عام 587 قبل الميلاد أن قائد الشرطة أبقى في أورشليم المساكين، وأصحاب الكروم والفلاحين: «12ولكنَّ رئيس الشرط أبقى من

مساكين الأرض كرامين وفلاحين.» إضافة لهذا، فإن النصوص التوراتية، سواء في سفر الملوك الثاني أو أخبار الأيام الثاني أو في سفر إرميا (52: 28–30) لم تتفق على العدد الإجمالي لليهود المسبيين من أورشليم (Kenyon 1974: 172). وعودةً إلى المسبيين، فقد ذكرت النصوص التوراتية أن المساكين، وأصحاب الكروم، والفلاحين بقوا في أماكنهم، وهذا يجعلنا نتساءل:

1. هل يعني هذا أن هؤلاء، أي سكان الأرياف، هم من خارج مدينة أورشليم؟

2. هل كان هؤلاء من أتباع الديانة اليهودية، أم من أتباع غيرها من الديانات؟

3. هل كان سكان يهوذا، حتى في عز قوتها، من أجناس متعددة؟

من هنا نؤكد ما ذكره السواح (2001: 222) من أن الغالبية العظمى من أهل يهوذا قد تُركت لتتابع أعمالها وحياتها المعتادة. ويؤكد هذا ما ورد في سفر إرميا 41 من أن الكلدانيين قد نصبوا ملكًا على يهوذا اسمه جداليا، والذي اتخذ من بلدة قرب أورشليم عاصمة له اسمها «المصفاة»، وهي تل النصبة الحالي. لكنَّ هذا قُتل على يد قائد أموري اسمه يشمعيل ، وهرب أتباع جداليا إلى مصر خوفًا من الكلدان.

وإذا ما استقرأنا نتائج الحفريات والمسوحات الأثرية التي جرت في أورشليم، وفي معظم مناطق جنوبي بلاد الشام، فإننا نجد أنها قليلة جدًا، ولا تسعفنا في إعطاء صورة واضحة عن أحوالها في الفترة السابقة مباشرة للاحتلال الفارسي لها. فمثلًا، هناك شواهد من حفريات أثرية في تل بيت مرسيم، وبيت شيمش (تل الرميلة)، وتل الدوير في يهوذا، تدل على أن الحياة توقفت فيها تمامًا بعد السبي البابلي (Kenyon 1974: 172). فيمكننا الاستنتاج أن القرى وأهلها كانوا فقيري الحال، بدلالة عدم العثور على دلائل مادية أثرية كثيرة وكبيرة. ويبدو أن حالة من الفوضى قد سادت

البلاد، كما تعطلت التجارة، خاصة طرق التجارة الدولية، نتيجة للصراع المصري البابلي على بلاد الشام، ولقصر مدة حكم جداليا والي يهوذا. كما أثرت الحملات البابلية المتكررة على يهوذا بشكل عام، وأورشليم بشكل خاص، إلى تراجع الإنتاج الزراعي المحلي، كذلك لم يعد بإمكان المزارعين تسويق منتجاتهم كما كان الحال في السابق.

تذكر كاثلين كنيون (Kenyon 1974: 169 – 171)، اعتمادًا على ما ورد في سفر الملوك الثاني (25: 9)، أن نبوخذنصر أشعل النار في أورشليم بعد احتلالها، لكنها، وللأسف، لم تسهب في الشرح عن الآثار المكتشفة في الموقع والمؤرخة لهذه الفترة. فنستطيع القول إن المعطيات الأثرية لم تمكنا من تقديم صورة واضحة عن أورشليم بشكل خاص، ويهوذا بشكل عام خلال الفترة بين حوالي 586 - 539 قبل الميلاد. إضافة لهذا، فإن الأسفار التوراتية لم تخبرنا ماذا حصل بعد اغتيال جداليا وحتى الاحتلال الفارسي في عام 539 قبل الميلاد، أي ما يقارب فترة الخمسين عامًا. كما يجب أن نذكر أن الكلدان لم يتعاملوا مع يهوذا كتعاملهم مع السامرة، بعد القضاء عليها على يد سرجون الثاني في عام 722 قبل الميلاد، وذلك بإحلال أناس غرباء ومن جنسيات وأماكن متعددة في الإمبراطورية الكلدانية مكان سكانها اليهود.

سقطت بابل في حوالي 539 قبل الميلاد على الجارة فارس وبقيادة الملك قورش الذي وحَّد الميديين والفرس في مملكة واحدة، فاعترفت الممالك التابعة للإمبراطورية البابلية الحديثة في سوريا الطبيعية بالحكم الفارسي الجديد. وبانتهاء الحكم البابلي الجديد انتهى حكم القبائل والممالك والإمبراطوريات السامية في المنطقة، وحل محلها العنصر الهندو - أوروبي الذي استمر في السيطرة على المنطقة حتى مجيء الإسلام، أي ما يقارب الألف عام.

دخل قورش بابل ووجد فيها جالية يهودية سباها البابليون في أعوام 597 و586 قبل الميلاد من يهوذا. ويفترض بعض الباحثين (حتي 1982: 242) أن هذه الجالية اليهودية قد ساعدت الفرس على احتلال المدينة، أي بابل. فكان أول ما فعله هذا القائد الفارسي هو إصدار مرسوم يسمح للذين يرغبون منهم بالعودة إلى بلادهم بالرجوع إلى أرض آبائهم وبناء معابدهم. وتؤكد الأسفار التوراتية (سفر إشعياء 44: 28، 45: 1) هذا الكلام، وعلى النحو أدناه:

«3 في السنة الأولى لكورش الملك، أمر كورش الملك من جهة بيت الله في أورشليم. ليبن البيت المكان الذي يذبحون فيه ذبائح ولتوضع أسسه، ارتفاعه ستون ذراعًا وعرضه ستون ذراعًا 4 بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصفٍ من خشب جديد. ولتعط النفقة من بيت الملك.» (سفر عزرا 6: 3-5).

أما سفر إشعياء (44: 28؛ 45: 1) فيصف قورش بأنه أرسله الله ليخلص اليهود من السبي، وعلى النحو الآتي: «28 القائل عن كورش راعي فكل مسرتي يتمم، ويقول عن أورشليم ستبنى وللهيكل ستؤسس»؛ «1 هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أممًا، وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين، والأبواب لا تغلق 2 أنا أسير قدامك والهضاب أمهد. أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف 3 وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ، لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله اسرائيل».

وكما لم يسب البابليون الجدد جميع اليهود من يهوذا إلى بابل، فإن أغنياء اليهود وآخرين منهم لم يعودوا إلى أورشليم، بدلالة ورود أسماء عبرية في بعض الأسماء المركبة مع أسماء آلهة بابل (حتي 1982: 243). ويؤكد هذا ما ورد في نصيحة النبي إرميا (سفر إرميا 29: 1-7)، وهي على النحو الآتي: «1 هذا كلام الرسالة

التي أرسلها إرميا النبي من أورشليم إلى بقية شيوخ السبي، وإلى الكهنة والأنبياء، وإلى كل الشعب الذين سباهم نبوخذناصر من أورشليم إلى بابل 2 بعد خروج يكنيا الملك والملكة والخصيان ورؤساء يهوذا وأورشليم والنجارين والحدادين من أورشليم 3 بيد العاسة بن شافان وجمريا بن حلقيا اللذين أرسلهما صدقيا ملك يهوذا إلى نبوخذناصر، ملك بابل، إلى بابل قائلًا 4 هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل 5 ابنوا بيوتًا، واسكنوا، واغرسوا جنات، وكلوا ثمرها 6 خذوا نساء، ولدوا بنين وبنات، وخذوا لبنيكم نساء وأعطوا بناتكم لرجال، فيلدن بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلوا 7 واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها، وصلُّوا لأجلها إلى الرب، لأنه بسلامها يكون لكم سلام.»

ونستنتج من النص ما يأتي:

1. أن البابليين لم يسبوا جميع اليهود من يهوذا.
2. أن اليهود الذين سُبوا إلى بابل استقر بعضهم استقرارًا طبيعيًا حتى أنه لم يفكر بالعودة إلى يهوذا، فأصبح مواطنًا بابليًا، لكنهم لم يندمجوا كليًا بالمجتمع البابلي، وعُرفوا باسم يهود الشتات (Diaspora).
3. ساعد اليهود المسبيون إلى بابل الفرس على دخول بابل وهزيمة البابليين.

ساهم الفرس بشكل كبير بعودة المسبيين إلى أورشليم وعلى دفعات، وكانت الدفعة الأولى في زمن الملك قورش (حوالي 539 قبل الميلاد) وبقيادة شخص من سلالة يهوياقين اسمه «زروبابل» (سفر نحميا 12: 1-9)، أو شيشبصر (سفر عزرا 1: 8) (حتي 1982: 244)، والدفعتان التاليتان في زمن الملك أرتحشستا الأول (465 - 424 قبل الميلاد) كانتا بقيادة كل من نحميا وعزرا. إذن، العودة لم تكن جماعية،

وربما لأن جماعة من اليهود رغبوا في البقاء ببابل، بعد أن انقرض الجيل الذي سباه نبوخذنصر بمرور السنوات، وأن الأجيال التي تلته لم ترتبط بأرض يهوذا ولا بالقدس بأي شكل من الأشكال، فلم يشعروا بالحنين إلى وطنهم الأصلي، ولا بالرغبة في العودة إليه. ولماذا يعود أصحاب الثروات من اليهود إلى وطن فقير؟

ولمكافأة يهود بابل على صنيعهم، ساعدهم الفرس على البدء في مشروع إعادة أورشليم إلى الحياة، ولم يكن هذا ليتيسر لولا سماحهم لمن بقي في بابل بالتبرع لإعادة بناء الدولة، وبإعادة الفرس لما نهبه نبوخذنصر من كنوز حسب النص التوراتي الوارد أدناه:

«والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذناصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته 8 أخرجها كورش ملك فارس عن يد مثرداث الخازن، وعدها لشيشبصر رئيس يهوذا 9 وهذا عددها. ثلاثون طستًا من ذهب، وألف طست من فضة، وتسعة وعشرون سكينًا 10 وثلاثون قدحًا من ذهب، وأقداح فضة من الرتبة الثانية، أربع مئة وعشرة وألف من آنية أخرى 11 جميع الآنية من الذهب والفضة، خمسة آلاف وأربع مئة. الكل أصعده شيشبصر عند ’صعاد السبي من بابل إلى أورشليم» (سفر عزرا 1: 7-11).

فالفرس هم من مكَّن اليهود من العودة إلى أورشليم، ونصبوا عليهم (زربابل/ شيشبصر) حاكمًا دعموه سياسيًا واقتصاديًا، وربما عسكريًا حتى تستقيم أمور دولته. لكنْ، لا بد أن الصراع قد نشب بين العائدين من النفي والناس الذين بقوا في البلاد. ومما يذكر بهذا الصدد أن العائدين وعند عودتهم لأورشليم وجدوا أن من تبقى منهم قد تزاوج وتخالط مع الكنعانيين أهل البلاد، فطردوهم إلى جبلَي عيبال وجرزيم بالقرب من نابلس (الشكل 44)، وهم يُعرفون الآن باسم «طائفة السُّمَرة».

كذلك يظهر أن سكان منطقة السامرة الكنعانيين وغيرهم لم يرغبوا أن يؤسس السمرة، وهم المطرودون من أورشليم، دولة قوية إلى جوارهم، خاصة أنهم لقوا ما لقوا على يد مملكة يهوذا من تآمر ضدهم. وعلى الرغم من هذا الزخم في المعلومات التوراتية عن أورشليم ويهوذا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، إلا أن الوثائق الفارسية، وحتى الفرعونية، لم تتحدث إلا ما ندر عن فلسطين خلال هذين القرنين.





(أ) (ب)

شكل 44: (أ) منظر عام لمدينة نابلس وفي الخلفية جبل جرزيم
(ب) منظر عام لحي السمرة في نابلس (عن Landauer 1925: 80أ81)

أية حال، يبدو أن اليهود قد تمتعوا خلال حكم شيشبصر ونحميا بالحكم الذاتي، علمًا أن اللغة التي كانت شائعة/ المحكية في دولتهم لم تكن العبرية؛ إذ حلت محلها الآرامية، وتؤكد هذا التوراة في سفر عزرا 4: 7، على النحو الآتي: «7 وفي ايام أرتحشستا كتب بشلام ومثرداث وطبئيل وسائر رفقائهم إلى أرتحشستا ملك فارس. وكتابة الرسالة مكتوبة بالآرامية ومترجمة بالآرامية». ويظهر أن نحميا بقي واليًا على أورشليم حتى وفاة أرتحشستا في حوالي عام 424 قبل الميلاد. ولم تزودنا الأسفار التوراتية بأية معلومات عن أورشليم أو يهوذا حتى حوالي 200 قبل الميلاد، أي حتى بعد احتلال اليونان للمنطقة في العصر الهلنستي (حوالي 332 - 63 قبل الميلاد) (السواح 2001: 232).

والآن نقدم المعلومات المتوافرة عن آثار فترة ما بعد السبي البابلي في عام 586 قبل الميلاد وحتى قدوم اليونان في عام 332 قبل الميلاد. يقدم الإصحاح الثالث من سفر نحميا معلومات عن ترميم سور أورشليم والتعاون بين الناس في إعادة بنائه، لكنْ، ماذا كانت نتائج الحفريات الأثرية؟ فعلى سبيل المثال، تذكر كاثلين كنيون أن توسعة أورشليم امتدت نحو المنحدر الشرقي، لأن سور القرن الخامس قبل الميلاد تراجع إلى قمة التل من الناحية الشرقية، وتضيف أنها لم تجد أية دلائل أثرية على استقرار على المنحدر المطل على وادي سلوان من جهته الغربية. لكنها ذكرت أنها عثرت بالقرب من أعلى المنحدر على جدار يعود للفترة بين القرن الخامس وبداية الثالث قبل الميلاد، وأن الطمم الذي كان فوق الجدار يعود لفترة حكم نحميا (حوالي 440 قبل الميلاد) (Kenyon 1974: 183 – 184). فنرى أن البقايا المعمارية الأثرية من هذه الفترة كانت إما ترميمًا للمباني السابقة، أو مبعثرة فوق مساحات متعددة. أما بناء الهيكل الثاني (هيكل زروبابل)، فلا توجد دلائل عليه على الرغم من تواضع بنائه، حسبما ورد في النص التوراتي (سفر عزرا 3: 12–13): «12 وكثيرون من الكهنة واللاويين ورؤوس الآباء الشيوخ الذين رأوا البيت الأول بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم. وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح 13 ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب، لأن الشعب كان يهتف هتافًا عظيمًا حتى أن الصوت سُمع من بعد».

ويرد في سفر عزرا (10: 1- 4) ما يدل على أن اليهود ومنذ ذلك الوقت ينادون بيهودية الدولة، وإلى التطهير العرقي:

«1 فلما صلى عزرا واعترف وهو باك وساقط أمام بيت الله، اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جدًا من الرجال والنساء والأولاد، لأن الشعب بكى بكاء عظيمًا 2 وأجاب شكنيا بن يحيئيل من بني عيلام، وقال لعزرا إننا قد خنَّا إلهنا واتخذنا نساء

غريبة من شعوب الأرض. ولكنْ، الآن يوجد رجاء لإسرائيل في هذا 3 فلنقطع الآن عهدًا مع إلهنا أن نُخرج كل النساء والذين ولدوا منهن حسب مشورة سيدي والذين يخشون وصية إلهنا، وليعمل حسب الشريعة 4 قم فإن عليك الأمر ونحن معك. تشجع وافعل 5 فقام عزرا واستحلف رؤساء الكهنة واللاويين وكل إسرائيل أن يعملوا حسب هذا الأمر، فحلفوا».

ما ورد أعلاه يدل دلالة واحدة على أن العقلية الاسرائيلية لم تتغير منذ العصور القديمة وحتى الوقت الحاضر. كنا نتوقع أن ينادي العائدون من السبي إلى السلام وبناء مجتمع مسالم. وتقدم لنا النصوص التوراتية الحرب المقدسة على أنها خطاب أدبي، وليست واقعة تاريخية (تمبسون 2003: 308).

نستطيع القول أن الفرس لم يلقوا كبير بال لفلسطين خلال سيطرتهم على بلاد الشرق الأدنى القديم، وأن هذه البلاد لم تحظ بأي اهتمام منهم، فتركوا الأمر على الغارب فيها لسكانها. كما أننا نفتقد للمعلومات المكتوبة عن فلسطين في هذه الفترة، سواء في السجلات الفارسية أو الفرعونية. وأما المعلومات الأثرية فهي أيضًا قليلة جدًا، فمثلًا عُثر في مواقع فلسطينية على قطع نقد معدنية تعود لأواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وعلى كسر فخارية تحمل طبعات أختام منقوش عليها بالخط الآرامي الأحرف (ي ه د).

بناء على المعطيات أعلاه، فإن مدينة أورشليم فيما بعد السبي قد أصبحت أصغر مساحة عمَّا كانت عليه من قبل، وأن السكنى فيها تركزت في أعلى قمة هضبة الظهورة وحسب. ويشير هذا أيضًا إلى قلة عدد سكانها، وقلة أهميتها خلال الفترة الفارسية. لكنَّ أهم ما استفاده اليهود خلال الحكم الفارسي، إضافة للسماح لهم بالعودة، هو بناء الهوية والإثنية اليهودية بناء على المعتقد الديني التوراتي. كما شهدت

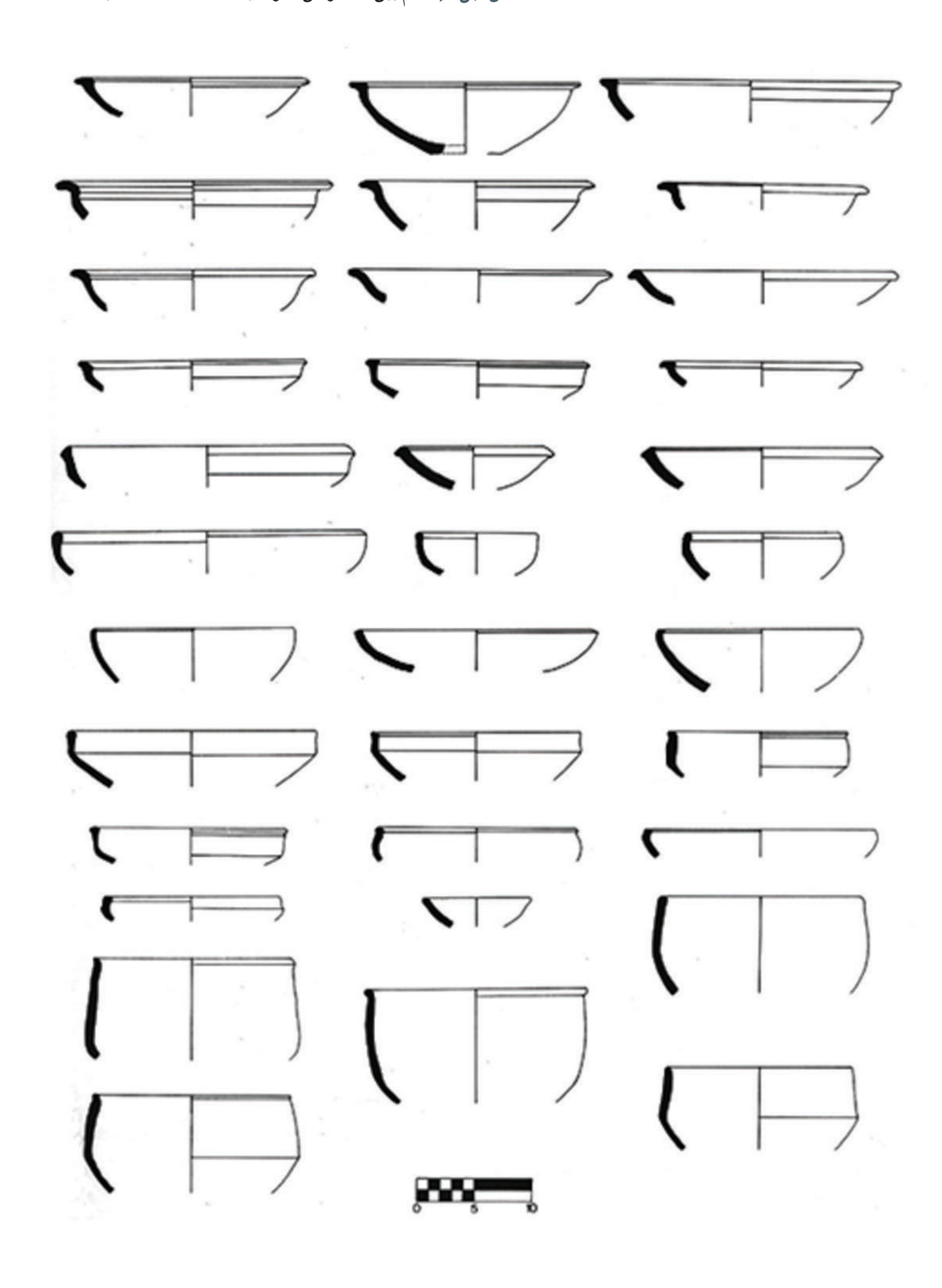
فترة ما بعد السبي البابلي كتابة بعض الإصحاحات التوراتية، مثل نحميا وعزرا. ختامًا، لا زال ينقصنا الكثير من المعلومات السياسية والاجتماعية عن يهوذا وكامل فلسطين خلال العصر الفارسي وبداية الهلنستي. فكلام التوراة منحصر فقط بفئة من فئات سكان فلسطين، وهم اليهود، لكن ماذا كان حال بقية السكان؟ سؤال لم يجب عليه أحد حتى الآن لنقص الدلائل الأثرية والوثائق المكتوبة، عدا الإصحاحات التوراتية. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن الحفريات الأثرية التي أجرتها البعثة الأثرية بإشراف كاثلين كنيون في الحديقة الأرمنية أثبتت سكنى الناس فيها، خاصة العثور على عدد وافر من الأواني الفخارية ذات الاستخدام اليومي المؤرخة للفترة الفارسية (الشكلان 45 – 46).

وفي نهاية الكلام، لا نستطيع إلا أن نقتبس ما قاله الإنجليزي فيليب ديفيس في بحثه الذي ألقاه في الندوة الدولية التي عقدتها المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق بين 11 و13 كانون الأول من عام 2009م تحت عنوان «القدس في التاريخ»:

«'Exile' thus became a fundamental myth of Jewish identity, a defining 'memory'. But because of this myth, people of Judean origin, or who were claimed as fellow-Jews by Judeans, were regarded as being in 'exile' as if they properly belonged in Judah, and even though they obviously had no wish or intention to return there» (Davies 2011: 17).

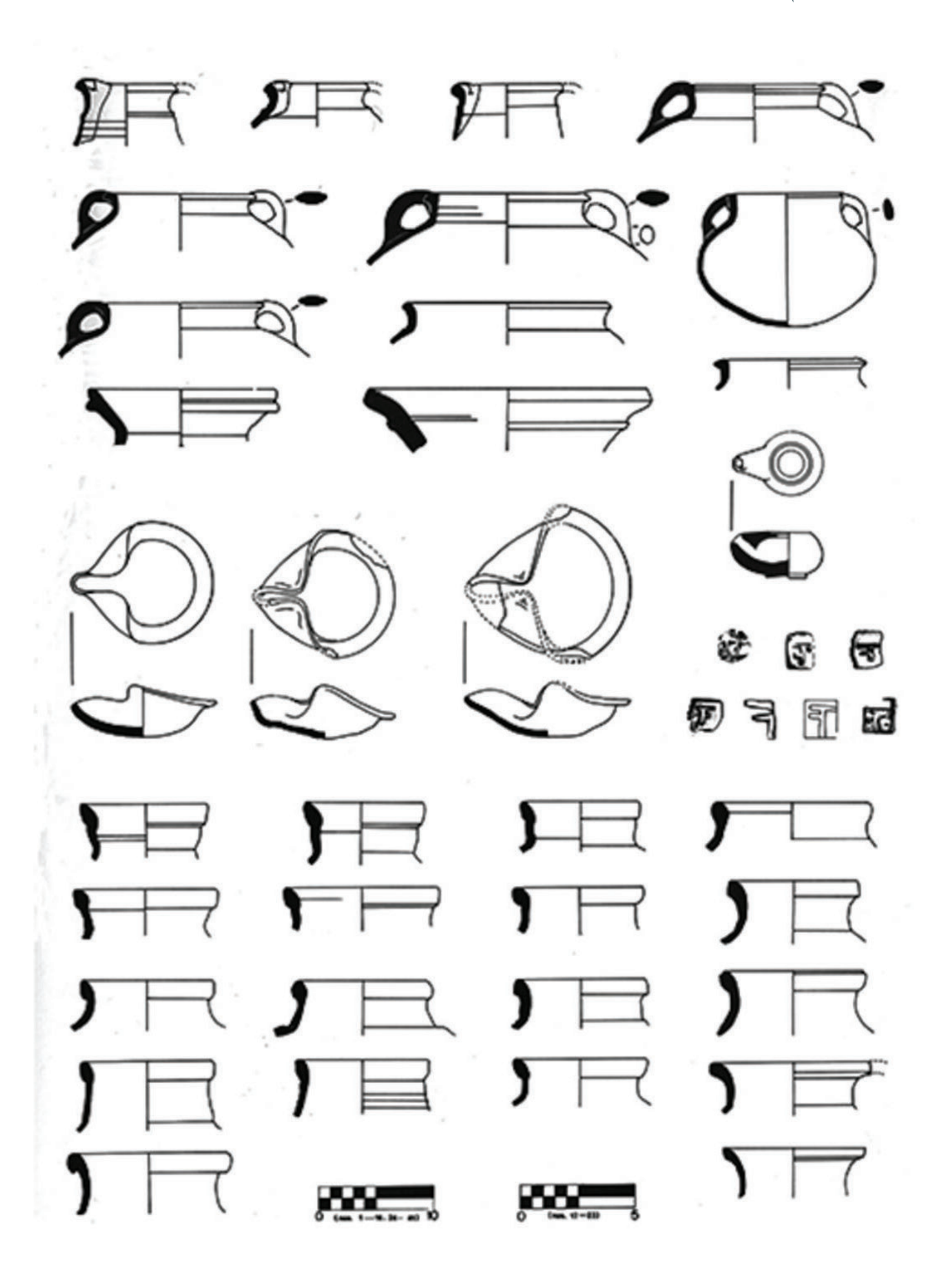
وترجمة النص للغة العربية:

(أصبح السبي «المقصود البابلي» اسطورة رئيسية للهوية اليهودية، ومطبوع في الذاكرة. ولكن وبسبب هذه الاسطورة، فإن الناس من أصل يهوذا، أو حتى من يعتبرون أنفسهم أصحاب – اليهود في يهوذا، تمت معاملتهم منفيين «أي مثل اليهود» وأنهم ينتسبون لمملكة يهوذا، وحتى أنهم لم يرغبوا بالعودة أو الرجوع إلى هناك).



شكل 45: أواني فخارية من الفترة الفارسية من الحديقة الأرمنية

(عن: Tushingham 1985: Fig. 13)



شكل 46: أواني فخارية عُثر عليها في الحديقة الأرمنية تؤرخ للفترتين الفارسية والهيلنستية
(عن Tushingham 1985: Fig. 17)

١١

الفصل الحادي عشر

اليونان وأورشليم

الفصل الحادي عشر

اليونان وأورشليم

استطاع الفرس خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وبعد عدة معارك، السيطرة على مدن يونانية في آسيا الصغرى (عيَّاد 1980: 252 – 345)، فوضع القائد المكدوني فيليب، والد الإسكندر المكدوني، نصب عينيه تحرير هذه البلاد. لكن فيليب أُغتيل سنة 334 قبل الميلاد، أي قبل أن يحقق حلمه. وبعد أن تولى ابنه الإسكندر الحكم من بعده، وكان في العشرين من العمر، قرر أن ينفذ ما خطط له والده. وخاض لأجل تحقيق هذا الهدف عدة معارك مع الفرس، نذكر منها «معركة سيرانيكوس» التي وقعت عام 334 قبل الميلاد، لكنَّ أهمها هي «معركة إبسوس» الواقعة بالقرب من مدينة الإسكندرون الحالية، والتي حدثت في عام 333 قبل الميلاد، وانتصر فيها الإسكندر على الملك «داريوس/ دارا» الفارسي.

بعد هذا الانتصار الحاسم في معركة إيسوس لم يتابع الإسكندر في بداية الأمر فلول الجيش الفارسي ومن معه باتجاه الشرق، بل اندفع جنوبًا نحو مدينة صيدا الفينيقية مخضعًا جميع المدن الساحلية في طريقه إلى سيطرته. ودخل صيدا بعد حصار ومقاومة عنيفة من أهلها، وتوجه بعدها إلى مدينة غزة ودخلها أيضًا بعد حصار ومقاومة عنيفة. ونرى أن الإسكندر هدف من حملاته على هذه المدن إلى السيطرة على ساحل البحر المتوسط والاستيلاء على مخازن التوابل في غزة التي كانت تأتيها من الجزيرة العربية (حتي 1982: 253 – 255). ونتيجة لهذه الانتصارات، خرجت فارس كليًا من بلاد الشام، كما أصبح الطريق سالكًا أمامه لاحتلال مصر، وهو ما حصل عام 331 قبل الميلاد.

لم يأت اليونان إلى شرقي المتوسط لهزيمة الفرس وانتقامًا منهم لدخول ملكهم أحشويرش أثينا وتدمير المعابد اليونانية فيها، وحسب، وإنما كانت لهم أيضًا أطماع ومخططات أخرى، نجملها فيما يأتي:

1. نشر الثقافة الهيللينية (الإغريقية) وإحلالها محل الثقافة الشرقية. ولتنفيذ هذا الهدف بنى الإسكندر ومن خلَفه من الملوك والقادة اليونان مدنًا جديدة حسب مخططات المدن اليونانية، وأفضل مثال على هذا مدينة الاسكندرية في مصر. كما حول طابع بعض المدن الأخرى في المنطقة من طابع شرقي إلى طابع إغريقي، مثل مدينة سبسطية الحالية في فلسطين.

2. إحلال اللغة اليونانية محل اللغات المحلية، خاصة في الدواوين الرسمية.

3. السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية ومناطق زراعة أشجار البخور واللبان في الجزيرة العربية، وبناء عليه أرسل اليونان أربع حملات عسكرية جابت سواحل الجزيرة العربية ووصلت إلى جزيرة فيلكا في الكويت. وللأسف استطاع اليونان ومن بعدهم الروم تحويل طريق البخور البري والذي كان يسيطر عليه الأنباط العرب إلى طريق بحري وأنشأوا لهذا الغرض الموانئ على ساحل البحر الأحمر ومن أهمها «لوكاكومي».

بعد أن أتم اليونان السيطرة على بلاد الشام ومصر في عام 331 قبل الميلاد، قرر الإسكندر المكدوني التوجه إلى بابل، فدخلها ورحب به أهلها وكهنتها. ومن هناك توجه إلى مدينة سوسة، المقر الصيفي لملوك الفرس، ثم إلى العاصمة الفارسية بيرسيبوليس، ودخلهما واستولى على الكنوز الموجودة فيهما. وبعدها لاحق الإسكندر

فلول الجيش الفارسي، وعلى رأسه الملك داريوس، لكن الملك الفارسي أغتيل على يد جنوده. وبهذا يكون حكم فارس قد انتهى في شرقي البحر المتوسط، كما خضعت المنطقة جميعها لليونان. ويظهر أن الإسكندر تابع سيره إلى الهند، لكنَّ بعضًا من ضباطه وجنوده احتجوا على متابعته لحملته العسكرية في أواسط آسيا، فقفل راجعًا عام 326 قبل الميلاد إلى بابل. لكنَّ العمر لم يطل به، إذ توفي في بابل في عام 323 قبل الميلاد، قبل أن يشهد تحول جميع المناطق التي احتلها للإغريقية. وقد ورد اسم ذو القرنين في القرآن الكريم على النحو الآتي: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا 83 إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا 84 فَأَتْبَعَ سَبَبًا 85 حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ صدق الله العظيم (الكهف 82 – 85). ويرى كثير من الفقهاء أن ذا القرنين المذكور هنا ليس هو الإسكندر المكدوني. أما في التوراة، فيرد ذكره في سفر دانيال (8: 20 – 21) كما هو أدناه:

« 20أما الكبش الذي رأيته ذا القرنين فهو ملوك مادي وفارس 21 والتيس العافي ملك اليونان، والقرن العظيم الذي بين عينيه هو الملك الأول.»

وكما ذكرنا أعلاه، فقد كان من أهم أهداف الإسكندر المكدوني من غزواته في شرقي المتوسط هو سيطرة الثقافة الإغريقية على غيرها من الثقافات، لكنه أراد أن تكون هذه السيطرة بمزج وتداخل الثقافتين الإغريقية والشرقية مع بعضهما بعضًا، وتبني أساليب الحياة الإغريقية، واتباع نظام السياسة الإغريقية في إدارة الحكم. وأدرك أن هذا الأمر لا يتأتى بالقوة، وإنما بقبول الآخر، فتزوج من نساء فارسيات وشجع جنوده على فعل ذلك.

تنازع قادة الإسكندر المكدوني الحكم على إمبراطوريته الواسعة الأطراف بعد وفاته، فقُسِّمت الإمبراطورية الفارسية بين بطليموس الذي أخذ مصر وجنوبي بلاد الشام، وسلوقس الذي استقل بشمالي بلاد الشام ووادي الرافدين. وخضعت فلسطين لحكم البطالمة في مصر خلال الفترة بين حوالي 301 - 198 قبل الميلاد. شكلت يهوذا كاملة، بما فيها أورشليم، مقاطعة مستقله اسمها «يهود» تابعة لولاية «سورية». وكان يقوم على إدارتها وحكمها كاهن أعلى تتبعه مجموعة من الكهان والأعيان.

ومن المعلوم أن البطالمة انشغلوا خلال هذه المدة التي تزيد عن قرن بحروبهم مع السلوقيين في سوريا، ولا نعرف خلال هذه المدة أية معلومات ذات شأن عن أورشليم، سوى أنه بُني الكثير من العمائر فيها، وأن أهلها قدموا طحين القمح لضباط في الجيش البطلمي عام 259 قبل الميلاد (Graf 2007: 106). وأظهرت نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في القدس فقر المدينة بالمخلفات الأثرية المؤرخة للفترة بين 332 و198 قبل الميلاد. وأن وجود هذه الآثار انحصر في المنطقة الشمالية من بلدة سلوان والهضبة الجنوبية الشرقية من أورشليم، وتكونت في الغالب من أيدي جرار عليها طبعات أختام باللغة اليونانية (Graf 2007: 107).

ويعد سفرا المكابيين الأول والثاني المكونان جزءًا من النسخة الكاثوليكية من كتاب العهد القديم المصدر الأساس للمعلومات عن أورشليم خلال هذه الفترة، وإن غلب عليهما الطابع الديني أكثر من التاريخي. ويعد سفر المكابيين الأول، والذي كتب باللغة العبرية بعد إعطاء اليهود حكمـًا ذاتيـًا تحت الحكم اليوناني على يد الحشمونيين قبل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، ويصف مآثر الإخوة المكابيين الثلاثة: يهوذا ويوناثان وشمعون من المصادر التاريخية التي تحدثت عن هذه المرحلة. ويركز سفر المكابيين الثاني على يهوذا المكابي وحسب، والذي يعده اليهود ثانيًا بعد الملك

داود في تقديم خدمات جُلّى لليهود. والمكابيون هم في الأصل كهنة من الحشمونيين، وتعني كلمة «مكب» «مطرقة».

استطاع القائد السلوقي أنتيوخس الثالث (Antiochus III) بعد عدد من الحروب خلال السنوات 201 - 198 قبل الميلاد هزيمة الجيش البطلمي بقيادة بطليموس الخامس أبيفانيس (Ptolemy V Epiphanes)، وأن يضم فلسطين لأملاك المملكة السلوقية. وبدأت المدينة خلال هذه الفترة بالانتعاش، لكنَّ هذا لم يرق لليهود، خاصة للمتشددين الدينيين منهم. وحوَّل أنصار هذا الاتجاه، بما في ذلك الكاهن الأعلى في المدينة، في عام 175 قبل الميلاد أورشليم إلى مدينة (Polis) بالمفهوم اليوناني، وحولوا اسمها إلى أنطاكية (Antiochia) نسبة إلى الملك أنتيوخس الرابع، ويذكر سفر المكابيين الثاني 4: 9 أن الطبقة الأرستقراطية اليهودية في أورشليم لم يكن لديهم أية ممانعة في تسميتهم «أنطاكيين». ولتوكيد هذا التحول في المدينة من الطابع الشرقي إلى طابع مشابه للإغريقي بنوا فيها جمنازيوم على الطراز اليوناني، كما أنهم أشركوا اليهود من سكان المدينة في الألعاب الرياضية اليونانية (Graf 2007: 106 – 107). وشجع أنتيوخس الرابع على عدّ «يهوه» مساوياً لكبير آلهة أوليمبس «زيوس»، وبنى مذبحًا في المعبد لهذا الإله اليوناني.

أثار التحول والمشاركة في نشاطات الوثنيين الإغريق من قبل اليهود المنادين بتبني الثقافة الهلنستية حفيظة الطوائف اليهودية الأخرى، إذ ثار بعضهم على الأمر، وانسحب آخرون إلى خارج المدينة. فعلى سبيل المثال، من المعتقد أن طائفة الإسينيين (Essenes) انسحبت من أورشليم إلى شمال غربي البحر الميت، إلى موقع قمران حيث عُثر على مخطوطات البحر الميت في كهوف هذه المنطقة. كذلك أقام أنتيوخس الرابع معبدًا لكبير الآلهة اليونان في المدينة في عام 168 قبل الميلاد،

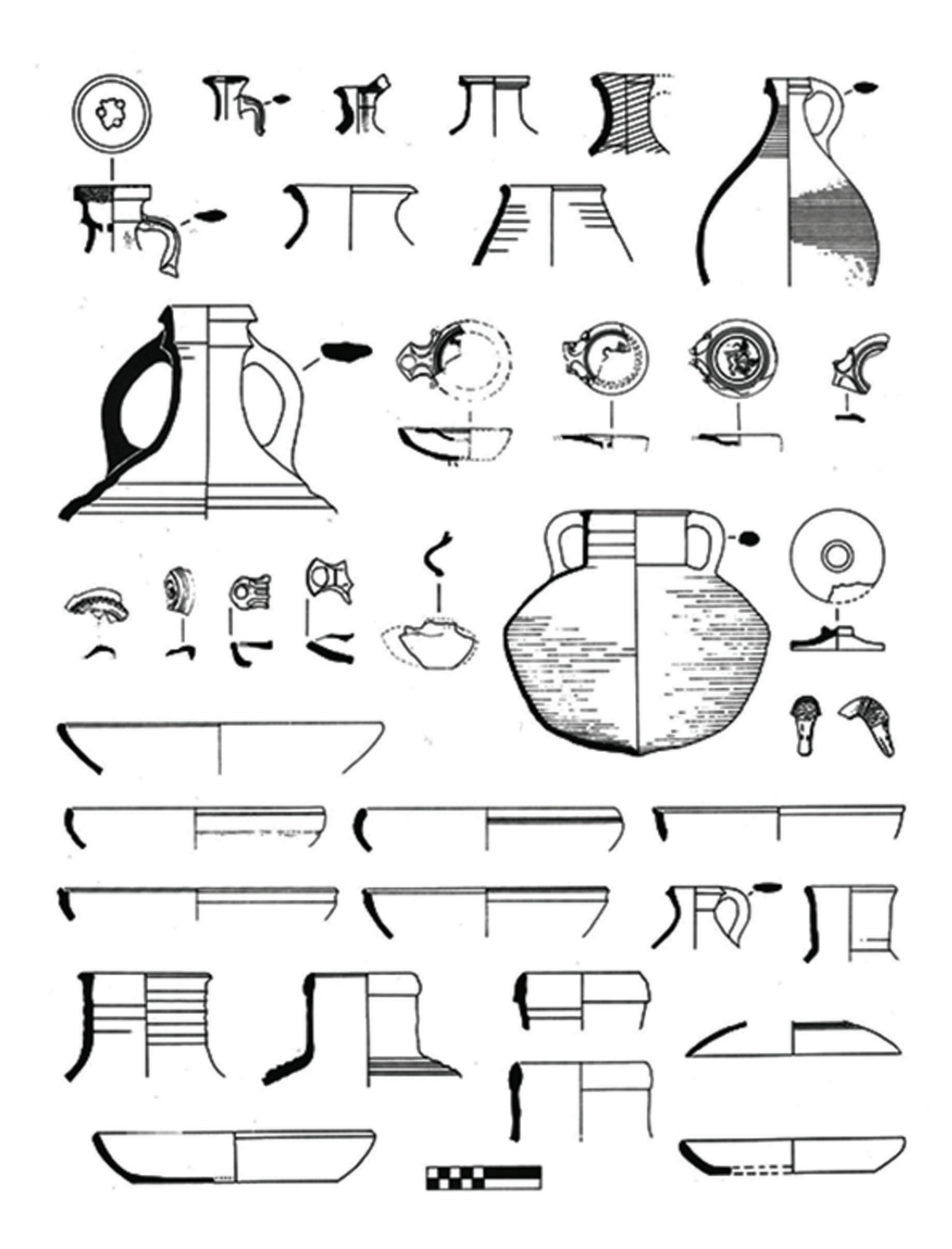
وشيد في نفس الوقت القلعة المعروفة باسم «أكرا» (الغول 2017: 41 - 49). أدت كل هذه الأمور إلى قيام الثورة المكابية، والتي قادها الكاهن ماتياس في عام 164 قبل الميلاد. فانقسم المجتمع في أورشليم إلى قسمين، قسم يتبع للسلوقيين وآخر للحشمونيين. ويذكر سفر المكابيين 2 أن الحشموني سايمون/ سمعان استطاع في عام 141 قبل الميلاد الاستيلاء على قلعة السلوقيين في أورشليم «أكرا» وهدمها، وشكل دولة حشمونية في أورشليم استمرت حتى مجيء الروم في عام 63 قبل الميلاد. ووافق الملك السلوقي ديمتريوس الثاني نيكاتور على منح اليهود الاستقلال تحت حكم الكاهن الأعظم سمعان.

بعد إنشاء الدولة الحشمونية، وسع الحشمونيون السكنى في المدينة إلى الهضبة الغربية من أورشليم، وبنوا جسرًا ربطها بالجزء العلوي للمدينة. كما أحاطوا المدينة بجدار، وحصنوها ببناء قلعة أسماها الملك هيرود أنتونيا (Antonia). ومن نافل القول إن هذه الآثار قد أُرخت للفترة الهيلنستية بناء على ما بين هذه المباني من شبه بالوصف الذي ورد في أسفار العهد القديم، أو على ما كتبه فلافيوس جوزيفوس. ويعد كثير من العلماء غير اليهود جوزيفوس متحيزًا في كتاباته إلى عقيدته اليهودية. كما عُثر في القدس الغربية على قبر «يشوع» من الأسرة الحشمونية، وهو مزين بالرسومات والكتابات الآرامية واليونانية. كذلك عُثر في الحديقة الأرمنية في القدس على أواني فخارية (الشكل 47)، وقطع من العملات النقدية (الشكل 48)، سكها وضربها ملوك الحشمونيين بدلالة وجود أسماءهم وألقابهم مكتوبة على وجه وظهر القطع النقدية، باللغتين اليونانية والعبرية، وطبعوا عليها أحيانًا صورًا آدمية وحيوانية ونباتية.

وصلت دولة الحشمونيين ذروة ازدهارها زمن الملكين يوحنا/ جون هيركانوس وألكسندر جنايوس، فتوسعت الدولة في حدودها الشمالية، فبنوا جدارًا أحاط بالمدينة،

وقنوات للمياه. ومما يؤخذ على المكابيين أنهم حاربوا إخوانهم أصحاب النزعة الهيللينية، كذلك حاربوا غير اليهود، فمثلًا هاجم هيركانوس الأول (135 - 105 قبل الميلاد) يهود السامرة، لأنهم قبلوا الهيللينية، وهدم مدينتهم مع معبدها. كما أجبر الأدوميين الذين حكموا منطقة النقب في فلسطين على الختان والتهود (حتي 1982: 269).

«65 وخرج يهوذا وأخوته، وحاربوا بني عيسو في أرض الجنوب، وضرب حبرون وتوابعها، وهدم سورها، وأحرق البروج التي حولها. 66 وسار قاصدًا أرض الأجانب، وجال في أرض السامرة. 67 وفي ذلك الحين، سقط كهنة في الحرب، وكانوا يريدون أن يبدوا حماسة فخرجوا إلى الحرب عن غير تدبر. 68 ثم توجه يهوذا إلى أشدود في أرض الأجانب، فهدم مذابحهم وأحرق منحوتات آلهتهم بالنار، وسلب غنائم المدن وعاد إلى أرض يهوذا.» (الملوك الأول 5: 65 - 68). دب الخلاف بعد وفاة الحاكم الإسكندر جنايوس (103 - 76 قبل الميلاد) بين ورثته، فتدخل الروم بقيادة بومبي في عام 63 قبل الميلاد عسكريًا وقضوا على الدولة الحشمونية، وأصبحت المنطقة تابعة لروما (King 1992: 747 – 766).



شكل 47: أواني فخارية من الحديقة الأرمنية تؤرخ للفترة الهلنستية المتأخرة والرومية المبكرة
(عن: Tushingham 1985: Fig. 25)



شكل 48: قطع نقد تعود للملوك: هيركانوس I، وهيركانوس II، وألسكندر جنايوس، وأريسطوبوليس، وأنتيجونيوس، وهيرود الأكبر عُثر عليها في الحديقة الأرمنية خلال حفريات كاثلين كنيون (عن: Tushingham 1985: Pl. 151)

12

الفصل الثاني عشر

الروم في أورشليم

الفصل الثاني عشر

الروم في أورشليم

بـدأ صـراع في الولايـات الروميـة الواقعـة في آسـيا الصغـرى وسـوريا مـن أجـل توسعة رقعة الحكـم في كل منهما على حساب الأخرى، فتدخلت العاصمة الإمبراطورية لوقف هـذا الصراع، فأعلنت روما الحرب، وأمر الإمبراطور الرومي في روما في عام 69 قبل الميلاد بإرسال حملة عسكرية إلى المنطقة، نتج عنها استرجاع الأمير السلوقي أنتيوخس الثالث عشر لمنطقة أنطاكيا، لكنَّ الملك السلوقي فيليب الثاني لم يعترف بحكمه. وكان أحد حكام مناطق آسيا الصغرى ويدعى متردانس يسعى إلى تكوين مملكة كبيرة له في المنطقة، فطُرد في هذه الحملة، لكنه استطاع العودة بعد أربع سنوات واستعادة حكمه، فقدم الإمبراطور الرومي بومبي سنة 64 قبل الميلاد إلى آسيا الصغرى، وبعدها إلى سوريا (حتي 1982: 273 – 274).

بعد احتلال بومبي لسوريا الطبيعية أعاد تشكيلها إداريًا، فأبقى على بعض الممالك فيها، مثل مملكة الأنباط الممتدة بين دمشق في الشمال والعُلا في الجنوب، وإمارة الأتوريين وعاصمتهم «عنجر» في لبنان الحالي، وامتدت إمارتهم إلى أجزاء من حوران وجبال الجولان ومنطقة الجليل الأعلى بفلسطين، على أن يدفعوا الجزية السنوية لروما. كما أنشأ «الديكابوليس»، أي اتحاد المدن اليونانية العشر في وسط سوريا الطبيعية (منها مدن: قنوات في حوران، وبيسان في فلسطين، وأم قيس/ مكيس (جدارا) في شمالي الأردن، وجرش/ جراسا وعمَّان/ فيلادلفيا في وسط الأردن) (حتي 1982: 275 – 278)، وولاية اليهودية بعد أرجع جميع المناطق والمدن ذات الدساتير اليونانية التي احتلها المكابيون من المناطق المجاورة إلى وضعها السابق، أي ولايات

يحكم كلًا منها حاكم (السواح 2001: 265). وعلى الرغم من هذا التنوع السلطوي الإداري، وحَّد بومبي جميع مناطق سورية الطبيعية تحت ولاية رومية واحدة أسماها «ولاية سورية Provencia Syria»، وعاصمتها أنطاكية.

كانت مدينة أنطاكية في عهد السلوقيين، والتي أُنشئت عام 300 قبل الميلاد، أهم مركز سياسي شرقي المتوسط، ومن أهم المراكز الثقافية اليونانية، إلى جانب القسطنطينية والإسكندرية. لكنْ، عندما ضمت سوريا كولاية رومية كانت في حالة فوضى نتيجة لضعف الحكام السلوقيين في الأيام الأخيرة للدولة السلوقية. وكان لولاية سوريا منزلة خاصة لدى روما، فوُضعت تحت إشراف موظفين روم متميزين بالكفاءة الإدارية. أول هؤلاء كان مبعوثًا لبومبي، اسمه «يوليوس غابينوس Aulus Gabinius» (57 - 55 قبل الميلاد)، ومن الأعمال التي قام بها تجريد الكاهن الأعظم هيركانوس الثاني في مملكة يهوذا من رتبته الملكية، وفرض الضرائب الكبيرة على سكان يهوذا، وتقسيم يهوذا إلى خمسة أقاليم صغيرة، يحكم كلًا منها مجلس يسمى سنهدرين «Sanhedrin» أي مجلس السبعين. والسنهدرين هو المحفل اليهودي الذي كان يساعد الكاهن الأعلى في تطبيق القوانين الرومية على اليهود.

خلَف هذا الحاكم حكَّام آخرون، من أهمهم كراسوس الذي بدأ في عهده (سنة 54 قبل الميلاد) الصراع مع فارس وعاصمتها المدائن. وخلال الصراع مع فارس دبت حرب أهلية في روما، انعكست آثارها السلبية على جميع مناطق سوريا الطبيعية، نتيجة لتقسيم الإمبراطورية. إذ دب في عام 48 قبل الميلاد صراع على السلطة بين من بومبي ويوليوس قيصر انتهى بانتصار الأخير. فثبت يوليوس قيصر هيركانوس الثاني في منصبه ككاهن أعلى وحاكم على أورشليم. كما استفاد من هذا الصراع الوزير الأدومي «أنتيباتر» الذي كان قد أرسل معونة لقيصر إبان الصراع (Bieberstein and Blödhorn

109 – 108 :1994)، فثُبِّت في منصبه. وكان أنتيباتر هو الرجل الأول وصاحب السلطة الحقيقية في اليهودية «يهد» نتيجة لضعف الكاهن الأعلى والحاكم هيركانوس الثاني. لكنَّ أنتيباتر هذا اغتيل بعد بضع سنوات على يد يهود أصوليين، فورث المنصب من بعده ابنه هيرود، والذي عُرف في وقت لاحق باسم «هيرود الأكبر». وتزوج هيرود من حفيدة هيركانوس الثاني، فوحَّد بذلك العائلتين.

عُين مارك أنطونيو (عشيق كليوبترا) حاكمًا على سورية ومصر، وحكمهما أربع سنوات (40 – 36 قبل الميلاد)، أهمل خلالها شؤون الدولة. فغزا البارثيون في إيران خلال حكمه سوريا الطبيعية غزوة كبرى (40 – 38 قبل الميلاد)، وأخرجوا الروم منها، باستثناء مدينة صور (حتي 1982: 310 – 311)، وفر هيرود إلى روما خوفًا من البارثيين (Bieberstein and Blödhorn 1994: 109). وهناك رأي آخر يقول أن ابن أنتيباتر، فصايل، تولى إدارة أورشليم بعد وفاة أبيه، في حين كان هيرود واليًا على منطقة الجليل بفلسطين. وكان فصايل من أصل أدومي، فلم يعجب الحشمونيين، فاقتتل الطرفان داخل المدينة ودانت الغلبة بادئ الأمر للحشمونيين، مما اضطر هيرود إلى الهروب إلى روما (العارف 2005: 94).

لم يهدأ الأمر بعد وفاة يوليوس قيصر بين روما عاصمة الإمبراطورية وحكمها الإمبراطور أوكتافين (أوكتافيوس)، وحُكم القياصرة في مصر وسوريا بقيادة أنطونيو، إذ نشبت معركة «أكتيوم» البحرية بين الطرفين في عام 31 قبل الميلاد، وانتهت بانتصار الإمبراطور الرومي أوكتافين، فأصبح الحاكم الوحيد في الإمبراطورية الرومية. ورحب بهذا الانتصار سكان مصر وسوريا الذين كانوا يتوقون للاستقرار، عاد بعدها هيرود إلى أورشليم. حصل هيرود بمساعدة كل من ماركوس أنطونيو وأوكتافين على لقب (ملك اليهود)، فاستقلت البلاد في عهده استقلالًا ذاتيًا تحت سيادة روما.

من الملاحظ أن الأسرة المكابية في أورشليم قد أُهملت في أثناء حكم أنطونيو، وحلت مكانها الأسرة الهيرودية المنسوبة إلى هيرود. وينحدر هيرود من أسرة أدومية، وهو يهودي بالاسم فقط، واتخذ في عام 37 قبل الميلاد من أورشليم عاصمة له، وحكم البلاد والعباد مدة ثلاث وثلاثين سنة (King 1992: 758 – 760; Graf 2007: 108 – 112) (حتي 1982: 309 – 311). ولم ير هيرود في نفسه حاكمًا يهوديًا، وإنما حاكم لجميع الشعوب المنضوية تحت لواء هذه المملكة الرومية. إذ اهتم بالمناطق الأخرى خارج اليهودية، فبنى فيها المدن، وأعاد أخرى، وبنى في بعضها معابد وثنية، فأعاد، مثلًا، بناء مدينة السامرة التي دمرها هيركانوس المكابي، لكنْ على الطراز اليوناني، وأسماها «سبسطية» تكريمًا لأغسطس قيصر. وكان شغوفًا بالحضارة الهيللينية، فبنى منشآت في عدد من المدن السورية، مثل فوروم (سوق تجاري إهليجي الشكل) حسب المخطط اليوناني في مدن جبيل وبيروت وصور. ويظهر من هذا الانفتاح على جميع المناطق، والديانات، والأعراق أن هيرود كان للجميع، وكان مؤمنًا بتعدد الأديان والثقافات، والتقاء الحضارات مع بعضها بعضًا، وكارهًا للتعصب بشتى أنواعه. ونقدِّر أن هذا كله يتعارض مع المبادئ والعقائد اليهودية، مما يفسر الكراهية المتبادلة بينه وبين المتشددين اليهود. بل، وعدَّه الأصوليون اليهود المتعصبون حاكمًا أجنبيًا على الرغم من كل ما فعله لأجلهم، خاصة بناء المعبد الثالث وتوسيع المعبد الذي أقامه زربابل (العارف 2005: 95؛ الغول 2017: 59). وأكثر ما أخذوه على هيرود أنه قدَّم المصالح الرومية على حساب المحلية القومية.

وعلى الرغم من أن هيرود حكم مملكته بقبضة من حديد، إلا أن الحفريات الأثرية التي أُجريت في القدس كشفت عن العديد من العمائر والبقايا الأثرية التي أُقيمت خلال حكمه، وهي تدل على ازدهار اقتصادي. ونقدم أدناه ملخصًا لأهم هذه الآثار:

كانت أولى الأعمال العمرانية التي قام بها هيرود خلال الست أو السبع سنوات الأولى من حكمه توسعة القلعة الحشمونية المكابية المسماة في بعض

المصادر باسم (Baris)، وأعيد تسميته لاحقًا باسم (الأنتونية/ الأنطونية/ انطونيا) نسبة إلى مارك أنطونيوس(العارف 2005: 95)، وأبنية أخرى مثل القلعة في منطقة باب الخليل الحالي، كما عزَّز السور الحشموني بثلاثة أبراج في واجهته الشمالية (الغول 2017: 55).

ويظهر أن هيرود قد سكن خلال سنوات حكمه الأولى في القصر الحشموني المبني على الضفة الغربية لوادي الجبَّانين. لكنْ، وبعد أن قتلَ زوجته «مريمنا» في حوال 29 قبل الميلاد، وبعد مرور حوالي ثلاثة عشرة عامًا على حكمه (حوالي 25 قبل الميلاد)، بنى قصرًا جديدًا له. ويصف البعض هيرود بالشخص الظالم والقاسي، إذ قتل زوجته وأولاده الثلاثه: إسكندر، وأريسطوبولس، وأنتيباتر بسبب وشاية بأنهم تآمروا مع طائفة الفريسيين اليهود في أورشليم لقتله وانتزاع الحكم منه (العارف 2005: 95).

وصلت المنطقة العليا في أورشليم (Upper City) خلال فترة حكم هيرود (37 – 4 قبل الميلاد)، والتي سكنتها الطبقة الحاكمة، والأثرياء، وكبار رجال الدين والدولة، قمة ازدهارها الاقتصادي والعمراني. فبنى هيرود لنفسه في الجهة الغربية من المدينة قصرًا ضخمًا مكونًا من عدد كبير من الغرف، (Bieberstein and Blödhorn 1994: 109; Graf 2007: 108). وأُقيم البناء فوق مصطبة مرتفعة، وبلغت أبعاده 130 x 330 متراً. ولم يُكتشف البناء حتى الآن، فوصف القصر، والقياسات المذكورة جاءت اعتمادًا على ما ذكره جوزيفوس وهي مبالغ فيها وغير دقيقة في ظننا. وقُوي في هذه الفترة أيضًا سور المدينة الحشموني القريبة من القصر. ولم يعثر المنقبون سوى على بقايا بسيطة من البناء بالقرب من القلعة الأنطونية والحديقة الأرمنية (Amiran and Bitan 1976: 54; Bahat 1976: 55 – 56). ويعتقد بعض الباحثين (Bieberstein and Blödhorn 1994: 110) أن هيرود، بعد الانتهاء من بناء القلعة الأنطونية وقصره الكبير، بنى في عام 25 قبل الميلاد مسرح/ مدرج (Theater) ومدرج صغير (Amphitheater)، وميدانًا

لسباق الخيل (Hippodrome). ويظهر أن هيرود قد أعاد تخطيط شبكة الطرق داخل المدينة حتى تخدم مشاريعه العمرانية (الغول 2017: 60 - 61).

وعثر المنقبون في الحي اليهودي في القدس على بيوت، منها منزل ضخم من الفترة الهيرودية، فيه غرف كثيرة، تفتح على ساحات مزخرفة جدرانها برسومات، وربما كان هذا بيت عائلة الكاهن الأعلى. كذلك اكتُشف في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة العليا في القدس عن بيوت أخرى، مكون بعضها من طابقين أو أكثر، التفت غرفها حول ساحة مكشوفة، في وسطها بئر لجمع مياه الأمطار، وكان لبعضها أرضيات فسيفسائية (Avigad 1983; Graf 2007: 108).

ومما يُذكر أن ولادة السيد المسيح كانت في أواخر سني حكم هيرود، وبما أنه كان يأمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم فقد هربت به أمه العذراء مريم إلى مصر. على أية حال، توفي هيرود في السنة الرابعة للميلاد، فعادت بعدها العذراء ويسوع إلى فلسطين.

ومن الأمور المهمة التي حصلت في عهد هيرود أنه سك النقود في أورشليم، وكتب عليها اسمه بالخط اليوناني، ونقش عليها أشكالًا مختلفة منها: خوذة بين نخلتين فوقهما صورة لنجم، وقرنا كورنا-كوبيا، وقرنان يحيطان بثمرة رمان. كما يذكر أنه بنى لنفسه قصراً في مدينة قيسارية (الشكل 49).بعد وفاة هيرود سكن أبناؤه وسبع من الحكام في قصره، نذكر منهم بونتيوس بيلاطس (Pontius Pilatus) (26 - 36م)، الذي قام ببعض الإنشاءات البنائية في أورشليم خلال حكمه، منها ترميم قناة للمياه أو بنائها من جديد. كما أُقيم في هذه الفترة في أورشليم، في مسار السور الثاني الذي بناه هيرود، مقر الحاكم الرومي في اليهودية بشكل عام. ويرجح أن مسار هذا السور كان يمر بحارة النصارى الحالية في القدس القديمة.

تولى الحكم بعد وفاة هيرود ابنه Archelaus (أرخيلاوس 4 ق.م - 6م)، والذي وُصف بالضعف، فقامت في البلاد، وخاصة بين مجتمع أورشليم، عدة ثورات انتهت

بإقالته ونفيه. وحكم أورشليم خلال الفترة بين 6 - 66م أربعة عشرة نائبًا (حاكمًا روميًا)، أقاموا في قصر هيرود المحصن (Wilkinson 1978; 1989). ونظرًا لعدم الاستقرار والقلاقل في البلاد طلب الوالي الرومي في يهوديا النجدة من والي سوريا ومن ملك الأنباط الحارث الرابع. واستطاع هذان إخماد الثورات وتهدئة الأحوال في يهوديا بشكل عام، ونتج عن هذا الأمر أن أُلحقت يهوديا بولاية سوريا، أي لم تعد مستقلة ذاتيًا، ونُقلت عاصمة يهوديا إلى قيسارية، بدلًا من أورشليم (Graf 2007: 112). فتراجع المركز السياسي لمدينة أورشليم، فتحولت إلى مركز ديني مزعج لروما بدلًا من عاصمة سياسية، إذ استلم الحكم في المدينة الكاهن الأعلى والسنهدرين، وأصبحت البلاد برمتها تحت حكم روما، وعُيِّن عليها حكام روم، فازادت العلاقة بين اليهود وروما سوءًا وتدهورًا، وحكمتها الكراهية والبغضاء وفقدان الثقة بين الطرفين.



شكل 49: بقايا من قصر هيرود في مدينة قيسارية الساحلية (عن: Landauer 1925:161)

وعودة إلى الوالي الرومي بيلاطس الذي انتُدب من روما لإدارة شؤون البلاد في يهوديا خلال الفترة بين 26 - 36م، فقد أقام هذا بادئ الأمر في مدينة قيسارية، كرهًا لأورشليم، وكان يبعث بأوامره من هناك إليها، فثار اليهود في أورشليم عليه، فسيَّر عليهم حملة عسكرية تحمل الرايات الرومية، استطاعت أن تقضي على الفتنة واحتلت القلعة الأنطونية، فهاجم اليهود ثكنات الجيش الرومي، وطالبوا بنزع الأعلام الرومية (العارف 2005: 101). ولما لم يستجب قائد الحامية الرومية في المدينة لهم، توجهوا إلى الوالي نفسه في قيسارية الذي لبى لهم مطالبهم على الرغم من كرهه لهم، لكنه كان خائفًا في الوقت نفسه من أن يعزله القيصر في روما. بعدها أجرى بيلاطس بعدة إصلاحات زراعية واقتصادية ومعمارية في المدينة، ومنها محاولة بناء قناة لسحب المياه من عين العرُّوب بالقرب من مدينة الخليل إلى أورشليم. وعلى الرغم من نواياه الطيبة هذه اتجاه اليهود في أورشليم، إلاّ أنهم ثاروا عليه، فهاجمهم بقوة عسكرية كبيرة شتت شملهم، فقمع ثورتهم ونهب كنوز معبدهم.

أما الحاكم هيرود أغريبا الأول Herodes Agrippa I (41 – 44م)، فقد وسع الجهة الشمالية من المدينة، وبنى جدارًا حول المدينة، لم يكتمل بناؤه في حياته، أسماه فيلافيوس جوزيفوس (السور الثالث) (Bieberstein and Blödhorn 1994: 111) . وبالمجمل، وعلى الرغم من المشاكل التي عمت أورشليم خلال الفترة الرومية عامة، لكنَّ المدينة توسعت بالاتجاهين الشمالي والغربي، وازداد عدد سكانها نتيجة لاستقدام عمال من خارجها واستخدامهم في البناء والعمران. كل هذا لم يرض اليهود في أورشليم، خاصة لوجود مجموعات دينية متعصبة بينهم استطاعت السيطرة على المدينة والثورة على الروم عام 66م، مما حدا بالحاكم الرومي بإرسال الفرقة 12 من الجيش لإخماد الثورة في المدينة، لكنَّ الثائرين هزموه. بناء عليه كُلف القائد

فيسبسيان (Vespasian) بإخماد الثورة، لكنه تأخر في ذلك، بسبب وفاة الإمبراطور نيرو عام 68م وتعيينه خلفًا له (Schürer 1973: 384 – 513). وعوضًا عن فيسبسيان قاد ابنه تيطس في عام 70م الحملة العسكرية على أورشليم وحاصرها من جهتها الشمالية في ذلك العام. وأقام حولها ثلاث معسكرات على جبلَي المشارف والزيتون، ثم سوَّى أراضي شمالي المدينة، فرابطت القوات الرومية فيها. ونتيجة للحصار، استطاع الجيش الرومي دخول المدينة من جهتها الشمالية الغربية واحتلالها، وأشعل النيران في المعبد/ الهيكل ودمر المدينة تدميرًا كاملًا، عدا أبراج قصر هيرود الثلاثة لتكون عبرة للناظرين. علمًا أن المقابر المؤرخة لفترة هيرود وللفترة الرومية المبكرة لم تُدمَّر كذلك، إذ كشفت الحفريات التي أجريت في القدس بعد احتلالها عام 1967 عن ما يزيد على 800 قبر من هاتين الفترتين (Geva 1993: 717 – 767).

ومن أهم المدافن المكتشفة في القدس قبر اكتُشف عام 1863م، تعلوه ثلاثة أهرامات، يخص الملكة هيلينا ملكة أديابنية التي تحولت للديانة اليهودية، وتوفيت عام 65م. واستدل العلماء على أن هذا المدفن يخص هذه الملكة وأقاربها من نقش آرامي وُجد على تابوت حجري في المدفن (الغول 2017: 67).

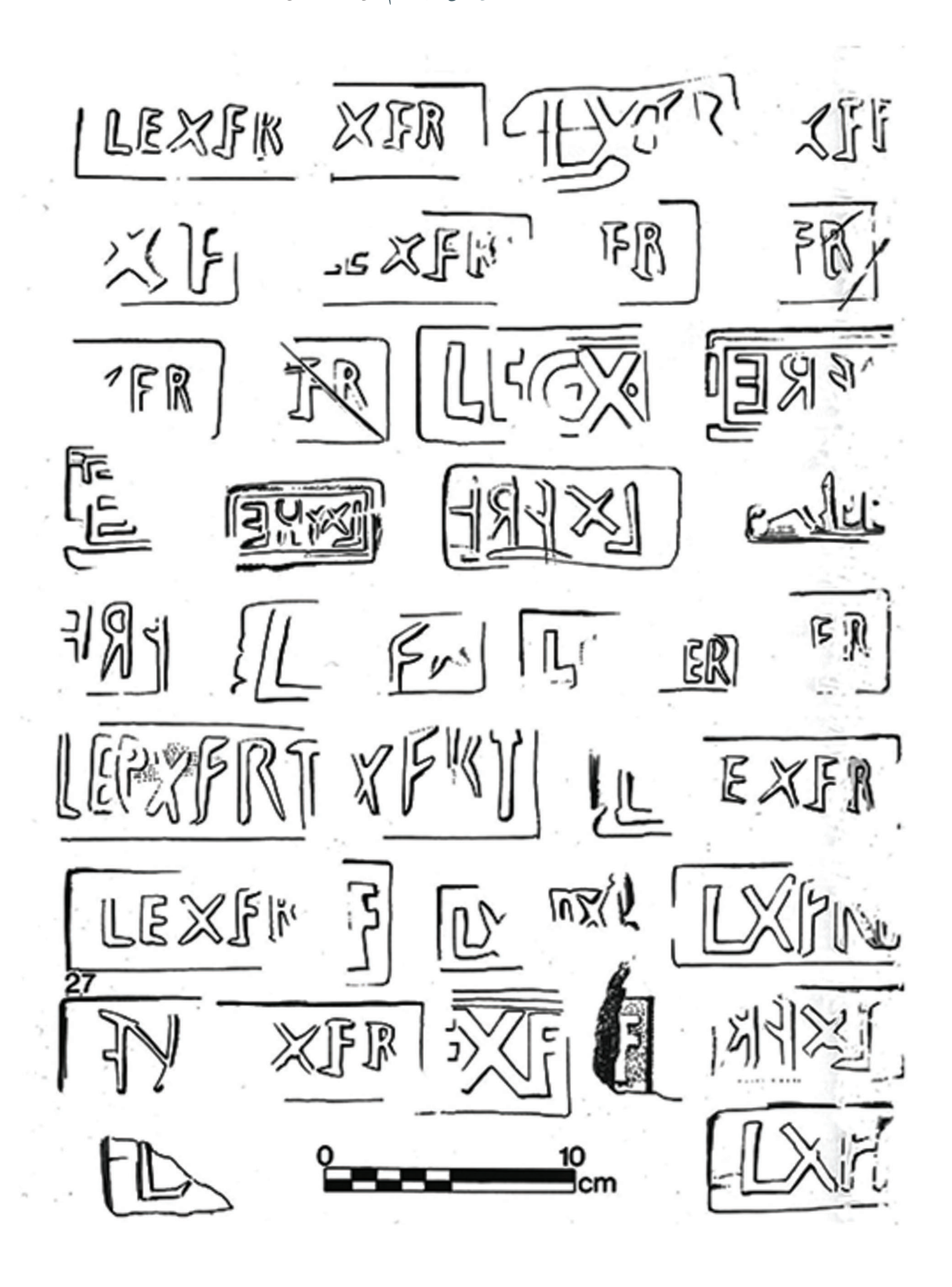
ولسوء الحظ، فإن الفترة بين تدمير أورشليم عام 70م وثورة بار- كوخبا سنة 132م ينقصها الكثير من المعلومات الأثرية والوثائقية (Schürer 1973: 514 – 534). ويظهر أن بعض المتعاونين مع الروم، وهم قلَّة، ظلوا في المدينة بعد احتلالها وتدميرها، لكنهم فقدوا ملكياتهم وصاروا عبيدًا للروم، إذ تحولت المدينة إلى ثكنة عسكرية. أما المخلفات الأثرية من هذه الفترة، فكانت قليلة جدًا، تكونت من أوان فخارية وقطع نقد قليلة، وعُثر في أجزاء متفرقة من المدينة على نقوش يونانية (الشكلان 50 – 51)

من بقايا الفيلق العاشر الذي احتل أورشليم (Bieberstein 2007: 136 – 139)، علمًا أن بعض الباحثين ينفي وجود معسكر في أورشليم لهذا الفيلق (Geva 1984: 245). ويذكر العارف (2005: 131) أنه لم يبق في أورشليم سوى الحامية الرومية، وهم أفراد الفيلق العاشر، وأن الداخل إلى المدينة القديمة من باب الخليل يجد على يساره بناءً كبيرًا بني في طابقه الأرضي عمود من رخام نقش عليه اسم هذا الفيلق. وعُثر على نقشين على عمودين تذكاريين، نُقش عليهما اسمَي «فيسبسيان» و»تيطس» .(Isaac 1998:76 – 86) ومن المعلوم أن تيطس ذهب بعد تدميره أورشليم إلى قيسارية، ومعه الفيلقان الخامس والخامس عشر، وأبقى في القدس الفيلق العاشر للمحافظة على الأمن فيها. وبعد أن انتهى من احتفالات النصر هناك، سافر إلى روما، وقوبل مقابلة القائد المنتصر؛ إذ أقيمت على شرفه الحفلات. والزائر لمدينة روما اليوم يرى في منطقة قريبة من مبنى الكلسيوم مبنى لقوس نصر منحوت عليه صور لتدمير الهيكل ونهب كنوزه وجلبها إلى روما.





شكل 50: طبعة لختم رمز الفيلق العاشر على بلاطات البناء



الشكل 51: بلاطات عليها رمز الفيلق العاشر، عُثر عليها في الحديقة الأرمنية خلال حفريات كاثلين كنيون
(عن: Tushingham 1985: Fig. 66)

كما سك الروم قطع نقد (تؤرخ للسنوات (79 - 81م) مصور على وجهها القائد تيطس وبيده الصولجان وأمامه امرأة يهودية حزينة تجلس على الأرض متكئة على شجرة نخيل، وعلى ظهرها أسير يهودي مكبل اليدين ينظر إلى امرأتين أسيرتين. كما ضُربت نقود في أورشليم في عهد الحاكم كاليجولا (37 – 41م)، نُقش على وجه القطعة كتابة باللغة اليونانية تقول « من الملك أغريباس» ومظلة مزخرفة بالورود، وعلى خلفها ثلاث سنابل. أما خلال ثورة «سمعان بار–كوخبا» (131م) فقد سك اليهود في أورشليم مسكوكات يهودية كُتب على وجهها في بعض الحالات باللغة العبرية كلمات، مثل «أورشليم»، «شمعون»، ورُسم أحيانًا معبدًا في واجهته أربعة أعمدة، وغصن نخلة، أو عنقود، أو شجرة نخيل مثمرة، أو غصن دالية عنب، وعلى الظهر كان هناك تصوير لشجرة في حقل، أو بوقان «كورنا–كوبيا»، أو إناء له مقبضان (العارف 2005: 136). لم يضطهد فيسبسيان اليهود خارج أورشليم، واكتفى بفرض الجزية عليهم.

يبدو أن القبضة العسكرية الرومية على أورشليم ضعفت بمرور السنوات، مما مكَّن بعضهم من العودة إليها والإقامة فيها. وبقي اليهود على هذا الحال مدة طويلة دون أية مشاكل مع روما، لكنهم عادوا للثورات والقلاقل في عهد الامبراطور تراجان (106 – 114م). وبعد أن توفي تراجان تولى الحكم هدريان (117 – 138م)، وقرر هذا القضاء على الشعب اليهودي الذي أكثر من الثورات في عهد سابقيه. فمنع اليهود من الاختتان، وقراءة التوراة، واحترام يوم السبت، وحاول تحويل أورشليم إلى مدينة رومية. عندها قاد شخص يهودي يدعى بار–كوخبا ثورة على الروم في عام 135م، وحقق انتصارات كبيرة بادئ الأمر، واستطاع الثائرون السيطرة على المدينة. فجردت روما حملة كبيرة على أورشليم بطلب من الإمبراطور هدريان، وبقيادة يوليوس سفيروس (Julius Severus)، فدخلها وهزم اليهود الثائرين فيها. وأمر هدريان بردم

مكان المعبد بالحجارة والتراب. وبنى فوق منطقة الجلجلة، حيث يُفترض أن السيد المسيح قد صُلب هناك، وبنى فوقها هيكلين وثنيين وقبرًا، وحوَّل الأرض المجاورة إلى حديقة. وفرض سبتيموس سفيروس، والي أورشليم، قرارات جديدة وصعبة حتى لا يثور اليهود مرة أخرى. فهاجروا من البلاد إلى مناطق أخرى قريبة وبعيدة، فتشتت شملهم ولم تقم لهم قائمة مرة أخرى، وتحولت أورشليم بعدها من مدينة إلى قرية صغيرة تابعة لمدينة قيسارية، ومنع اليهود من العودة إليها.

استخدم الناس في أورشليم أيام حكم الروم أكثر من لغة، فكانت اللغة الآرامية لغة التخاطب بين العامة، واللغة العبرية لغة اليهود المستخدمة في تأدية العبادات فقط، واليونانية لغير اليهود وللمثقفين على اختلاف أعراقهم وطبقاتهم، وأخيراً اللاتينية اللغة الرسمية الغالبة للموظفين الروم والعاملين معهم (العارف 2005: 136).

كما ذكرنا أعلاه، فقد شهدت فترة حكم هيرود على اليهودية ظهور السيد المسيح عليه الصلاة والسلام في سنة 5 قبل الميلاد (Sartre 2005: 95). وحسب ما ذكره جوزيفوس فإنه كان يسكن القدس عند الاحتلال اليوناني لها ثلاث طوائف يهودية، هي: الفريسيون، والصدوقيين، والأسينيون. وأن هذه الطائفة الأخيرة انسحبت من القدس واستوطنت في الكهوف الواقعة في المنطقة الجبلية المحاذية لشمالي شواطئ البحر الميت الغربية، حيث وجدت مخطوطات البحر الميت في كهوف قمران. ونخمن، كما ذكرنا أعلاه، أن السيد المسيح ولد لعائلة إسينية، ومارس دعوته بين أفراد المجتمع لتخليصهم من الذنوب التي نشأت عن تحول يهود أورشليم إلى الثقافة الهيللينية، والعودة إلى الديانة الموسوية الأصلية (الأخذ بما ورد في الكتب الخمسة الأولى فقط) دون غيرها. لكنَّ هذه الدعوة لم تعجب يهود أورشليم ولا الروم الوثنيين، لكنَّها ربما لقيت تفهمًا من بعضهم. وكان اليهود يخشون على أنفسهم

وعلى ديانتهم من الروم، إذ إن المسيح في الأصل يهودي الديانة، فخشوا على انهيار سلطتهم الدينية، وأن يحرموا خيرات تلك السلطة. فرأوا أن موت واحد من الشعب خير من أن يُهلك الروم الشعب كله. فهرب السيد المسيح إلى البرية وعاش فيها مدة من الوقت سرًا، إلا أنه قرر العودة في عيد الفصح وكان يعلم أن مصيره هو الموت.

كانت القدس في عهد المسيح تحفل بثراء فاحش، وكان الناس يعيشون حياة رغيدة. غير أن القائمين على المعبد اليهودي كانوا يقومون بأعمال غير مرضية. جاءها المسيح عام 28م، أي زمن الوالي بيلاطس الذي اعتقله وحكم عليه بالموت، علمًا أن تعاليمه لم تكن سياسية، ولم يستهدف بها السلطة في روما التي كانت مستعمرة للبلاد. وكان هدف دعوة السيد المسيح نشر المحبة بين الناس وإصلاح المجتمع وحمايته من المعاصي التي كان واقعًا فيها. وكان كل غضبه موجهًا إلة حُماة الهيكل ورؤساء الكهنة من بني إسرائيل لكثرة الضرائب التي كانوا يجبونها من الناس (العارف 2005: 104).

بعد أن هدم هدريان أورشليم وردم بقايا اليهود فيها، أصدر عام 139م أمرًا ببناء مدينة فوق ردم المدينة القديمة على الطراز الرومي، وأن تسمى «إيليا كابيتولينا»، وأمر اليهود بعدم دخول المدينة الجديدة، بل وحتى عدم النظر إليها من بعيد. ومما يذكر أن هدريان بنى سوقًا في المكان المعروف الآن باسم «باب العمود»، وسك مسكوكات جديدة كتب عليها باللغة اللاتينية. وبهذا نختم مرحلة من مراحل تاريخ القدس تحت حكم هدريان، وسنتناول في الفصل الآتي مدينة «إيليا كابيتولينا».

13 الفصل الثالث عشر

إيليا كابيتولينا
(135 – 324م)

الفصل الثالث عشر

إيليا كابيتولينا (135 - 324م)

ذكرنـا أعـلاه أن هدريـان أمـر في عـام 135م بتدمير كل المعالـم العمرانيـة البـارزة في أورشـليم وطمرهـا بالـتراب، بعـد أن ردم حجـارة مبانيهـا وأشـاد فوقهـا مدينـة على الطـراز الرومـي، وكان قـد سـبقه إلـى هـذا القائـد الرومـي تيطـس في عـام 70م. ولـم يكـن ليحصـل هـذا لـولا عصيـان اليهـود وتمردهـم وكثـرة ثوراتهـم وخروجهـم عـن بعـض معتقداتهـم الدينيـة. وبطبيعـة الحـال، كان لا بـد لبعـض اليهـود أن يفقـدوا الثقـة بالربانييـن وبالكهنـة الآخريـن.

وكمـا ذكرنـا أعـلاه، فالسـيد المسـيح كان قـد بـدأ الدعـوة للنصرانيـة بالخفـاء والعلانيـة قبـل تدميـر المعبد/ الهيـكل الثـاني بأقـل مـن مائـة عـام ، وتنصـر علـى يـده مجموعـة مـن أهالـي المنطقـة. وبرأينـا أن دعـوة المسـيح إلـى الخيـر والسـلام، وهـي حركـة دينيـة تصحيحيـة للديانـة اليهوديـة، قـد بـدأت تنتشـر بشـكل أكـبر بعـد تدميـر أورشـليم علـى يـد هدريـان بيـن الطوائـف اليهوديـة الأخـرى، وذلـك نتيجـة للمعانـاة والمصائـب التـي حلـت بهـم. ولا ننسـى أيضـًا أن هيـرود كان قـد حـاول بنـاء معبـد للإلـه هرقـل فـوق جبـل صهيـون، حيـث كان معبـد الإلـه يهـوه، كذلـك بُنيـت أضرحـة ومـزارات دينيـة في المدينـة. ولمـا كان اسـم المدينـة «أورشـليم» مرتبـط ارتباطـًا وثيقـًا باليهـود، وبمـا أن مدينـة اليهـود قـد دُمـرت نهائيًـا، وعـن بكـرة أبيهـا، فأصبـح مـن الضـروري تغييـر اسـم المدينـة إلـى اسـم آخـر يتناسـب وحـال المدينـة الروميـة الجديـدة، فكانـت «إيليـا كابيتولينا» (Colonia Aelia Capitolina) (Armstrong 1997:161). وأصـل الاسـم مشتق

في الأساس من الاسم (Jubiter Capitolinus) إله معبد هرقل الذي حاول هدريان بناءه فوق أنقاض أورشليم. ويظهر أن ثورة بار-كوخبا في 131/ 132م قد أعاقت هدريان من تنفيذ كثير من المشاريع التي كان يخطط لها، ومنها بناء معبد هرقل (King 1993: 761).

كما ذكرنا أعلاه، كانت استراتيجية هدريان المحافظة على الهدوء في يهوديا، ولهذا عسكر الفيلق الرومي الثاني فيها ورفع مستواها السياسي إلى رتبة «مقاطعة قنصلية» (Consular Province)، كما شق فيها شبكة من الطرق، نذكر منها الطريق التي بناها في عام 130م، لتربط بين بلدة «بيت جبرين» غربي مدينة الخليل وبين مدينة أورشليم، كما بنى المعابد وسك النقود في أكثر من دار ضرب في المدن الفلسطينية، ومنها إيليا كابيتولينا (Bieberstein 2007:142 - 143).

بنيت إيليا -كابيتولينا حسب مخططات المدن اليونانية- الرومية، أي شارع رئيس يسمى الكاردو (Cardo) تتقاطع معه شوارع فرعية (الشكل 52)، يسمى الواحد منها باسم ديكيومانس (Decumanus)، وكان يصطف على جانبي الشوارع الرئيسة والفرعية دكاكين/ محلات تجارية. وعثرت البعثات الأثرية الإسرائيلية العاملة في القدس منذ سنوات على أجزاء من الشوارع والدكاكين، منها ما عُثر عليه في حي المغاربة (Avigad 1983).



شكل 52: جزء من الشارع الرئيسي (الكاردو) الذي يربط بين شمالي المدينة وجنوبيها

ويبدو أن علاقة روما باليهود قد تحسنت خلال حكم الإمبراطور أنطونيوس بيوس 138 – 161م، فسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية؛ إذ سمح ليهود منطقة الجليل بفلسطين عام 140م بتعيين الرابي سمعان، الذي ينحدر من أسرة (هيليل Hillel) رابيًا عليهم، والذي اعتُرف به مع مرور الوقت رئيسًا على اليهود في الإمبراطورية، لأنه كان، حسب ادعائهم، من سلالة داود (Armstrong 1997:166). وبقي الأمر على حاله حتى حكم سمعان بن يهودا الأول (200 – 220م)، والملقب «الأمير»، والذي كان صديقًا للإمبراطور ماركوس أورليوس أنطونيوس (Marcus Aurelius Antoninus) (206 – 217م).

ذكرنـا أعـلاه، أن جميع اليهـود قد طُردوا بعد ثـورة بار-كوبا مـن إيليا-كابيتولينـا، وكذلـك كان حـال اليهـود النصـارى؛ لكـنْ سـمح لأولئـك السـوريين واليونانيـون الذيـن تنصـروا بالبقـاء فيهـا، إذ ذكـر المـؤرخ اليونـاني إيزبيـوس وجـود بيـت ربمـا استُخدم لعبـادة النصـارى مـن غيـر اليهـود سـرًا في إيليـا- كابيتولينـا بنـي في ذلـك الوقـت (Armstrong 1997:170). فلـم يكـن مسـموحًا بممارسـة الطقـوس الدينيـة النصرانيـة في العلـن. علـى أيـة حـال، يظهـر أن هـؤلاء النصـارى مـن غيـر العـرق اليهـودي هـم مـن استلم زمـام الأمـور الدينيـة النصرانيـة خفيـة في المدينـة. ويقـال إنـه بنـي فـوق منطقـة جلجاثـا، المـكان الـذي يُفـترض أن المسـيح صُلـب فيـه، معبـدًا للإلهـة الروميـة أفروديـت. علـى أيـة حـال، مـن الـواجـب التأكيـد أن إيليا-كابيتولينـا فقـدت أهميتهـا السياسـية والدينيـة في الفـترة بيـن 135 - 324م، وكانـت مدينـة قيسـارية هـي المدينـة الأولـى في فلسـطين في هـذه الفـترة. وبقـي الحـال علـى مـا هـو عليـه، حتـى اعـترف الامبراطـور قسـطنطين في عـام 324م بـأن الديانـة المسـيحية هـي الديـن الرسـمي للدولـة، وهنـا يبـدأ فصـل جديـد في تاريـخ القـدس نتحـدث عنـه في الصفحـات الآتيـة.

14

الفصل الرابع عشر

إيليا المسيحية
(324 - 638م)

الفصل الرابع عشر

إيليا المسيحية (324 - 638م)

شهدت القدس خلال الفترة البيزنطية (324 - 636م) توسعًا لا سابق له، كما أعاد الإمبراطور قسطنطين للمدينة أهميتها، بعد أن تحولت لقرية بسيطة نتيجة لتدميرها بعد ثورات محلّية في مرتين: الأولى 66 - 70 والثانية 132 - 135م. ومن حسن الطالع، أن هناك الكثير من المراجع والمصادر المكتوبة التي تتحدث عن المدينة في هذه الفترة، وكُتب أغلبها باللغتين اليونانية واللاتينية بيد الرهبان والحجاج النصارى، كما كشفت الحفريات الأثرية عن مبان عمرانية من هذه الفترة لا يزال بعضها ماثلًا للعيان. وتعدُّ خارطة مأدبا الفسيفسائية (الشكل 53) المؤرخة في النصف الثاني من القرن السادس (حوالي 575م)، وفي قول آخر بداية السابع الميلادي من أهم المصادر لدراسة مخطط المدينة، إذ كانت مسورة بجدار بيضاوي الشكل فيه بوابات تفضي لداخل المدينة، ويعلوه عشرون برجًا. ويخترق المدينة شارع رئيس (Cardo)، وهو شارع «خان الزيت» الحالي، تحيط به أعمدة تقسم المدينة إلى قسمين، شمالي وجنوبي. وهناك شارع معمد آخر، لكنه أقل شأنًا (شارع الواد حاليًا) يتجه شرقًا. كما تظهر على الخارطة شوارع ومبان، ورُسمت سقوف الكنائس بفسيفساء حمراء اللون، تمييزًا لها عن غيرها من المباني (Schick 2007: 169 - 170).

كانت الديانة الرسمية لإيليا كابيتولينا هي المتبعة لدى الروم، أي ديانة الدولة الرسمية في روما، لكنْ يظهر أنه كان هناك وجود للنصرانية فيها، إذ وُجد في المدينة أسقفان من أساقفة القرن الثالث الميلادي جاءا إلى المدينة من تدمر (ولكنسون 2009: 108). وكان النصارى في المدينة يتعبدون في بداية الأمر في بيوتهم، فقد عُثر على بيت، ربما استخدم للتعبد، بُني جنوب معسكر الفيلق العاشر في حارة الأرمن اليوم.



شكل 53 : مخطط مدينة إيليا كابتولينا كما رُسمت في خارطة مأدبا الفسيفسائية (عن الإنترنت)

تطور الأمر في النصف الثاني من القرن الثالث؛ إذ ذكر المؤرخ أوزيبيوس، الذي وُلد في قيسارية عام 260م، وأصبح أسقفًا فيما بعد، أن كنيسة البيت تحولت إلى كنيسة أكبر مساحة، أي إلى بناء عام. لكن وبالرغم من هذا، فإن الديانة النصرانية لم تكن ديانة مشروعة في الإمبراطورية الرومية، إذ أُجبر الإمبراطور فيليب العربي، من قرية شهبا شرقي (بصرى اسكي شام) على التخلي عن نصرانيته حتى يجوز له اعتلاء عرش الإمبراطورية في الفترة بين 244 - 249م، لكنه بقي متعاطفًا مع النصارى وديانتهم. لكنَّ الأمر اختلف بعد اعتلاء الإمبراطور ديو كليتيانوس/ ديو قلسيان (Diocletian) العرش، والذي أصدر مرسومًا عام 303م أمر فيه بتطهير الجيش من النصارى، وإحراق جميع كتبهم المقدسة، وتدمير جميع كنائسهم (Wilkinson 1989: 93). واستمر هذا

الاضطهاد حتى عام 310م، حتى اعتلى العرش الإمبراطور قسطنطين الذي أمر عام 312م ببناء الكنائس على نفقة الدولة، لكنه لم يتنصر حتى يضمن استمرار أحقيته بالعرش كوثني، كما كان فعل الإمبراطور فيليب العربي. انعكس تعاطف الإمبراطور قسطنطين مع النصرانية إيجابيًا على إيليا-كابيتولينا، إذ تحولت من قرية لا أهمية لها إلى مدينة ذات شأن ديني عظيم. فقد أمر قسطنطين بكشف القبر المقدس، وشرع ببناء أول كنيسة في المكان، عُرفت باسم «كنيسة الشهداء»، بُنيت على الطراز البازيليكي، واستكمل بناءها قسيس من القسطنطينية ومهندس من تدمر (Wilkinson 1989: 94; Fig. 7). كما حافظت المدينة في الفترة البيزنطية على اسمها «إيليا»، الاسم الذي أعطاه إياها الإمبراطور الرومي هدريان، علمًا أن اسم أورشليم عاد للظهور عند نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الميلادي فقط عند الحديث عن الأحداث التوراتية، كما ورد اسم «المدينة المقدسة» في الكتابات المسيحية التي وردت فيما بعد (Schick 2007: 170).

تمتعت «إيليا» بسلام معظم أوقات الفترة البيزنطية، وعاش الناس فيها بطمأنينة وسلام. أما من الناحية المذهبية أو الدينية، فقد شهد القرنان الخامس والسادس الميلاديين خلافًا مذهبيًا بين أتباع الديانة النصرانية. وبدأ الخلاف في مجمع «أفسوس» الذي عُقد عام 431م، والذي بحث مسائل عقائدية جديدة، من أهمها «الوحدة الشخصية بين الله والإنسان يسوع المسيح»؛ بين كنيسة إنطاكية التي كانت تشدد على واقعية التجسد، وبين الآريوسيين الذين يفرِّقون بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية، وبين مدرسة الإسكندرية التي كان رأيها يختلف عن ذلك. وبناء عليه، شكَّل أتباع الكنيسة النسطورية في شمالي سوريا كنيستهم الخاصة بهم، معارضين بذلك وجهة نظر الكنيسة الرسمية الرومية.

أما بالنسبة لمدينة إيليا، فقد حضرت في عام 438م الإمبراطورة أودوكيا للحج وزيارة الأماكن المقدسة في المدينة، فأحبتها كثيرًا، وعندما دبَّ خلاف بينها وبين الأسرة الحاكمة، وخاصة أخت الامبراطور المدعوة بُلخيريا (Pulcheria)، سنة 444م، نُفيت إلى القدس، ونظرًا لأنها من البيت الحاكم فقد حكمت فلسطين. ونشأ الخلاف الذي أدى إلى نفيها لأنها عارضت وجهة النظر الدينية الرسمية، ووافقت على رأي رهبان سوريا. لهذا، بَنت أديرة وكنائس في أرجاء البلاد بما في ذلك إيليا. ودعت هذه السيدة في عام 451م لمجمع خلقيدونيا لتقريب وجهات النظر بين أصحاب العقيدة المسيحية. ومن نتائج اجتماعات هذا المجمع هزيمة النساطرة وأتباعهم، وهم الذين يعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح. وعُيِّن على القدس أسقف من الأساقفة المنادين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح اسمه ثيودوسيوس. ومن الجدير بالذكر أن الأقباط والأحباش واليعاقبة السوريين والأرمن من أتباع هذه العقيدة في الوقت الحاضر (Wilkinson 1989: 98). وآخر عمل قامت به أودوكيا كان بناء كنيسة القديس أسطفان التي تبعد حوالي 350 مترًا عن باب العمود، وانتهى العمل في بنائها عام 460م.

لم يعكر صفو إيليا كابيتولينا سوى بعض الأحداث التي جرت خلال القرنين الأخيرين من حكم البيزنطيين نتيجة للخلافات العقائدية والمذهبية التي دبت بين الطوائف المسيحية. هذا الأمر أعطى الفرصة لسكان السامرة السامريون لإعلان دولة مستقلة في منطقتهم، ونادوا في عام 484م بشخص اسمه يوستوس ملكًا عليهم. فسحق الإمبراطور زينون الثورة ودمر معبدهم وبنى كنيسة فوق أنقاضه. لكنهم لم يستكينوا، إذ ثاروا عام 529م، أي زمن الإمبراطور جستنيان مرة أخرى، ودمروا الكنائس في عدد من المدن ومنها إيليا، لكنَّ ثورتهم أُخمدت، وأمر جستنيان ببناء أو إعادة بناء الكنائس المدمرة ومنها كنيسة في مدينة إيليا.

كانت العلاقة بين الإمبراطوريات البارثية والفارسية والساسانية في إيران الحالية وبين روما والقسطنطينية بين مد وجزر. حكم كسرى ثمانية وثلاثين عامًا (590 - 628م) إمبراطورية فارس الساسانية الجديدة التي حكمت مدة تزيد على الأربعمائة عام (226 - 651م)، استطاع خلالها السيطرة على منافسيه وإحلال الهدوء في البلاد، واستغل الحرب الأهلية التي نشبت في بيزنطة، فزحف بجيشه على أراضي الإمبراطورية البيزنطية، واحتل سوريا الطبيعية وشمالي مصر.

فبعد احتلال دمشق عام 613م زحفت جيوش قائده، شَهرَبارز، عام 614م نحو القدس، وكانت علاقة كسرى الثاني باليهود متميزة بعد اضطهاد الروم لهم. وبعد أربعين يومًا من حصار المدينة والقتال الذي نشب بين اليهود والمسيحيين في إيليا، استطاع الفرس دخول المدينة فذبحوا عددًا كبيرًا من سكانها النصارى، وأحرقوا الكنائس، كما أنهم باعوا كثيرًا من المسيحيين عبيدًا، وأخذوا عددًا آخر معهم إلى العاصمة المدائن طيسفون، وسلموا المدينة لليهود. لكنَّ الأمر لم يدم طويلًا، إذ هجم الإمبراطور البيزنطي هرقل سنة 628م على فارس، واستطاع أن يعيد أراضي بيزنطة التي احتلها الساسانيون، وأن يرجع المنفيين إلى إيليا.

ومع ظهور الإسلام في الجزيرة العربية بدأت تظهر إلى حيز الأفق قوة ثالثة في المنطقة، فها هي جحافل جيوش المسلمين تهاجم الجيش الرومي في مؤتة، وبعد مضي خمس سنوات على مؤتة يحتل جيش المسلمين جنوبي فلسطين بعد معركة أجنادين التي تبعد حوالي ثلاثين كيلومترًا عن مدينة القدس الحالية. ولم يمض وقت طويل حتى انتصر المسلمون على الروم عام 636م في معركة اليرموك. وودع هرقل سوريا الطبيعية بمقولته الشهيرة «وداعًا يا سوريا، وداعًا لا لقاء بعده». وفي عام 637م،

تلقى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رسالة من صوفرونيوس، بطريرك إيليا، يعلمه فيها بأن المدينة تود الاستسلام دون قتال للمسلمين، على أن يأتي هو شخصيًا دون سواه لاستلامها، فانطلق من الجابية الواقعة قرب بحيرة طبرية ليسلمه البطريرك مفاتيح المدينة في عام 638م، وتُوقع العهدة العمرية، والتي من نصوصها أن تكون المدينة خالية من اليهود، ويدخل المسلمون والإسلام المدينة دون تدمير، وبقيت القدس إسلامية الطابع سليمة، حتى سقطت في عام 1967م.

الخاتمة

الخاتمة:

أكدت التنقيبات الأثرية في مدينة القدس أن المجموعات البشرية جاءت إلى المدينة قبل أكثر من 250000 ألف سنة، ولا يستطيع أي باحث أن يقرر جنس أو عرق هؤلاء الناس لغياب الشواهد الكتابية، لعدم معرفة الناس للكتابة. وينسحب هذا الأمر على جميع عصور ما قبل التاريخ حتى بداية التدوين، ومعرفة الكتابة في كل من بلاد الرافدين ومصر خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد.

ويظهر أن مجموعات من الناس المحليين سكنت خلال المراحل الأولى (حوالي 3600 - 3100 ق.م) والثانية (حوالي 3100 - 2700 ق.م) من العصر البرونزي المبكر كهوفًا عُثر فيها على بقايا أوان فخارية مشابهة لتلك التي عُثر عليها في مواقع معاصرة في فلسطين والأردن (Steiner 2001: Fig. 2.1). ونتيجة لقلة المكتشفات الأثرية المكتشفة في القدس والمؤرخة للألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، فإننا نعتقد أن المدينة وسكانها لم يكن لهم دور مهم في التحولات الاقتصادية، والاجتماعية، التي حصلت في المنطقة خلال هذه الفترة، وأن أهلها كانوا في بداية الأمر رعاة، ثم تحولوا إلى الفلاحة، وفي مرحلة لاحقة اعتمدوا الزراعة وتربية الحيوانات أساسًا للمعيشة.

ويظهر أن وضع القدس تغير خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (حوالي 2000 - 1550 ق.م)، فأصبحت واحدة من مدن فلسطين المحصنة، بدلالة العثور على أسوار أرخها المنقبون لحوالي 1800 قبل الميلاد (Kenyon 1974: 82أ Fig. 15)، إضافة لذكرها في المصادر التاريخية المصرية المؤرخة لهذه الفترة (Kitchen 2007). ويقول إدوارد لبنسكي (Lipinski 2007:3 – 4) أن اسم المدينة المذكور في نصوص اللعن (روشاليمم)، وفي رسائل تل العمارنة (أورسالم) هو سامي الأصل،

مما يدل على أن سكان القدس هم من الساميين. واعتمادًا على الدراسة اللغوية لهذا الاسم، ومطابقة أسماء حكام القدس الواردة في نصوص اللعن مع ما يشابهها في أرشيف ماري (تل الحريري)، ذكر لبنسكي أن سكان القدس خلال الفترة بين حوالي 2000 وحتى 1550 قبل الميلاد هم من الأموريين. واقترح أن مساحة الموقع بلغت حوالي 4.4 هكتار (حوالي 44 دونمًا) وعدد سكانها تراوح بين حوالي 880 إلى 1100 نسمة.

ويرى كثير من الباحثين أن وضع المدينة خلال الفترة ما بين 1700 وحتى 1200 قبل الميلاد تراجع، بدلالة ندرة الآثار المكتشفة في المدينة من هذه الفترة. علمًا أن الحفريات الأثرية التي جرت في منطقة دير القديس استيفان والمدرسة التوراتية الفرنسية في القدس، وفي منطقة تبعد حوالي كيلومترًا إلى الشمال الغربي من عين ستنا مريم، كشفت عن بقايا مبنى اعتقد المنقبون أنه معبد مصري الطابع، يؤرخ للفترة بين حوالي 1300 – 1200 قبل الميلاد (Barkay 1996). ومثل هذا الكشف يدل دلالة قاطعة على وجود جالية مصرية بين سكان القدس في تلك الفترة. وبهذا، لم تختلف القدس عن بقية المدن الكنعانية في فلسطين خلال الفترة بين حوالي 1550 وحتى 1200 قبل الميلاد، حينما خضعت جميع منطقة جنوبي بلاد الشام للسيطرة الفرعونية، وسكنت فيها جاليات مصرية. ويرى المتخصصون أيضًا أن اسم حاكم أورسالم (عبدي - خيبا) الوارد في رسائل تل العمارنة ذو أصول حورية، إذ إن كلمة حبَا/ خيبا تعني باللغة الحورية «ملك» (Lipinski 2007: 4 – 5). ونرى أن وجود اسم حوري لا يعني بالضرورة أن سكان المدينة كانوا حوريين، بقدر ما يدل على وجود جالية أو أشخاص حوريين سكنوا بين سكانها الأصليين.

كذلك عثرت بعثة أثرية إيطالية (Saller 1964) فوق المنحدر الغربي لجبل الزيتون على مدفن (الشكل 54)، عُثر بداخله على أوان فخارية وقطع أثرية أخرى،

بعضها مستورد من قبرص وبلاد اليونان (الشكل 55)، ترجع إلى الفترة الممتدة بين حوالي 1700 وحتى 1200 قبل الميلاد (Fischer 2007). ونسب المنقبون هذا القبر إلى اليبوسيين الذين ذكرتهم التوراة.

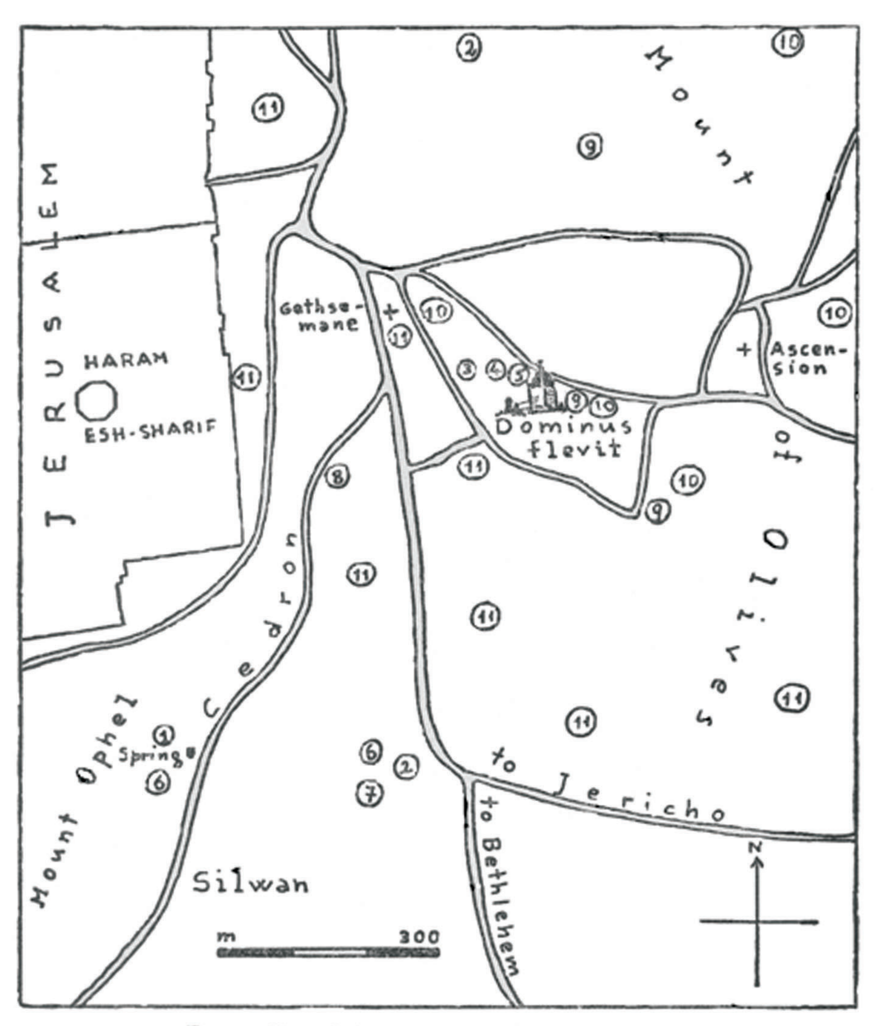
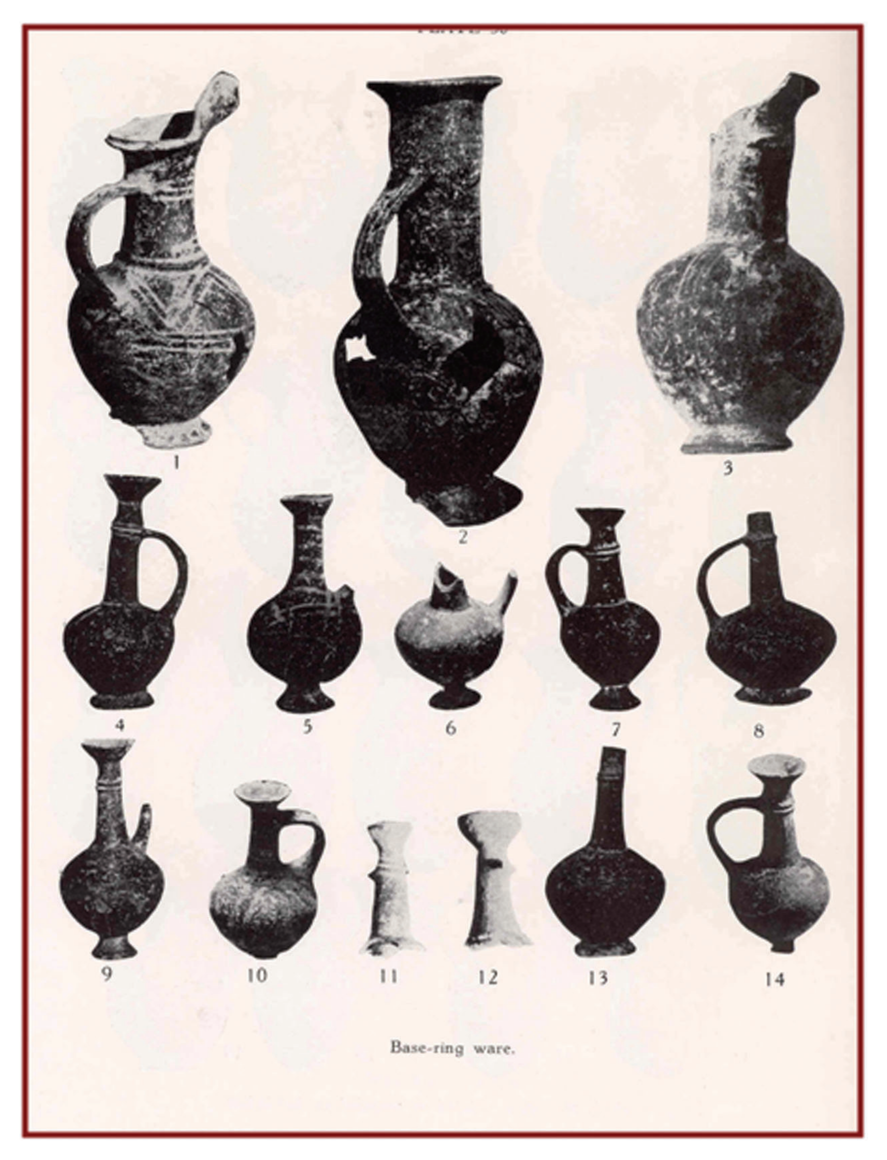


Fig. 1. Plan of the eastern necropolis of Jerusalem:—

1. Early Bronze I (Proto-Urban B).
2. Early to Middle Bronze.
3. Middle Bronze II.
4. Late Bronze I.
5. Late Bronze II.
6. Iron Age II.
7. Persian-Hellenistic.
8. Hellenistic-Roman.
9. Roman.
10. Byzantine.
11. Post-Byzantine.

شكل 54: مخطط يدوي رسم المنقب سلفستر سالر لموقع المدفن اليبوسي (عن: Saller 1964: Fig. 1)



شكل 55: أباريق فخارية مستوردة من مايسينيا وقبرص عُثر عليها في قبر في جبل الزيتون
(عن: Saller 1964:Pl. 30)

وتبين المصادر التاريخية من بلاد الشرق الأدنى القديم، أن تحول جذريًا حصل في حوالي 1200 ق.م.، ليس فقط في النواحي السياسية والاقتصادية في المنطقة، بل تعداه إلى النواحي الديموغرافية. فحصلت هجرات من مختلف المناطق من وإلى بلاد الشام بشكل عام، وفلسطين بشكل خاص. وللأسف، فإن هذه المصادر تصمت كليًا

عن الحديث عن جنوبي بلاد الشام، فاعتمد بعض الباحثين على التوراة فقط عند حديثهم عن الفترة بين حوالي 1200 - 1000 ق. م. وأما بالنسبة للقدس، فيعد بعض الباحثين ما ورد في سفر يشوع (10: 1 - 15) إشارة إلى أن سكانها كانوا أموريين. وتقول القصة إن حربًا اندلعت بين الإسرائيليين بقيادة يشوع وخمسة ملوك أموريين، منهم ملك القدس أدوني صادق، وكلمة صادق، ترد إما صفة أو اسمًا، وظهرت أيضًا في الكتابات الأمورية.

وقد دحض محمود أبو طالب (1988) في مقالة عنوانها: Jerusalem, the Jebusites and David قصة احتلال الملك داود الذي حكم بين عامي 1004 وحتى 965 قبل الميلاد لمدينة أورشليم، ووصفتها التوراة بأنها يبوسية. إذ تذكر الأسفار التوراتية في عدد من المواضع، مثل سفر التكوين 10: 16، و15: 20، كلًا من الاسمين «يبوسي» و «يبوسيين»، وتقول إن اليبوسيين شكلوا قسمًا من سكان المنطقة.

ورأى بعض الباحثين أن اليبوسيين ذُكروا في سجلات تل الحريري، وأنهم كانوا واحدة من القبائل الأمورية. ولهذا افترضوا أن الاسم «يبوسي» وهو في الأصل أموري، أُطلق على القبيلة الأمورية التي سكنت القدس، فأعطت اسمها للمكان أيضًا (Lipinski 2007: 5)). بينما رفض باحثون آخرون هذا الرأي، ورأوا أن كلمة «يبوس» أو «يبوسي»، لم ترد إلا في الأسفار التوراتية، وأن هذا الاسم أُطلق على شخص واحد من سكان القدس فقط، هو «أرونه»، الذي اشترى منه داود البيدر (سفر صموئيل الثاني 24: 16). ويضيفون أن اسم المدينة بقي على الدوام وخلال العصور البرونزية وبداية الحديدية، كما هو ودون تغيير، أورسالم، وأن تغيير الاسم في الأسفار التوراتية إلى يبوس لم يكن إلا لأغراض دعائية (Hübner 2007: 20). ويوافق هذا الرأي محمود أبو طالب الذي يقول «وليس هناك سوى شك يسير في أن اسم المكان، يبوس، إنما هو ابتداع متأخر، ناشئ عن اعتقاد المحررين المتأخرين للعهد القديم بأن الاسم

أورشليم [يروشالايم] اسم مقدس، جاء به العبرانيون أنفسهم. فاشتق المحررون اسم «يبوس» من اسم «اليبوسيين»، القبيلة التي سكنت أورشليم وسادتها قبل احتلال داود لها، وعدوا «يبوس» الاسم الوثني لأورشليم» (أبو طالب 2006أ: 200). ويفضل أبو طالب عدم الخوض في أصل اليبوسيين الإثني طالما أن الشواهد عليهم لا زالت محدودة، وأن أورشليم لم تكن إلا التلة الجنوبية الشرقية، والتي يطلق عليها اسم «الظهوره» وأنها لم تكن مسوَّرة. وعلى أية حال، فإن الحفريات الأثرية التي أُجريت في هذا المكان لم تكشف عن أية آثار تدمير نتيجة لاحتلال، ولا تدل على تغير في طبيعة سكناها وسكانها. وحتى الأسفار التوراتية لم تذكر أن داود قد أفرغ المدينة من سكانها الأصليين بعد احتلاله لها.

خلاصة الأمر، بقيت القدس عامرة بسكانها منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد الذين غلب عليهم الطابع الأموري - الكنعاني، وسكنها أشخاص أو جاليات أخرى، مثل المصريين والحوريين لفترات متقطعة.

فالقدس ليست وليدة العصور الحديثة، ولا حتى العصور التاريخية، لكنها وجدت قبل أن يعرف الناس لأنفسهم نسبًا أو جنسًا، وكان هذا في عصور ما قبل التاريخ. إذن، وجد الإنسان في هذا المكان في زمان لا صراع فيه، شرب الناس من نبع عين أم الدرج، وتجولوا فوق سفوح جبال القدس دون أن يكون لهم مأرب، سوى تأمين لقمة العيش.

وقبل حوالي عشرة آلاف عام عرف الناس الزراعة، واستقروا في قرى ثابتة، فكانت هناك قرية «أبو غوش» التي لا تبعد عن القدس كثيرًا. فسكن في المنطقة المحيطة بالقدس فلاحون لم يُعثر لهم على بقايا داخل المدينة الحديثة. لكنْ، مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد جاءت مجموعة بشرية إلى منطقة سلوان، وأسسوا

قرية، وترك لنا أفرادها بيوتًا ومنازل وأواني فخارية. وبقي الساكنون قرب عين الماء في أرضهم، فبنوا في المرحلة التالية، أي بداية الألف الثاني قبل الميلاد قرية محصنة (على مستوى المدن الكنعانية)، بل نجد أنهم انتشروا فوق منطقة أوسع. ودلت حفريات كاثلين كنيون على أن هذه القرية كبرت، فقالت المنقبة عنها «ربما أصبحت مدينة واسمها أور- شليموم»، في نصوص اللعن المصرية، مما يؤكد زعمنا بأنها أصبحت من بين المدن الكنعانية ذوات الشأن.

وإذا كانت المخلفات الأثرية المكتشفة في القدس، والمؤرخة للفترة الواقعة بين حوالي 1550 - 1200 ق. م. (أي السابقة لمرحلة تأسيس مملكة إسرائيل الفلسطينية)، قليلة ولا تدل على وجود مدينة كنعانية كبيرة، إلا أنه يبدو لنا أن القدس كانت ذات منزلة بين المدن الكنعانية الأخرى، بدليل الرسالة التي بعث بها ملكها عبد- خيبا، إحدى رسائل تل العمارنة المؤرخة لبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد. إضافة لهذا، عُثر على قبر غني بموجوداته (بعضها مستورد من بلاد اليونان)، مما يؤشر على أن صاحبه كان ذا شأن.

ونتساءل: مَن سكن القدس قبل أن يتخذها داود عاصمة له؟ القدس جزء من بلاد الشام، ولا تخرج عن كونها إحدى المدن الكنعانية- الأمورية التي سيطرت على جميع البلاد خلال العصور البرونزية. ومن المعلوم أن طبيعة بلاد الشام السياسية تشكلت من مدن وقرى كنعانية متناحرة، انتشرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط وفوق المرتفعات الجبلية، وأما في البوادي الشامية، أي شرقي بلاد الشام، فكانت هناك القبائل الأمورية المهاجرة من الجزيرة العربية. وإذا أخذنا بما ورد في النصوص التوراتية بخصوص من كان في القدس، فهي لا تنكر وجود اليبوسيين، وأنهم من أبناء المنطقة المحليين.

وخلال نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حصل تغير شامل في بلاد الشرق الأدنى القديم (وادي النيل، وبلاد الرافدين ، وبلاد الأناضول) حيث سقطت الإمبراطوريات الكبيرة، مما أتاح الفرصة لظهور مجموعة من الممالك والمشيخات. وإضافة للمالك الآرامية، كان هناك الفينيقيون، والعمونيون، والمؤابيون، والأدوميون، والإسرائيليون. وهم جميعًا من أبناء البلاد، وليسوا دخلاء عليها. وبرأينا، فإن دولة اسرائيل الأولى، هي دولة أسسها قسم من السكان المحليين، الذين آمنوا برسالة موسى عليه السلام بعد خروجه مع رهط قليل من أهله وأتباعه من مصر ودخولهم سلميًا إلى فلسطين، وهم في الأصل في من أهل البلاد المحليين (كفافي 2019). وبمرور الأيام، استقطب هؤلاء بعض سكان فلسطين للديانة الموسوية، فأصبحوا على مر الأيام أصحاب شأن، واستطاعوا مقارعة المدن الكنعانية الفلسطينية، وشعوب البحر (قبيلة البلست) الذين استقروا في منطقة غزة وعسقلان. وبعد إحساسهم بالخطر الذي يهددهم من الدول المحيطة بفلسطين، خاصة بعد قيام الدول الآرامية، قرروا جمع شمل قبائلهم اليهودية الديانة في المنطقة تحت إمرة الملك شاؤول. لكنَّ هذا لم يحكم طويلًا، إذ تبعه الملك داود الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل الموحدة، ومن ثم تبعه ابنه سليمان. واستطاع هؤلاء الفلسطينيون اليهود أن يؤسسوا دولة قوية لم تعمر أكثر من سبعين عامًا، انقسمت بعدها إلى دولتين، وذُكر بعض ملوكهما، والأحداث التي مرت عليهما في السجلات التاريخية المهمة، مثل النصوص الآشورية ومسلة الملك المؤابي ميشع.

ونحن هنا لا نرى أي رابط يربط العبرانيين بالإسرائيليين الأوائل، وصهاينة هذه الأيام. فالأوائل هم أبناء هذه المنطقة من سلالة النبي إبراهيم (عليه السلام)، آمن بعض منهم لاحقًا برسالة موسى عليه السلام، ولا اختلاف بيننا وبينهم إلا في الديانة (علمًا أنها سماوية أيضًا). أما صهاينة العصر الحديث، فلا يجمعهم سوى

العقيدة الدينية، فهم من اعراق وأجناس متعددة، لم يضمهم مكان واحد في يوم من الأيام، ولا يربطنا بهم أي رابط. وعليه، فإن ما أوردناه من معلومات في هذا الكتاب ينبغي أن لا يُربط بأي حال من الأحوال بدولة إسرائيل العنصرية الصهيونية الحديثة، وإنما يجب أن يعد حلقة من حلقات تاريخ بلادنا العربية، وللعرب فيه إن لم يكن كل الحصة، فلهم السهم الأكبر.

وقبل أن نختم الحديث في هذا الكتاب وجدنا أنه من اللازم أن نبين الملاحظات الآتية:

1. تعرضت القدس الشريف لعدد من المسوحات والحفريات الأثرية ابتداء من القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر، لكنها لم تشهد أية حفرية عربية سوى واحدة عرضية قام بها ديمتري برامكي. كما أن الحفريات الإسرائيلية نشطت بشكل مكثف، خاصة بعد احتلال القدس كاملة في عام 1967م. من هنا، وجدنا المؤلفين الأجانب والعرب يتكؤون في كتابة أبحاثهم على ما نشره المنقبون الإسرائيليون ومناصروهم. فأصبحنا نردد أفكارهم دون وعي أو تمحيص لما يكتبون.

2. اعتمد الآثاريون التوراتيون، خاصة مجموعة كبيرة من الإسرائيليين، النص التوراتي في تفسير الآثار المكتشفة. بل أنهم افترضوا وجودها، وحددوا أماكنها دون العثور عليها، كذلك لا يوجد أي نص تاريخي مكتوب ينص على أن أورشليم كانت عاصمة سياسية لداود وسليمان ومملكة يهوذا.

3. لا ننكر أن بعضًا من الباحثين الاسرائيليين، من أمثال إسرائيل فنكلشتاين، ينادون بعدم الاعتماد كليًا على المعلومات الواردة في التوراة. لكننا نرى أن هؤلاء لم يخرجوا من تحت العباءة الصهيونية، ولو كانوا غير ذلك لما تُركوا حتى الآن يدرسون في الجامعات والمعاهد الإسرائيلية.

4. اهتم الباحثون الغربيون والإسرائيليون في دراساتهم وأبحاثهم عن القدس بالفترات التي تظهر وجود اليهود بشكل أكبر من غيرهم من المجتمعات الأخرى في أورشليم، وهي الحديدي الثاني، والفارسي والهلنستي، والرومي. وخلال الحديث عن أورشليم في هذه الفترات، لا يكاد يُذكر وجود أية مجموعات دينية أخرى في المدينة غير اليهود.

5. عند الحديث عن أورشليم في الفترات الهلنستية والرومية وجدنا أن المعلومات المنشورة في التقارير والأبحاث التي تناقش هاتين الفترتين تعتمد اعتمادًا كليًا على النصوص التوراتية وما كتبه جوزيفوس، ومن المعلوم أن كلا المصدرين متحيز لليهودية في الحديث عن الفترة من 332 قبل الميلاد وحتى 324م.

6. من عجائب الصدف أننا عندما حاولنا أن نعزز الحديث عن فترات العصور الكلاسيكية بالصور، وبعد البحث بتقارير الحفريات الأثرية، لم نجد سوى مخططات مرسومة بالاستناد إلى المعلومات الواردة بالتوراة وعند جوزيفوس، وهي متخيلة أكثر منها حقيقية.

7. نؤكد أن أكثر المعلومات المنشورة عن تاريخ القدس قبل الإسلام بحاجة إلى مزيد من الدراسة والتمحيص والتفحص، قبل أن ننقلها إلى القرَّاء العرب، خشية أن نصور لأبناء جلدتنا تاريخ القدس يهودي الطابع دون علم منا أو قصد.

لقد اهتمت الدول العربية اهتماماً كبيراً بمدينة القدس على أساس مسرى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها مقدسة لدى جميع أبناء الديانات السماوية الثلاث وقرروا أن يكون عام 2009م عام مدينة القدس... أي أن تكون عاصمة العالم العربي الثقافية لهذا العام. وتنادى الناس من المحيط إلى الخليج لعقد المؤتمرات والندوات لتبيان أهمية القدس....بل والأهم من هذا، فقد كان الهدف الأساس في كل

هـذه المؤتمـرات كيفيـة إثبـات، بـل وإقنـاع العالـم بـأن القـدس هـي مدينـة عربيـة... وأن يقـوم هـذا الإثبـات على أسـس علميـة، ودون تحيـز مـن طـرف العـرب. يـا ربـاه، وهـل الثابت في حاجة لإثبات....!!! نعـم يا سـادة....فإن إسـرائيل الصهيونيـة المعاصـرة قامت على حجة واهيـة، بـل على خبر تـوراتي مفـاده أن إلههـم منحهـم أرض فلسـطين...وكان مـن نصيـب كاتـب هـذا المقـال أن شـارك في ثلاثـة مؤتمـرات (عمَّـان، والكويـت، ودمشـق)، وللشـهادة فـإن جميعهـا جاء على سـوية علمية عاليـة، وكلفـت منظميهـا الكثيـر مـن الجهـد والمال....وللإنصـاف ليس بالإمكان أحسـن مما كان... بـل وشـارك في بعضهـا عـدد مـن الباحثيـن الأجانـب. وخلصـت هـذه المؤتمـرات، بـل أشـار المشـاركون فيهـا بالبنـان، إلى أن القصـص التوراتيـة لا تدعـم القـول بوجـود مملكـة إسـرائيل الفلسـطينية (مملكـة داود وسـليمان) ... مـن هنـا نقـدم الشـكر لجميـع مـن رفعـوا عقيـرة القـدس عاليـة علـى مـدى العقـود الفائتـة.

وانتهـى عـام 2009م، عـام القـدس عاصمـة الثقافـة العربيـة ... لكـنْ مـاذا بعـد؟ ومـا هي النتيجة والإفـادة التي خرجنا بها من كل هـذه المؤتمرات؟ وحتى لا يبقى الأمر حبيـس الصـدر، وجـد كاتـب هـذا الكتـاب ضـرورة مشـاركة مـن يهمهـم الأمـر مجموعـة الأفكار التي خلص إليها نتيجة مشـاركاته المباشـرة وغير المباشـرة في فعاليات القـدس.

في المقـام الأول، أجمـع العـرب وغيـر العـرب على أن للقـدس أهميـة لـدى أبنـاء الديانـات السـماوية الثـلاث، وأنـه مـن الضـرورة بمكان المحافظـة على طابعهـا الشـرقي، وحمايـة جميـع الممتلـكات الدينيـة والتراثيـة التـي تخـص جميـع أبنـاء هـذه الديانـات... وبالمناسبة فـإن الكاتـب يـرى أن هـذه المسـؤولية يجـب أن تكـون مسـؤولية دوليـة عالميـة، ومـن واجـب جميـع المؤسسـات والمنظمـات الدوليـة القيـام بهـا. لكننـا نـرى أن هـذه المؤسسـات تقـف عاجـزة أمـام القـوة الصهيونيـة، لدرجـة أنهـا لا تسـتطيع أن تدير لسـانها، بـل أنهـا لا تجـد مـداداً تكتـب بـه حيـن يمـس الأمـر ليـس فقـط الممتلـكات الدينيـة والتراثيـة

في القـدس، بـل وفي فلسـطين جمعـاء، وخيـر مثـال علـى هـذا مـا جـرى حيـن حـرق جامـع بلـدة ياسـوف في محافظـة نابلـس قبـل سـنوات. وللمقارنـة، يحضـرني وأنـا أكتـب هـذه السـطور مـا حصـل في أفغانسـتان، حيـن أقدمـت حركـة طالبـان، دون وجه حق، علـى تدمير تماثيـل بـوذا قـام العالـم أجمـع وعلـى رجـل واحـدة ، وقامـت الدنيـا ولـم تقعـد. بـل قرأنـا، وسـمعنا، وشـاهدنا علـى شاشـات التلفـاز وفـود المنظمـات والمؤسسـات الدوليـة، مثـل اليونيسـكو، تـزور مـكان التماثيـل، وصرنـا نـرى صـورًا لهـذه التماثيـل كل يـوم. ويتسـاءل المـرء هنـا، لمـاذا تقـف المؤسسـات الدوليـة عاجـزة عـن اتخـاذ القـرارات والإجـراءآت المناسـبة واللازمـة لحمايـة المبـاني الدينيـة والتراثيـة في فلسـطين؟ والإجابـة معروفـة: لا حـول ولا قـوة لهـا أمـام القـوة الإعلاميـة الصهيونيـة، ومـن يفغـر فاهـه بكلمـة يُدمـغ علـى الفـور بأنـه معـادٍ للسـامية. فمؤتمـرات القـدس جميعهـا خاطبـت المؤسسـات الدوليـة للقيـام بواجبهـا، لكـن هـل وصـل النـداء؟ بـل وإن وصـل، هـل هـو مسـموع؟ وهنـا يتبـدى لنـا الضعـف العربـي الناتـج عـن تشـتت الجهـد، وعـدم الوقـوف صفًـا واحـدًا.

وأود التنبيـه إلـى أمـر أرى أنـه مهـم جـدًا، وقـد فـات منظمـي مؤتمـرات القـدس عاصمـة الثقافـة العربيـة، وهـو عـدم دعوتهـم لبعـض المؤسسـات والهيئـات الدوليـة كـي تكـون شـريكة في القـرارات والتوصيـات التـي توصـل إليهـا المؤتمـرون. فالشـريك في أيـة توصيـة أو قـرار يدافـع عنـه، ومـن واجبـه تنفيـذه. ألـم يكـن مـن الحـري أن نضـع هـذه المؤسسـات أمـام مسؤوليتها في الحفـاظ علـى الـتراث الثقـافي، وفي منـع إجـراء أيـة حفريـات في المواقـع الأثريـة خـلال فـترة احتلالهـا. ألـم تقـم اسـرائيل بإجـراء مئـات مـن الحفريـات الأثريـة في كل بقعـة مـن بقـاع القـدس والمناطـق المحيطـة بهـا. ولكـنْ، للأسـف، لـم نسـمع أي صـوت عـال لهـذه المؤسسـات الدوليـة، لا يسـتنكر مـا تقـوم بـه إسـرائيل مـن تهديـم وبنـاء في المدينـة المقدسـة وحسـب، بـل يسـتصدر قـرارًا بسـيطًا ينـص علـى أن إسـرائيل تضـرب بعـرض الحائـط كل المواثيـق والأعـراف الدوليـة.

وبما أن الشيء بالشيء يُذكر، فإن هذا يذكرني بعلماء غربيين، من أمثال توماس طومسون، وكيث وايتلام، وفيليب ديفيس، وبباحثين إسرائيليين، مثل إسرائيل فنكلشتاين، الذين أُطلق عليهم اسم «minimalists» أو «revisionists» وترجمها بعض الباحثين العرب باسم «الراديكاليون» أو «التفكيكيون»، واقترحتُ في مؤتمر تاريخ القدس الذي عُقد بدمشق أن يسمى هؤلاء «العقلانيون» (وأسميتهم أعلاه «المقلّون») ومن المعروف أن مركز هؤلاء في «كوبنهاغن»، ولذا يسمون أتباع مدرسة كوبنهاغن. وينادي هؤلاء بأن لا تُعدَّ الأسفار التوراتية مصدرًا أساسيًا في الدراسات التاريخية والأثرية، بل يمكن الرجوع إليها في حالات قليلة جدًا، وعند الضرورة، عند البحث والدراسة في أحوال مملكة إسرائيل الفلسطينية وأخبارها. وشارك بعضهم في مؤتمرات القدس، وعبروا عن آرائهم دون هوى أو تحيز.

فإذا كان هذا رأي بعض الباحثين الغربيين العقلانيين، فما هو رأي الباحثين العرب بعروبة القدس؟ وهنا أقف لألخص ما سمعت على النحو الآتي:

- حاول بعضهم (ومنهم كاتب هذه السطور) واستنادًا إلى نتائج الحفريات الأثرية والنصوص التاريخية، إثبات أن القدس، بغض النظر عن هويتها العرقية، تأسست نهاية الألف الرابع على شكل قرية، ولم تصل لمستوى المدينة إلا في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وغلب على سكانها في تلك الفترة العرق الكنعاني والأموري. وبهذا يكون عمر القدس حوالي خمسة آلاف عام.

- رأى آخرون أن القدس عربية الأصل، وبهذا لم يخرجوا عن النغمة التي تعودنا سماعها منذ أن سقطت القدس بيد الصهاينة.

ونود أن ننوه هنا بأنه لم تجر أية حفرية عربية خالصة في القدس، وإنما قام على جميع التنقيبات فيها منقبون أصحاب هوى توراتي، تحولوا إلى منقبين صهاينة

بعد سقوط القسم الشرقي من المدينة بيدهم عام 1967م. والأخطر من إجراء الحفريات الأثرية، هو التفسيرات التي يقدمها المنقبون للمكتشفات الأثرية.

وقفت مشدوهًا وأنا أستمع إلى حديث كثير من الأصدقاء والزملاء عن مدينة القدس دون تحديد للبقعة الجغرافية التي يتحدثون عنها. ونبه بعض من المتحدثين في الندوة الدولية «القدس في التاريخ» التي عقدتها المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية بدمشق عام 2009، وعلى رأسهم الدكتور عزمي بشارة، الذي أشار بحديثة في حفل افتتاح المؤتمر الدولي بدمشق، يوم 15/ 12/ 2009م إلى أن قدس ما قبل عام 1967م لم تعد موجودة، بل إن إسرائيل خلقت على الأرض قدسًا جديدة، واسعة الأطراف، تضم فوق أرضها ما يقرب من حوالي 750.000 ألف نسمة، وما زالت تنتظر المزيد من المهاجرين اليهود ليسكنوا فوقها. أما قدس ما قبل عام 1967م فهي مقطعة الأوصال، بل أنها عُزلت عن محيطها بالجدار الذي بنته إسرائيل. والأخطر من بناء الجدار كحاجز بين الناس، هو أنه فصل القدس القديمة عن القرى المحيطة بها. ومن المعلوم، وكما تقول الكتب والمراجع القديمة، فإن القدس كانت تعتمد في كثير من وسائل الحياة على القرى المحيطة بها. لكنها وبعد بناء الجدار، أخذت تسبح في فلك لوحدها، لا يعلم نهايته إلا الله سبحانه وتعالى.

وما زلنا نهتف «القدس عربية... الطابع...». تخرج الكلمات مختزلة من فم من يعيش على أرض القدس، وتندفع الأحرف مرتعشة ومستغيثة... أين أنتم يا عرب؟ ... قدسكم تنازع سكرات الموت... وعلى أرض فلسطين التاريخية ثلاث دول (سلطة لا سلطة لها، ودويلة غير شرعية، وإسرائيل صهيونية قوية). فأصبح الأصل هو الضد، والضد المحتل هو الأصل... وازداد اعوجاج نهر الأردن استنكارًا لنا ... وما يزال فينا رجاء...

وقفت على كلمات نشرها أهل مدرسة كوبنهاغن العقلانيون، ومنهم إسرائيل فنكلشتاين عالم الآثار الاسرائيلي الذي لا يزال على رأس عمله في جامعة تل أبيب، وينقب عن موقع تل المتسلم «مجدو» الذي يُعدُّ من أهم المواقع الأثرية في فلسطين، وتُعدُّ نتائج الحفريات التي أجريت فيه النبراس لكل الباحثين التوراتيين والداعمين للمؤسسة الصهيونية في إسرائيل. تأملت الكتب والأبحاث التي نشرها فنكلشتاين وأنكر فيها وجود مملكة داود وسليمان... وسألت نفسي سؤالًا، أسمح لنفسي أن أعيد طرحه عليكم: لماذا لا يزال مثل هذا العالم الإسرائيلي على رأس عمله، ويُسمح له بإجراء تنقيبات أثرية في أهم المواقع، في حين أنه ينكر الكلام التوراتي والذي أعطى إسرائيل الصهيونية الحق التاريخي؟

وإذا ما زلتم لم تتوصلوا للإجابة، فقد أجاب عليها توماس طومسون على النحو الآتي: أن إسرائيل أصبحت قوية عسكريًا بما فيه الكفاية، لذا لم تعد بحاجة للأسفار التوراتية لكي تصدر لنفسها هوية تاريخية. وبهذا، فإنني أرى أن لا نزعج أنفسنا، أي العرب، كثيرًا بدراسة النصوص التوراتية ومحاولة الرد عليها... بل أن نبحث عن وسائل أخرى، مثل إنشاء مركز لدراسات القدس يقدم معلومات مهمة عن أهلها ومكنوناتها حتى تحفظها ذاكرة الزمن للأجيال القادمة. ولا بد من ذكر جهود سمو الأمير الحسن بن طلال في إنشاء مركز لدراسات القدس يحمل اسمه ويديره الدكتور محمد غوشه... لأن هذا الزمان ليس الزمان العسكري العربي... وقد تكون ذاكرة الشعوب هي الدواء الشافي. انقضى عام القدس، وما زال الحال هو الحال، ولكننا نقول كما يقول غيرنا إنه في نهاية كل نفق مظلم بصيص من الضوء... لكنني لا أستطيع أن أجزم، أو حتى أعرف، ما طول هذا النفق. جميل أن التقى الحشد العربي الكلامي دعمًا للقدس، لكننا ما زلنا نأمل أن يمدنا الله بمدد ومداد يكون عونًا لنا في تحرير هذه البقعة الغالية.

خاتمة القول، أثبتت نتائج الحفريات الأثرية، كما دلت النصوص والوثائق التاريخية المكتوبة على أن مدينة القدس، لم تخرج عن كونها إحدى المدن الكنعانية الفلسطينية، أسسها وحكمها أمراء وملوك محليون، اتبعوا ديانات، وملل، ونحل اختلفت عبر العصور، كما تعرضت القدس للاحتلال والتحرير أكثر من مرة. لكننا نعزي أنفسنا بالقول، أنه وفي نهاية كل نفق مظلم بصيص من النور.....

والله من وراء القصد

المراجع:

1. المراجع العربية:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد 1993. مترجم من اللغات الأصلية وهي اللغة العبرية واللغة الكلدانية واللغة اليونانية. بيروت: دار الكتاب المقدس (جمعية الكتاب المقدس سابقًا).
- إبراهيم، معاوية 2010؛ دراسات في آثار فلسطين. عمَّان: جامعة فيلادلفيا.
- أبو طالب، محمود 2006أ؛ القدس واليبوسيون وداود. الصفحات 195 - 223 في من السلط إلى القدس، أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم. ترجمة الأصول الإنجليزية عمر الغول، تحرير عمر الغول وعفاف زيادة. عمَّان: المقتبس.
- أبو طالب، محمود 2006ب؛ تاريخ إحتلال اسرائيل التوراتية والمستشرقون. احتلال أرض كنعان مثالًا. الصفحات 145 - 171 في من السلط إلى القدس، أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم. ترجمة الأصول الإنجليزية عمر الغول، تحرير عمر الغول وعفاف زيادة. عمَّان: المقتبس.
- بغدادي، رشاد محمود 1996؛ حول الأرض المقدسة عند اليهود. الإسكندرية: دار المعرفة.
- تومبسون، توماس.ل. 2003؛ السلام والتطهير الإثني لأورشليم. الصفحات 307 - 329 في توماس، ل. تومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي (محررون)، وفراس السواح (مترجم)، القدس.أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- جرار، مصطفى راشد 2018؛ مناخ فلسطين. عمَّان: دار الشروق.
- حتي، فيليب 1982؛ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين.ج1. ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق. بيروت: دار الثقافة.
- الدباغ، مصطفى مراد 2018؛ بلادنا فلسطين الجزء العاشر، بيت المقدس (1). تقديم وليد الخالدي. بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- سعادة، خليل (مترجم) د.ت.؛ إنجيل برنابا. تقديم الشيخ محمد رشيد رضا. القاهرة: المكتبة التوفيقية، أمام الباب الأخضر- سيدنا الحسين.

- سلبرمن، نيل 2001؛ بحثًا عن إله ووطن، صراع الغرب على فلسطين وآثارها 1799 – 1917م. ترجمة فاضل جتكر. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع.
- السواح، فراس 2001؛ تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود. دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.
- السواح، فراس 2003؛ أورشليم في عصر مملكة يهوذا. الصفحات 167 – 209 في كتاب «القدس: أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ»، تحرير توماس طومبسون وسلمى الخضراء الجيوسي، ترجمة فراس السواح. بيروت: مركز الوحدة العربية.
- السومي، لطفي ٢٠١٨؛ التوراة في مواجهة علم الاثار والدراسات التوراتية. القاهرة: مكتبة مدبولي.
- شتاينر، مارغريت 2006؛ القدس في العصر الحديدي 1200 - 700 ق.م. ترجمة رزق الله بطرس وزياد منى. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع.
- العارف، عارف 2005؛ المفصَّل في تاريخ القدس. الطبعة الثالثة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عبدالسلام، عادل 2011؛ الأرضية الجغرافية لمدينة القدس. الصفحات 11 – 17 في الندوة الدولية: القدس في التاريخ 2009 - 2010. دمشق المديرية العامة للآثار والمتاحف.
- العسلي، كامل جميل (مترجم ومحرر) 2009؛ القدس في التاريخ. سلسلة إصدارات احتفالية الأردن بالقدس عاصمة الثقافة العربية. عمَّان: وزارة الثقافة.
- عيَّاد، محمد كامل 1980؛ تاريخ اليونان، الجزء الأول. الطبعة الثالثة. دمشق: دار الفكر.
- الغول، عمر 2016؛ مصطلحا «كنعان» و «الكنعانيين» في الميزان التاريخي. الحنُّونة 7: 11–16.
- الغول، عمر 2017؛ القدس في الحقبة الهلنستية (332 - 63 قبل الميلاد). الصفحات (41 - 49) في محمد عدنان البخيت وحسين محمد القهواتي (محررون)، تاريخ مدينة القدس عبر العصور. منذ الألف الرابع قبل الميلاد إلى الوقت الحاضر. عمَّان: الجامعة الأردنية.
- طوقان، فواز أحمد 1971؛ مسلة مشيع ملك مؤآب. حولية دائرة الآثار العامة الأردنية 15: 19 – 53.
- طومبسون، توماس 1999؛ هل يمكن كتابة تاريخ لأورشليم وفلسطين؟ الصفحات 23– 42 في كتاب القدس أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ. توماس طومبسون وسلمى

الخضراء الجيوسي (محررون)، فراس السواح (مترجم) عن كتاب Jerusalem in Ancient History and Tradition. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

- القبيسي، بهجت 2017؛ القدس في الآثار والكتابات (المصرية والأكادية والكنعانية والآرامية) وتفنيد المزاعم الصهيونية. (كنا نرى أورشليم من القدس) «يوسيفيوس اليهودي». دمشق: مؤسسة القدس الدولية (سورية).

- كفافي، زيدان 2004؛ المدخل إلى علم الآثار. إربد: حماده للتوزيع والنشر.

- كفافي، زيدان 2005، القدس في الألف الثاني قبل الميلاد. الصفحات 335 – 343 في يوسف محمد عبدالله وآخرون (محررون)، صنعاء الحضارة والتاريخ، المجلد الأول. صنعاء: جامعة صنعاء.

- كفافي، زيدان 2011؛ بلاد الشام في العصور القديمة. من عصور ما قبل التاريخ حتى الإسكندر المقدوني. عمَّان: دار الشروق للنشر والتوزيع.

- كنيون، كاثلين م. 1990؛ الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة. تعريب شوقي شعث وسليم زيد. دمشق: دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع.

- محاسنة، محمد حسين 2004؛ حقيقة القدس. عمَّان: منشورات أمانة عمَّان الكبرى.

- نجاجرة، غسان سعيد 2012؛ طبيعة وأنماط الاستيطان في المرتفعات الجبلية الفلسطينية في العصر الحديدي الأول 1200 – 1000 قبل الميلاد. رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لاستكمال الحصول على درجة الماجستير من قسم الآثار، جامعة اليرموك.

- وايتلام، كيث؛ طمسن، توماس؛ لمكه، نيلز؛ هيلم، إنغريد؛ ومنى زياد 2004؛ الجديد في تاريخ فلسطين القديمة. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع.

- ولكنسون، جون 2009؛ القدس تحت حكم روما وبيزنطة. الصفحات 93 - 129 في كامل العسلي (محرر) القدس في التاريخ. سلسلة اصدارات احتفالية الأردن بالقدس عاصمة الثقافة العربية. عمان: وزارة الثقافة.

- يوسف، فرج الله أحمد 2008؛ التنقيبات الصهيونية في القدس 1968 – 2007. الرياض: دار القوافل للنشر والتوزيع.

2. المراجع الأجنبية:

- Abu el-Haj, N. 2001; **Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society**. Chicago.
- Abu Taleb, M. 1988; Jerusalem, the Jebusites and David. **Dirasat** Vol. 15/7: 47 - 70.
- Aharoni, Y. 1968; **The Land of the Bible: A Historical Geography.** London: Burns and Oates.
- Aharoni, Y. 1976; Nothing Early and Nothing Late: Re-Writing Israel's Conquest. **Biblical Archaeologist** 39/2: 55-76.
- Aharoni, Y. 1979; **The Land of the Bible: A Historical Geography. Revised and Enlarged.** Translated by A. F. Rainey. Philadelphia: Westminister.
- Ahlström, G.W. 1980; Was David a Jebusite Subject? **Zeitschrift für alttestamentliche Wissenschaft** 92: 285-287
- Ahlström, G.W. 1993; The History of Ancient Palestine from the Palaeolithic Period to Alexander's Conquest. **Journal for the Study of the Old Testament. Supplement Series** 146. Sheffield: Sheffield Academic.
- Albright, W. F. 1928; The Egyptian Empire in Asia in the Twenty-first Century BC. **Journal of the Palestine Oriental Society** III: 247 – 248.
- Albright, W.F. 1933; The Excavation of Tell Beit Mirsim, IA. The Bronze Age Pottery of the Fourth Campaign. **Annual of the American Schools of Oriental Research** 13: 55- 127. Baltimore: Furst.

- Albright, W. F. 1935; Archaeology and the Date of the Hebrew Conquest of Palestine. **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 58: 10-18.

- Albright, W.F. 1938; The Excavation of Tell Beit Mirsim, II. The Bronze Age. **Annual of the American Schools of Oriental Research** 17. New Haven.

- Albright, W.F. 1939; The Israelite Conquest of Canaan in the Light of Archaeology. **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 74: 11-23.

- Albright, W. F: 1940; **From the Stone Age to the Christianity: Monotheism and the Historical Process.** Baltimore: Johns Hopkins Press.

- Albright, W.F. 1943; The Excavation of Tell Beit Mirsim, III: The Iron Age. **Annual of the American Schools of Oriental Research** 21-23. New Haven.

- Albright, W.F. 1963; **The Biblical Period from Abraham to Ezra.** New York: Harper and Row.
- Albright, W. F. 1966; The Amarna Letters from Palestine, Syria, the Philistine and Phoenicia. Extrait of the **Cambridge Ancient History**, **Revised Edition, Volume II, Chapters XX-XXIII**. Cambridge: Cambridge University Press.
- Albright, W. F. 1969; Akkadian Letters. Pp. 482- 490 in J. B. Pritchard (ed.), **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament**. 3rd Edition, with Supplement. Princeton: Princeton University.

- Albright, W.F. 1971; **Archaeology of Palestine.** Gloucester, Mass.: Peter Smith.
- Alt, Albrecht 1925; **Die Landnahme der Israeliten in Palästina**. Leipzig: Druckrei der Wrkgemeinschaft.
- Amiran, R. and Bitan, H. 1976; P. 54 in Y. Yadin (ed.), **Jerusalem Revealed: Archaeology in the Holy City, 1968-1974.** Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Ariel, D.T. (ed.)1990; Excavations at the City of David, 1978-1985, II. Imported Stamped Amphora Handles, Coins, Worked Bone and Ivory, Glass. **Qedem 30.** Jerusalem: Institute of Archaeology, Hebrew University of Jerusalem.
- Ariel, D.T. and de Groot, A. 1996; Excavations at the City of David, 1978–1985, IV. Various Reports. **Qedem 35.** Jerusalem: Institute of Archaeology, Hebrew University of Jerusalem.
- Armstrong, K. 1997; **Jerusalem. One City, Three Faiths.** New York: Ballantine Books.
- Astour, M.C. 1965; The Origins of the Terms "Canaan", "Phoenician" and "Purple". **Journal of the Near Eastern Studies** 24: 346-350.
- Athas, G. 2003; The Tel Dan Inscription: A Reappraisal and a New Interpretation. **Journal for the Study of the Old Testament Supp.** 360; CIS 12. Sheffield: Sheffield Academic Press.
- Auld, G. and Steiner, M. 1996; **Jerusalem I. From the Bronze Age to the Maccabees. Cities of the Biblical World**. Cambridge: The Lutterworth press.

- Avigad, N. 1953; The Epitaph of a Royal Steward from Siloam Village. **Israel Exploration Journal** 3/3: 137 – 152.
- Avigad, N. 1955; The Second Tomb-Inscription of the Royal Steward. **Israel Exploration Journal** 5/4: 163 – 166.
- Avigad, N. 1980; **Discovering Jerusalem**. New York: Thomas Nelson.
- Avigad, N. 1983; **Discovering Jerusalem.** New York: Thomas Nelson.
- Bahat, D. 1976; Pp. 55 - 56 in Y. Yadin (ed.), **Jerusalem Revealed: Archaeology in the Holy City, 1968-1974.** Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Barkay, G. 1996; A Late Bronze Age Egyptian Temple in Jerusalem? **Israel Exploration Journal** 46: 23-43.
- Bieberstein, K. 2007; **Aelia Capitolina**. Pp. 134- 168 in Zeidan Kafafi and Robert Schick (eds.), Jerusalem Before Islam. **British Archaeological Reports International Series** 1699. Oxford: Archaeopress.
- Bieberstein, K. and Blödhorn, H. 1994; **Jerusalem. Grundzüge der Baugeschichte vom Chalkolithikum bis zur Frühzeit der osmanischen Herrschaft**. Bände I- III. Beihefte zum Tübinger Atlas der Vorderen Orients. Reihe B (Geistwissenschaftlischen) Nr. 1001. Wiesbaden: Dr. Ludwig Reichert Verlag.
- Biran, A. 1994; **Biblical Dan**. Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Biran, A. and Naveh, J. 1993; An Aramic Stele Fragment from Tel Dan. Israel Exploration Journal 43/2-3: 81-98.
- Biran, A. and Naveh, J. 1995; The Tel Dan Inscription: A New Fragment. **Israel Exploration Journal** 45/1: 3: 18.

- Bliss, F. and Dickie, A.C. 1898; **Excavations at Jerusalem**. London.
- Bordreuil, P. 2001; A propos de l'inscription de Mesha': deux notes. Pp. 158-167 in P.M. Michele Daviau, J.W. Wevers and M. Weigl (eds.),**The World of the Aramaeans III**. Sheffield, England: Sheffield Academic Press.
- Callaway, J. 1993; "Ai". Pp. 39-45 in E. Stern (ed.), **The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.** Simon and Schuster.
- Danin, A. 2003; Man and the Natural Environment. Pp. 24-37 in Th. E. Levy (ed.), **The Archaeology of Society in the Holy Land, 3rd Edition.** New York: Facts of File.
- Davies, D. 2011; The Holy City in an "Empty Land". Pp. 15 -18 in the **Proceeding of the International Colloquium al-Quds in History**. On the Occasion of al-Quds the Arab Capital of Culture 2009. Damascus: Ministry of Culture.
- Davies, Ph.R. 1994; 'House of David' Built on Sand: The Sins of the Biblical Maximizers. **Biblical_Archaeology_Review** 20/4.
- Dearman, A. (ed.) 1989; **Studies in the Mesha Inscription and Moab**. Atlanta: Scholars Press.
- De Groot, A. and Ariel, D.T. 1992; Excavations at the City of David, 1978–1985, III. Stratigraphical, Environmental, and Other Reports. **Qedem 33.** Jerusalem. Institute of Archaeology, Hebrew University of Jerusalem.
- De Saulcy. F. 1882; **Jérusalem**. Paris.
- De Saulcy, M. L. 1859; Dictionnaire des Antiquités Biblique, in **Troisième et Dernière Encyclopédia Théologique**, XLV: cols. 405 – 409.

- Dever, W. 1993; Cultural Continuity, Ethnicity, in the Archaeological Record and the Question of the Israelite Origins. **Eretz Israel** 24-: 22-23.

- Dever, W. 1995; Ceramics, Ethnicity and the Question of the Israel's Origin. **Biblical Archaeologists** 58: 200-213.

- Dever, W. 1996; **The Oxford Encyclopedia of Archaeology** 2: 396-401.

- Dothan, T. and Dothan, M. 1992; **People of the Sea. The Search for the Philistine.** New York: Macmillan Publishing Company.

- Feige, M. 2007; Recovering Authenticity: West Bank Settlers and the Second Stage of National Archaeology. Pp. 277- 298 in P.L. Kohl, M.Finkelstein, I. 1988; **The Archaeology of the Israelite Settlement.** Jerusalem: Israel Exploration Society.

- Finkelstein, I. 1991; The Central Hill Country in the Intermediate Bronze Age. *Israel Exploration Journal* 41: 19 – 45.

- Finkelstein, I. 1992; Pastoralism in the Highlands of Canaan in the Third and Second Millennia B.C.E. Pp. 133- 142 in O. Bar-Yosef and A. Khazanov (eds.), **Pastoralism in the Levant: Archaeological Materials in Anthropological Perspectives.** Madison, Wisconsin: Prehistory.

- Finkelstein, I. 1994; The Emergence of Israel: A Phase in the Cyclic History of Canaan in the Third and Second Millennia B.C.E. pp. 150-178 in I. Finkelstein and N. Na'aman (eds.), **From Nomadism to Monarchy: Archaeological and Historical Aspects of Early Israel.** Jerusalem: Israel Exploration Society.

- Finkelstein, I. 1995; The Great Transformation: The 'Conquest' of the Highlands Frontiers and the Rise of Territorial States. Pp. 349-365 in Thomas Levy (ed.), **The Archaeology of Society in the Holy Land.** London: Leicester.
- Finkelstein, I. 1996; Ethnicity and Origin of the Iron I Settlers in the Highland of Canaan: Can the Real Israel Stand Up? **Biblical Archaeologist** 4/59: 198-212.
- Finkelstein, I. 1997; Pots and People Revisited: Ethnic Boundaries in Iron I. Pp. 216-237 in N. Silberman and D. Small (eds.), **The Archaeology of Israel: Constructing the Past, Interpreting the Present.** Sheffield: Sheffield.
- Finkelstein, I. 1998; Bible Archaeology or Archaeology of Palestine in the Iron Age? A Reminder. **Levant** 30: 167-174.
- Finkelstein, I. 2007a; Patriarchs, Exodus, Conquest: Fact or Fiction? Pp. 41-55 in I. Finkelstein and A. Mazar (eds.), **The Quest for the Historical Israel: Debating Archaeology and the History of Israel.** Atlanta: Society of Biblical Literature.
- Finkelstein, I. 2007b; When and How Did the Israelite Emerge? Pp. 73-83 in I. Finkelstein and A. Mazar (eds.), **The Quest for the Historical Israel: Debating Archaeologyand the History of Israel.** Atlanta: Society of Biblical Literature.
- Finkelstein, I. and Magen, Y. (eds.) 1993; **An Archaeological Survey in the Hill Country of Benjamin.** Jerusalem: Israel Antiquity Authority.

- Finkelstein, I. and Silberman, N. 2001; **The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Israel and the Origin of Its Sacred Texts.** New York: The Free Press.

- Fischer, P. 2007; The "Jebusite" Burial Place in Jerusalem: Chocolate-On-White Ware and Chronology. Pp. 200 – 211 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), Jerusalem before Islam. **British Archaeological Reports International Series** 1699. Oxford: Archaeopress.

- Franken, H. 1989; Jerusalem in the Bronze Age. Pp. 11 – 42 in K. J. Asali (ed.), **Jerusalem in the History**. Essex: Scorpion Publishing LTD.

- Franken, H.J. 2007; A History of Excavation in Jerusalem. Pp. 45 – 53 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports International Series 1699. Oxford: Archaeopress.

- Freedman, D.N.; MacDonald, R.B. and Mattson, D.L. 1975; **The Published Works of William Foxwell Albright: A Comprehensive Bibliography.** Cambridge: American Schools of Oriental Research.

- Fritz, V. and Kempinski, A. 1983; **Ergebnisse der Ausgrabungen auf der Hirbet el-Masa (Tel Masos) 1972-1975, Texts and Plates.**Wiesbaden: Harrassowitz.

- Gadot, Z. and Uziel, J. 2017; The Monumentality of Iron Age Jerusalem Prior to the 8th Century BCE. **Tel Aviv** 44: 123-140.

- Galow, K. and Avi, G. (eds). 2011. **Unearthing Jerusalem, 150 Years of Archaeological Research in the Holy City.** Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns.

- Garrod, D. and Bate, D.M. 1937; **The Stone Age of Mount Carmel.** Oxford.
- Geva, H. 1984; The Camp of the Tenth Legion in Jerusalem: An Archaeological Consideration. **Israel Exploration Journal** 48: 239-254.
- Geva, H. 1993; Jerusalem: The Second Temple Period and Roman Period. Pp. 717-767 in E. Stern (ed.), **The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land. Vol. 2.** Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Gonen, R. 2003; **Contested Holiness: Jewish, Muslim and Christian Perspectives on the Temple Mount in Jerusalem.** Ktaf: Jeresy City.
- Gottwald, N. 1979; **The Tribes of *Yahwa*: A Sociology of the Religion of the Liberated Israel 1250-1050 B.C.E.** New York: Orbis Books.
- Gottwald, N. 1983; Two Models for the Origins of Ancient Israel: Social Revolution or Frontier Development. Pp. 5-24 in H.B. Huffmom, F.A. Spina and A.R.W. Green (eds.), **The Quest for the Kingdom of God: Studies in Honor of George Mendenhall.** Winona Lake, Indiana: Eisenbrauns.
- Gottwald, N. 1985; The Israelite as a Social Revolutionary Movement. Pp. 34-46 in **Biblical Archaeology Today: Proceedings of the International Congress on Biblical Archaeology, Jerusalem, April 1984.** Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Graf, D., F. 2007; The Hellenistic and Roman Periods. Pp. 106–117 in in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports International Series 1699. Oxford: Archaeopress.

- Gray, J. 1965; The Legacy of Canaan. 2nd Edition. **Vetus Testamentum Supplement 5**. Leiden.
- Greenberg, R. 2009; Towards an Inclusive Archaeology in Jerusalem: The Case of Silwan/ The City of David. **Public Archaeology** Vol. 8. No. 1: 35–50.
- Greenberg, R. and Keinan, A. 2007; **The Present Past of the Israeli-Palestinian Conflict: Israeli Archaeology in the West Bank and East Jerusalem.** Tel Aviv: The S. Daniel Abraham Center of International Religion Studies, Tel Aviv University.
- Hacket, J.A. 1997; Canaan. Pp. 408-409 in E.M. Meyers (ed.), **The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Volume I.** New York: Oxford University Press.
- Harrison, T. 2009; New-Hittites in the “Land of Palestine”. Renewed Investigation at Tell Ta’yinat on the Plain of Antioch. **Near Eastern Archaeology** 72.4: 174-189.
- Harrison, T. 2013; Tayinat in the Early Iron Age. Pp. 61-88 in K. A. Yener (ed.), **Late Bronze-Iron Age Relations between Syria and Anatolia.** Proceedings of a Symposium held at the Research Center of Anatolian Studies, Koç University, Istanbul May 31–June 1, 2010. Leuven: Peeters.
- Hasel, M.G. 1994; Israel in the Merneptah Stele. **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 296: 45-62.
- Hermon, S., Prag, K. and Rosen, S.A. 1995; Note on a Handaxe/Chipped Stone Implement Found on the Mount of Olives. Pp. 256-257 in I. Eshel and K. Prag (eds.), **Excavations by K.M. Kenyon in Jerusalem 1961 –**

1967. IV. The Iron age Cave Deposits on the South-east Hill and Isolated Burials and Cemeteries Elsewhere. British Academy Monographs in Archaeology No. 6. Oxford: British school of Archaeology in Jerusalem.

- Herr, L. 2007; Jerusalem in the Iron Age. Pp. 74- 85 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports International Series 1699. Oxford: Archaeopress.
- Howard, D. M. Jr. 1992; David. Pp.41- 49 in D.N. Freedman (ed.), **The Anchor Bible Dictionary**, Vol. 2, D – G. New York: Doubleday.
- Hübner, U. 2007; Jerusalem and the Jebusites. Pp. 17-22 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports International Series 1699. Oxford: Archaeopress.
- Isaac, B. 1998; **The Near East under Roman Rule: Selected Papers.** Leiden: Brill.
- Isserlin, B.S.J. 2001; **The Israelites**. Minneapolis: Fortress Press.
- Kafafi, Z. 2014; New Insights on the Copper Mines of Wadi Faynan/ Jordan. **Palestine Exploration Quarterly** 146//4: 263-280.
- Kafafi, Z. 2014a; Jerusalem in the Bronze and the Beginning of the Iron Ages: Biblical Narratives, Literary Sources, the Archaeological Evidence and Margreet Steiner. Pp. 245 – 256 in E. van der Steen, J. Boertien and N. Mulder-Hymans (eds.), **Exploring the Narrative, Jerusalem and Jordan in the Bronze and Iron Ages**. London: Bloomsbury.
- Kafafi, Zeidan and Robert Schick (eds.) 2007; **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports International Series 1699. Oxford: Archaeopress.

- Kenyon, K. 1957; **Digging Up Jericho.** London.
- Kenyon, K. 1963; **Amorites and Canaanites**. London: Schweich Lectures.
- Kenyon, K. M. 1966; Excavations in Jerusalem, 1965. **Palestine Exploration Quarterly** 98: 73-88.
- Kenyon, K. 1974; **Digging Up Jerusalem.** London: Penn.
- Killebrew, A. 2005, **Biblical Peoples and Ethnicity: An Archaeological Study of Egyptians, Philistines, and Israel, 1300- 1100 BCE**. Leiden: Brill.
- King, Ph.J. 1992; Jerusalem. Pp. 747-766 in D.N. Freedman (ed.), **The Anchor Bible Dictionary. Volume 3 H-J.** New York: Doubleday.
- Kitchen, K.A. 2007; Jerusalem in Ancient Egyptian Documentation. Pp. 28 – 37 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem Before Islam**. BAR International Series **1699.** Oxford: Archaeopress.
- Knauf, E.A. 1994; Bayt Dawīd ou *BaytDōd? **Biblische Notizen** 72: 60-69.
- Knauf, E. A. 2007; Jerusalem in the Tenth Century BCE. Pp. 86- 105 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), Jerusalem before Islam. **British Archaeological Reports (BAR) International Series** 1699. Oxford: Archaeopress.
- Kozelsky M. and Ben Yehuda, N. (eds.), **Selective Remembrances: Archaeology in the Construction, Commemoration, and Construction of National Pasts**. Chicago: Chicago University Press.هذا الكتاب حرر من قبل Kohl P.L., Kozelsky M. and Ben-Yehuda N.

- Landauer, G. 1925; **Palästina. 300 Bilder. Einleitung von S. Hedinmit Ausführlich Beschreibendem Text.** München: Meyer und Jessen Verlag.
- Lemaire, A. 1994; "House of David" Restored in Moabite Inscription. **Biblical Archaeology Review** 20: 30 – 37.
- Lemche, N.P. 1985; **Early Israel: Anthropological and Historical Studies on the Israelite Society before the Monarchy.** Leiden: E. J. Brill.
- Lemche, N.P. 1991; **The Canaanites and Their Land. The Tradition of the Canaanites.** Journal of the Study of the Old Testament Supplement Series 110. Sheffield: JSOT Pres.
- Lemche, N.P. 1998; **The Israelite in History and Tradition**. London: Westminister John Knox Press.
- Lipinski, E. 2007; The Demography of Jerusalem. Pp. 3 - 16 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports (BAR) International Series 1699. Oxford: Archaeopress.
- Loffreda, S. 1973; The Late Chronology of some Rock-Cut Tombs of the Selwan Necropolis, Jerusalem. **Liber Annuus** 23: 7-36.
- Macalister, R.A.S. and Duncan, J.G. 1926; Excavations on the Hill of Ophel, Jerusalem. **Annual of the Palestine Exploration Fund** 4. London.
- Margalit, B. 1995; Studies in NWSemitic Inscriptions, **Ugarit-Forschungen** 26 :275.
- Mazar, B. 1993; Jerusalem. Pp. 698 – 701 in**The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.** Vol. 2. New York: Simon and Schuster.

- Mazar, B. 1975; Jerusalem in the Biblical Period. Pp. 1-8 in Y. Yadin (ed.), **Jerusalem Revealed: Archaeology in the Holy City**. Jerusalem: Israel Exploration society.
- Mazar, E. 2006; Did I find King David's Palace? **Biblical Archaeology Review** 32/1: 16 - 27, 70.
- Mazar, E. 2009. **The Palace of King David: Excavations at the Summit of the City of David: Preliminary Report of Seasons 2005–2007.** Jerusalem: Shoham Academic Research and Publication.
- Mazar, E. and Mazar, B. 1989; Excavations in the South of the Temple – the Ophel of Biblical Jerusalem. **Qedem 29.** Jerusalem: Institute of Archaeology, Hebrew University of Jerusalem.
- Meek, Th: 1936; The Israelite Conquest of Ephraim. **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 61: 17-19.

- Meek, Th: 1936; The Israelite Conquest of Ephraim. **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 61: 17-19.

- Mendenhall, George. 1962; The Hebrew Conquest of Palestine. **Biblical Archaeologist** 25/3: 66-87.
- Mendenhall,George.1973;**The Tenth Generation: The Origins of the Biblical Tradition.** Baltimore: John Hopkins University.
- Mendenhall, George 1976; Change and Decay in All Around I See. Conquest, Covenant, and the Tenth Generation. **Biblical Archaeologist** 39/3: 152 - 157.
- Miller, J.M. and Hayes, J.H. 1986; **A History of Ancient Israel and Judah**. Philadelphia: Westminster Press.

- Miller, P.D. Jr. 1981; Ugarit and the History of Religion. **Journal of the Northwest Semitic Languages** 9. 119:128.
- Moran, W.L. 1992; The Amarna Letters. Baltimore: John Hopkins University.
- Noth, M. 1948; **Überlieferungsgeschichte des Pentateuch**. (trans. by B. Anderson 1972). Prentice-Hall.
- Noth, M. 1958; **The History of Israel**. New York: Harper and Row.
- Prag, Kay 1991;An Early Bronze Age Burial in Jerusalem. **Palestine Exploration Quarterly 123:** 129 - 132.
- Prag, K. 1995; The Intermediate Early Bronze- Middle Bronze Age Cemetery on the Mount Olives. Pp. 221 – 241 in I. Eshel and K. Prag (eds.), **Excavations by K. M. Kenyon in Jerusalem 1961 – 1967. IV. The Iron age Cave Deposits on the South-east Hill and Isolated Burials and Cemeteries Elsewhere**. British Academy Monographs in Archaeology No. 6. Oxford: British school of Archaeology in Jerusalem.
- Prag, K. 2007; Jerusalem in the Third and Second Millennia BC: The Archaeological Evidence. Pp. 54 – 68 in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. **British Archaeological Reports (BAR) International Series** 1699. Oxford: Archaeopress.
- Pritchard, J. B. (ed.) 1969; **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament**. 3rd Edition. Princeton: Princeton University.
- Rainey, A.F. 1994; The 'House of David' and the House of the Deconstructionists, **Biblical__Archaeology Review**, 20/6: 47.
- Redford, D.B. 1992; **Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times.** Princeton: Princeton University Press.

- Redmount, C.A. 1999; ‘Bitter Lives: Israel in and out of Egypt’ in The Oxford History of the Biblical World, ed: M.D. Coogan, Oxford University Press: 1999.
- Reich, R. 1994; The Ancient Burial Ground in the Mamilla Neighborhood, Jerusalem. **Geva:** 111-118.
- Reich, R. 2011. **Excavating the City of David Where Jerusalem’s History Began**. Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Reich, R., and E. Shukron. 2007. Recent Discoveries in the City of David. **Israel Exploration Journal** 57:153–69.
- Reifenberg, A. 1948; **Journal of the Palestine Oriental Society 21. عنــوان المقــال**
- Rendsburg, G.A. 1995, “On the Writing ביתדוד in the Aramaic Inscription from Tel Dan,” **Israel Exploration Journal** 45: 22-25.
- Saller, S.J. 1964; **The Excavations at Dominus Flevit (Mount Olivet, Jerusalem), Part II. The Jebusite Burial Place.** Jerusalem: The Franciscan Press.
- Sartre, M. 2005; The Middle East Under Rome. (translated by C. Porter and E. Rawlings). Harvard: Harvard University press.
- Schick, R. 2007; Jerusalem in the Byzantine Period. Pp. 169-188 Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam.** British Archaeological Reports International Series 1699**.** Oxford: Archaeopress.
- Schürer, E. 1973; **The History of the Jewish People in the Age of Jesus Christ (175 BC – AD 135), Vol. I.** Edinburgh: Clark.

- Seger, J.D. 1983; Investigations at Tell Halif, Israel, 1976-1980. **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 252:
- Shiloh, Y. 1975; Tables of major Archaeological Activities in Jerusalem Since 1863. Pp. 131–136 in Y. Yadin (ed.), **Jerusalem Revealed: Archaeology in the Holy City 1968-1974.** Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Shiloh, Y. 1981; The Rediscovery of warren's Shaft. **Biblical Archaeologist Review** 7: 24 - 39.
- Shiloh, Y. 1984; Excavations at the City of David 1, 1078-1982. ***Qedem*** 19. Jerusalem: The Hebrew University.
- Shiloh, Y. 1993; Jerusalem. Pp. 701 – 713 in E. Stern *et al* (eds.), **The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.** Vol. 2. New York: Simon and Schuster.
- Simmons, J. 1952; **Jerusalem in the Old Testament: Researchers and Theories**. Leiden: Brill.
- Soggin, E.A. 1977; **The Davidic – Solomonic Kingdom in the Israelite and Judaean History.** J.H. Hayes and J.M. Miller. London: SCM.
- Spiegelberg, W. 1896; Der Siegeshymnus des Merneptah auf der Flinders Petrie-Stele. **Zeitschrift für ägyptischen Sprache und Altertumskunde** 34: 1-25.
- Stager, L.E. 2001; Forging an Identity: The Emergence of Ancient Israel in M. Coogan (ed.), The **Oxford History of the Biblical World.** Oxford: Oxford University Press.

- Steiner, M. 1998; David's Jerusalem: Fiction or Reality? It's not there. Archaeology Proves a Negative. **Biblical Archaeology Review** 24.4: 26-33, 62.
- Steiner, M.L. 2001; **Excavations by Kathleen M. Kenyon in Jerusalem 1961-1967**, Volume III. With an Appendix by D. Boas-Vedder. London: Sheffield Academic press.
- Steiner, M. 2007; Jerusalem in the Late Bronze and Iron Ages. Archaeology Versus Literary Sources. Pp. in Z. Kafafi and R. Schick (eds.), **Jerusalem before Islam**. British Archaeological Reports International Series.
- Steiner, M. 2016; From Jerusalem with Love. Pp.71-84 in Ingrid Hjelm and Thomas L. Thompson (eds.), **History, Archaeology and the Bible Forty Years After "Historicity". Changing Perspectives 6**. Routledge.
- Steiner, M. 2020; The City of David as Palimpsest. Pp. 3-10 in Lukasz Niesiotowski-Spanò and Emanuel Pfoh (eds.), **Biblical Narratives, Archaeology, Historicity. Essays in Honor Thomas L. Thompson.** Lonodon: 1&1 Clark.
- Stekelis, M. 1948; Rephaim- Ba'ca: A Palaeolithic Station in the Vicinity of Jerusalem. **Journal of the Palestine Oriental Society** 21: 80-97.
- Thompson, T.L. 1999; **The Bible in History: How Writers Creat a Past.** London: Jonathan Cape.
- Tubb, J. 1998; **Peoples of the Past**. London: The British Museum Press.
- Tushingham, A. D. 1985; **Excavations in Jerusalem** 1961-1967. Volume I. Toronto: Royal Ontario Museum.

- Ussishkin, D. 1993; **The Village of Silwan. The Necropolis from the Period of the Judean Kingdom.** Jerusalem: Israel Exploration Society.
- Van Seter, J. 1975; **Abraham in History and Tradition.** New Haven: Yale University Press.
- Vincent, L.H. 1911; **Jerusalem sous terre**. London.
- Weill, R. 1920; **La cité de David 1913-1914**. Paris.
- Weill, R. 1947; **La cité de David 1923-1924**. Paris.
- Weippert, M. 1971; **The Settlements of the Israelites Tribes in Palestine.** Translated by J. Martin. London: SCM Press.
- Weippert, M. 1982; Remarks on the History of Settlement in Southern Jordan during the Early Iron Age. Pp. 153-162 in A. Hadidi (ed.), **Studies in the History and Archaeology of Jordan** I. Amman: The Department of Antiquities of Jordan.
- Whitelam, K. 2001; **The Invention of Ancient Israel, the Silencing of Palestinian History**. 4th Reprint. London: Routledge.
- Wilkinson, J. 1978; **Jerusalem as Jesus Knew it.** London: Thames and Hudson.
- Wilkinson, J. 1989; Jerusalem under Rome and Byzantium. Pp. 75 – 105 in K. Asali (ed.), **Jerusalem in History.** Essex: Scorpion Publishing LTD.
- Wilson, J. 1969; An Egyptian Letter. Pp. 475-479 in J.B. Pritchard (ed.), **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.** 3rd Edition. With Supplement. Princeton: Princeton University.

- Wright, G.E. 1940; Epic of the Conquest. **Biblical Archaeologist** 3/3: 25-40.
- Wright, G.E. 1960; **Biblical Archaeology: Abridged ed.** Philadelphia: Westminster.
- Wright, G.E. 1962; **Biblical Archaeology.** 1st Edition. Philadelphia: Westminister.
- Yadin, Yigal 1982; Is the Biblical Account of the Israelite Conquest of Canaan Historically Reliable? **Biblical Archaeology Review** 8/2: 16-23.
- Zilberstein. A. and Shatil, A. 2013. "New Finds Dating from the British Mandate from the Tyropoeon Valley: the Givati Parking Lot Excavations near the Dung Gate". **Strata: Bulletin of the Anglo-Israel Archaeological Society** 31: 153–162.



منظر عام للجهة الشرقية من الحرم الشريف
(تصوير زيدان كفافي 6/ 7/ 2019م)

هذا الكتاب:

جاءت الحاجة الماسة لكتابة كتاب باللغة العربية يخاطب أهل الضاد جميعًا، معتمدًا في دراسته على المعلومة التاريخية الصحيحة المكتوبة أو المنقوشة، إضافة للمادة الأثرية المكتشفة، لكن بعد تمحيص وتدقيق المعلومات التي نشرها المنقبون؛ إذ إن غالبيتهم صهاينة أو متصهينين. كما أننا لا نجد بأسًا في أن يرجع المشاركون في قراءة فصول هذا الكتاب لمناقشة المعلومات التي وردت في الكتاب المقدس حول القدس، لكنْ، لا بد من التحقق من صحتها بعد مقارنتها بما نُشر عن المخلفات الأثرية والمصادر التاريخية الأصلية. كذلك لا بد من التأكيد أن ما ورد في الأسفار التوراتية لا يعد مصدرًا أساسيًا في هذه الدراسة، ولكنه ثانوي ويجب مواجهته «الحجة بالحجة». كما ويجب النظر للكتاب المقدس على أنه مصدر دينياً وليس تاريخيًا.





دار الشروق للنشر والتوزيع
عمّان، الأردن / رام الله، فلسطين
email : shorokpub@gmail.com
shorokpr@palnet.com
www.shorok.com

9 789957 008420